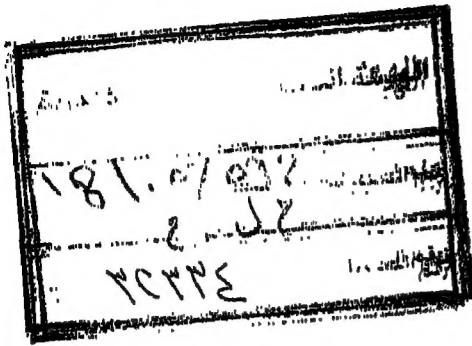


محمد راتب الحلاق



عبد الحميد الزهراوي

١٢٨٨ - ١٣٣٤ هـ / ١٨٧١ - ١٩١٦ هـ

دراسة في فكره السياسي والاجتماعي



منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥

General Organization of the Alexandria Library / ١٥١٦
Alexandria, Egypt

عبد الحميد الزهراوي

١٢٨٨ - ١٣٣٤ هـ / ١٨٧١ - ١٩١٦ م

دراسة في فكره السياسي والاجتماعي

الإهداء

* إلى أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر . . .

* إلى شهداء الأمة على دروب الحرية والعزة والكرامة

تمثلين بشيخ شهداء العروبة عبد الحميد الزهراوي



المقدمة

من الرجال نفر يكونون ملء السمع والبصر تردهي بهم المناير
وتزدان بهم المناصب وتفتح لهم القلوب والعقول بما يملكون من صفات
شخصية فذة وبما أوتوا من صدق مع الذات ومع المبدأ ومع الناس . في
كلامهم لهجة الصدق وفي عملهم سمة الاخلاص وفي كتاباتهم نبرة الحق
والعدل . ولكن ما إن يفارقون الحياة الدنيا وما إن ينفض المآثم عنهم
حتى يسدل عليهم ستار كثيف من النسيان والنكران فلا يكاد يسمع
بهم أحد وكأنهم لم يكونوا بالأمس زينة المهرجانات وأبطال المواقف
العسكرية ورواد الأمة في نضالها وكفاحها .

ومن هؤلاء النفر الذين كاد يلفهم النسيان المطبق الشهيد
(السيد)^(*) عبد الحميد الزهراوي الذي يكاد أن يكون مجهولاً من مثقفي
الأمة فضلاً عن عاصمتها مع أنه أحد أهم رواد الفكر العربي الحديث وأحد
أساطين النهضة العربية المعدودين وواحد من الذين لدوا قضيتها المقدسة
بدمائهم الزكية الطاهرة .

وقد أغرائني بالبحث في فكر الزهراوي ما اعتبره ميزة تفرد بها من
دون أقرانه فهو إلى جانب ممارسته العملية لكل ما كان يبشر من فكر فإن
فكره ولبد عقل متفتح مثقف ، فيه من الأصالة بقدر ما فيه من الحداثة ،
وفيه من العمق بقدر ما فيه من الشفافية والاستشراق .

(*) يطلق عادة لفظ (السيد) على الأحياء من العلماء والأدباء والباحثين حين ترد
أسمائهم في البحث . ولكن لفظ (السيد) في التراث العربي الحديث كان يسبق
أسماء الرجال الذين ينتسبون إلى العزة الشريفة (آل البيت) .

والقارئ لكتابات الزهراوي - وهي كثيرة ومتنوعة الأغراض - يجد فيها دائماً ملامح الكاتب المفكر ، أكثر مما يجد فيها ملامح الكاتب الأديب ، وإن كنت لأعني أن كتاباته خلو من لمسات أديب جزل الأسلوب ، ناصع العبارة ، إنما الذي قصدت إليه أن الزهراوي كان يخاطب العقول أكثر مما يخاطب العواطف والمشاعر .

وقد وجدت نفسي وأنا أبحث في فكر الزهراوي وأبحث عن أفكاره المبتوثة في المصادر الكثيرة أشعر بالمتعة السارة والمفاجأة المدهشة في آن معا : المتعة لأنني وجدت فيها مادة دسمة تستحق البحث والتنقيب والمفاجأة لأنني كنت كلما ازددت غوصاً في طلب المزيد من كتابات وأفكار هذا المفكر العبقري وجدت من الكنوز الثمينة التي كان يصوغها بفكر علمي رصين ما ينسي عناء البحث والتنقيب .

وإذا كنت قد اخترت البحث في فكر هذا الرائد فشعوراً أمني بأن الرجل يستحق أن يقدم إلى القراء العرب والباحثين العرب وأن تأخذ أفكاره طريقها إلى دائرة الضوء والدراسة بعد أن طال التعتيم عليها لسبب أو لآخر واعتقاداً أمني بأن الجيل الجديد من أمتنا يجب أن يعرف عن الزهراوي أكثر من مجرد أنه أحد شهداء الأمة أو أنه رئيس المؤتمر العربي الأول بباريس ذلك أن الزهراوي قمة شامخة لكنها لم تستكشف حق الاستكشاف ، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الزهراوي ابن حقبة محددة وبيئة معينة لها ظروفها ومعطياتها الخاصة بها وأن الزهراوي في تعامله مع ما أفرزته تلك الحقبة من معطيات قد يكون أصاب وقد يكون أخطأ ونحن في حكمنا على آرائه وتصرفاته وتوجهاته يجب أن ننطلق من معطيات تلك الحقبة ومن الخصوصية التي تلازمها حتى لانقع ضحايا منطقنا وأسرى وجهات نظرنا .

لذلك فأنني عند بحثي في أفكار هذا الرجل وعند حكمي على موافقه وتصرفاته قد حاولت جاهداً الابتعاد عن أحكام سابقة وعن آراء قبلت فيها بغير علم وحاولت أن أرجعها ما أمكن إلى كتابات الزهراوي نفسه وإلى كتابات معاصريه وأن ألم بطبيعة الحقبة التي عاش فيها

والمعطيات التي أفرزتها على الصعد المختلفة وأهم التوجهات التي انبثقت
عن تلك المعطيات ، لذلك سأحاول أن أعرف بالرجل من حيث مولده
ونشأته وبيئته الخاصة والبيئة العامة التي قدر له أن يعيش فيها وسأحاول
أن أعطي لمحة عن دراسته ومصادر ثقافته و "مشوار" حياته وأهم
الأحداث التي ربما يكون لها أثر في فكره وسلوكه وتصرفاته كما
سأحاول أن أعرف بالعصر الذي عاش فيه وبالبنية السياسية والاجتماعية
والاقتصادية والثقافية لتلك الفترة وأهم الأحداث التي وقعت فيها وأن
ألمس آثارها في آرائه ومواقفه ثم أحاول أن أعرف بأهم آراء وأفكار
الرجل في مناحي الحياة المختلفة فأبين رأيه في الإصلاح والمصلحين وفي
المرأة وفي السياسة وفي التجديد وفي الحرية وفي العدالة وفي التعصب ثم
أبين رأيه وموقفه (العروبي) وأحاول أن أوضح فهمه (للعثمانية)
ورفضه للجامعة الإسلامية متطرقاً أثناء ذلك إلى مواقفه التي جرت عليه
سخط الساخطين وانتقادات المنتقدين والتي جرت عليه وكان لابد أن تجره إلى
جبل المشنقة مبرزا الحدة الثورية التي كان يعرض من خلالها آراءه ، تلك
الثورة التي كان لابد أن يتسلح بها إنسان نذر نفسه لنصرة الحق
ومقارعة الباطل .

هذا وحسبي أنني بذلت جهد المقل في إنصاف واحد من أبطال
الأمة العربية وأحد روادها في دروب النهضة والتقدم .

رمضان ١٤٠٧ هـ

أيار ١٩٨٧ م

محمد راتب الملاق



الفصل الأول

العصر وبنية المجتمع

من المعروف أن الدولة العثمانية إنما ولدت من خلال الحرب، وللحرب عاشت ، لذلك فهي لم تهتم بالنواحي الأخرى ، إلا بقدر ما تخدم تلك النواحي التوجهات العسكرية ، والآلة الحربية . فهي لم تهتم بالنواحي الاقتصادية مثلاً إلا لإتاحة المزيد من فرص سلب ونهب خيرات ممتلكاتها ، أما النواحي الاجتماعية والحضارية فلم تكن لتقيم كبير وزن لها . فنحن لانكاد نعر على أي جهد حضاري بذلته هذه الدولة خلال سنوات قيامها ، كما لانكاد نلاحظ أي جهد توليفي بين الشعوب والأمم والحضارات التي تكونت منها ، ولانستطيع أن نشير إلى أية رسالة حضارية حاولت هذه الدولة أن تحملها ، وأن توصلها إلى البلدان التي سيطرت عليها . كل هذا جعل بقاءها رهناً ببقاء آلتها العسكرية قوية متمكنة . وإن دولة تقوم على الحرب والقوة والغلبة لاتستطيع استيعاب أو تحمل أية نكسات عسكرية . بل إن هزيمة عسكرية ، كفييلة بتفسيحها وانهيارها . ولعل أكبر دليل على الإخفاق الحضاري الذريع لهذه الدولة ، أنها لم تستطع في يوم من الأيام أن تكسب ود شعوب المناطق التي سيطرت عليها . وإذا استثنينا

المناطق العربية والإسلامية ، فإن شعوب وأمم المناطق الأخرى ، كانت تشعر دائماً ، بأنها لا تمت إلى حكومة (الاستانة) بصلة تذكر ، اللهم إلا صلة القهر والتسلط والاستعباد . ولم يستطع أي إنسان في تلك المناطق ، أن يقتنع بأنه عثماني ، وأن يفتخر بانتمائه لهذه الامبراطورية ، بل على العكس من ذلك تماماً ، كان ينتظر الفرصة الملائمة للثورة والانقضاض على هذه الدولة المغتصبة .

أما استثنائنا للمناطق العربية والإسلامية فله ما يبرره ، فثمة رابطة الدين تجمع بينهم وبين الأتراك من جهة ، ومن جهة أخرى أتى حين من الدهر استأثر فيه السلاطين بلقب الخلافة ، وصاروا أمراء للمؤمنين وتلقبوا بحمادة الحرمين الشريفين ، فاعتقد العرب والمسلمون بأن هؤلاء سيكملون مبادئ الأوائل ، في نشر راية الدين الحنيف ، وإيصال الرسالة السمحة إلى كل فج عميق ، واعتقدوا بالتالي أن انتصارات هؤلاء في معاركهم ، إنما هي انتصارات للإسلام وللمسلمين جميعاً ، ولم يكن لهذا الاعتقاد ما يبرره بطبيعة الحال "فهم قد أرهقوا الأقطار العربية بأعباء تلك الحروب وقد تساءل العرب والمسلمون عن جدوى حروب لم تكن غايتها نشر الدعوة الإسلامية أو الحضارة الإسلامية لذلك لم تترك وراءها أي أثر يذكر . وإن تلك الحروب لم تكن إلا نزوة عسكرية مغامرة ، تحمل المسلمون أوزارها ومايزالون"^(١) . فالإسلام دين حضارة ، ولم يكن لدى هؤلاء ما يعتد به في هذا المجال .

والإسلام دين محبة ورحمة وتسامح ، ولم يكن في موروث هؤلاء إلا السفك والتذابح ، والحقد القاتل . ثم إن الإسلام مادخل أرضاً إلا زاد في إعمارها وإعلاء شأنها في شتى المجالات ، وما كان هؤلاء إلا طلاب غنائم ، ومحترفي حروب وخراب ودمار .

ثم إن من يريد خدمة الإسلام ، وإعلاء شأنه لا بد أن يجعل أحد جناحيه إن لم يكن جناحاه جميعاً من حملة الرسالة . وأهلها الذين بعث الرسول منهم ، ونزل القرآن بلسانهم العربي المبين . بينما يؤكد الواقع أن هؤلاء السلاطين ومن والاهم من بني جنسهم لم يفرقوا في تعاملهم بين إقليم امتلكوه وإقليم آخر ، فكل الأقاليم سواء ، وكل الشعوب دون مستوى الترك ، وإلا فهل يستطيع باحث مهما حاول ، أن يدلنا على عظيم من العرب برز في عهد تلك الدولة ، في أي مجال من المجالات ، اللهم إلا أن في البطانة الفاسدة ، يطبل ويزمر ويساهم في الفاسد من أمورها ، فقد "كانت الدولة العثمانية مكونة من خلاصة الظلم والقسوة والرشوة والجهل والهمجية ففي عهدها قضي على ما أبقاء التتر والمغول وأضرابهم من معالم الحضارة ، وحكم على لغة الضاد أن تظل في سبات عميق طيلة قرون " (٢) .

أما السبب الذي دفعني - مع ذلك - إلى استثناء العرب والمسلمين ، فهو أنه في الوقت الذي لم يشعر فيه اليوناني أو البلغاري مثلاً بأية مودة نحو الدولة العثمانية ، وكان يتمنى زوالها ، فإن العربي لم يشعر بالمودة نحو الحكومات وزبائيتها ، وكان يتمنى زوال تلك الحكومات الفاسدة ، والتي حادت عن الصواب . أما الدولة فهي دولته ، وظل هذا الشعور ملازماً حتى للمصلحين والخاصة من أبناء العرب حتى وقت متأخر "إنني أقرر بكل صدق وإخلاص بأنني وجميع من استعنت بهم وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبانهم لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية" (٣) ويؤكد (مصطفى الشهابي) مذهب اليه (شعب الدين الخطيب) فيذكر : "إن جميع من يعتد بهم من العاملين في سبيل القومية العربية في تلك الأيام ما أرادوا قط الانفصال التام عن الدولة العثمانية خشية

الوقوع في براثن الدول الاستعمارية ، وما لا يقبل الجدل أنه لم يكن لأحد من علاقة بدولة من الدول الاستعمارية ، وأنا أقول هذا عن معرفة بأعمالهم ودخائلهم" ^(٤) . فالأمر يتعلق بالنسبة للعربي بحكومة فاسدة يجب تغييرها ، ويذهب البعض إلى أن (محمد علي باشا) عندما أرسل ابنه (ابراهيم باشا) إلى بلاد الشام ثم اندفاع هذا باتجاه (الآستانة) إنما كان يهدف من جملة ما يهدف إلى قلب تلك الحكومة والاستيلاء على السلطة وليس مجرد الاستئثار بولاية سورية ^(٥) .

بل إن التمسك (بالعثمانية) كان في وقت من الأوقات هو الملجأ والبديل الوحيد في وجه الأطماع الأوروبية التي بدأت تكشف عن أهدافها وآمرها . فقد بدأ في وقت من الأوقات أن انهيار الدولة (العثمانية) لا يعني شيئاً أكثر من سقوط الوطن العربي لقمة سائغة في براثن الإستعمار الأوربي الذي كان قد بدأ بالفعل التقام بعض الأقاليم في الجزائر وعدن وتونس ومصر وطرابلس الغرب ، ولائنفى تطلعه إلى سورية والعراق ومناطق الخليج ، تسبقه إليها شركاته واحتكاراته وعملاؤه من الجواسيس الذين تزيروا بزي التجار والمبشرين والمستشرقين والأطباء والسياح .

" وكان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والتürk تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب واختياراً لأهون الشرين " ^(٦) " وقد كان المفهوم الغالب على أفكار كثير من رجال المسلمين الراغبين في الإصلاح أن يضعوا حداً لسوء الإدارة العثمانية وأن ينال العرب حقوقاً مساوية للأتراك وأن تكون هناك حرية سياسية كافية وإن كان ذلك كله لا يصل آنذاك إلى حد أن يفكر هؤلاء المسلمون في القضاء على الامبراطورية العثمانية

وإيجاد دولة عربية منفصلة عنها تمام الانفضال " (٧) وإن كان لابد من الإضافة هنا أن هذا الموقف ينسحب كذلك على الكثير من رجال الإصلاح المسيحيين .

وكانت عملية تفكيك الدولة العثمانية التي يمارسها الأوربيون لاتكاد تخفى على ذي عينين . وأكاد أزعم بأن حركة القومية العربية ماتأخرت بالظهور إلا لاهذه الأسباب .

ففي حين كانت الحركات القومية عند الشعوب الأخرى تعني التحرر والوحدة والقوة فإن القومية بالنسبة للعرب لم تكن شيئاً آخر سوى الإفلات من أثر حكومة مستبدة ، وسلطان طاغية للوقوع في أحاييل استعمار لايرحم خاصة وأن المصالح الأوربية لم تكن لتسمح عبر امتيازاتها وعملائها وسماستها بالنمو الطبيعي للفكر القومي عبر نمو الاقتصاد ، خاصة نمو وتطور الصناعة . وأكاد أزعم كذلك بأن السبب الذي جعل الفلاحين والحرفيين وأبناء المدن لايندفعون كثيراً باتجاه الفكرة القومية بأنهم أول من اكتسب بنار الاستعمار " فقد أدى تدفق المنتجات الصناعية الرخيصة من أوروبا إلى التقهقر السريع للحرف التقليدية وقضى على بواكير الانتاج الصناعي الذي كان في طور الولادة . . . وتحولت المدن من مراكز للانتاج الحرفي والتجارة الداخلية إلى مراكز لخدمة التجارة الخارجية مع أوروبا بالدرجة الأولى " (٨) وإن كنت لأريد الدخول في مزيد من التفاصيل الآن فلذلك مكانه في البحث إنما الذي أريد أن أقوله الآن بأن التعنت والجهل والتعصب الذي أبداه الاتراك لاسيما جمعية (الاتحاد الترقى) ، ونزعتها الطورانية الضيقة ، هي التي أدت إلى انهيار الدولة (العية) .

ولست من الذين لايعترفون بهذه الحقيقة فلنا منهم بأن هذا يسيء للحركة القومية عند العرب أو لحركة اليقظة والنهضة العربية

ولست من الذين تدفعهم أسباب كثيرة للبحث عن جذور عميقة للحركة القومية العربية كالدكتور (طيب تيزيني) حين جعل النهضة العربية تبدأ في منتصف القرن الثامن عشر ؟ على يد البروجوازية العربية ؟ والتي كان عليها ثلاث مهمات أولها بناء الدولة الوطنية ، كما يشير البعض إلى حركات مثل حركة (محمد علي باشا) أو المعنيين أو الشهابيين أو حركة (أحمد بشا الجزائر) أو حركة (محمد بن عبد الوهاب) على أنها مظاهر للحركة القومية عند العرب . بينما الحقيقة والواقع يؤكدان أن تلك الحركات إنْ هي إلا انتفاضات محلية أو جبهتها غايات مختلفة قد يجمع بينها الرغبة في التخفيف من ضغوط و سطوة العاصمة لمصلحة متنفذي المناطق .

ومع احترامي لكل الذين حاولوا أن يعطوا لهذه الحركات بعدا قوميا عربيا إلا أنني أجد صعوبة بالغة في قبول ذلك . ثم إن تأخر الوعي القومي ليس عيبا بحد ذاته مادام له ما يبرره ، وما دامت الظروف الموضوعية لم تتوفر لنشوءه ، خاصة ما يتعلق بضعف البروجوازية العربية ، وفشلها في إقامة صناعة محلية تستدعي بناء سوق قومية مع ملاحظة أن السوق ضاقت وانكملت بتفكك الدولة العثمانية .

وبرأيي أن من أسباب فشل المشروع القومي إلى الآن أن الحركة القومية العربية ولدت قبل أوانها ، واضطرت للثورة وهي لم تستكمل بعد أسباب تلك الثورة ، فكان أن دخلت في صراع غير متكافئ مع الغرب ، الذي مارس ولا يزال أنواعاً من الضغوط والتأثيرات السلبية ، وهو مافتئ يحاول أن يشكل المنطقة العربية بحيث تتلاءم مع مصالحه واستراتيجيته ، ويحاول أن يخضع الحضارة العربية لنوع من التفسير هو أقرب إلى المصادرة لصالح حضارته ، التي تسمى الظن بكل نموذج حضاري آخر ، وتعتبره دونيا ،

ولا يستحق مجرد البحث فيه . فالحضارة برأيهم هي الحضارة الأوروبية ، وكل ماعداها لا يمت إلى الحضارة بصلة .

ومنذ أن استغاثت أوروبا من رقادها ونفضت عنها أسباب تخلفها ودخلت في عملية صناعة نهضتها مستفيدة من جهود وعلوم وإنجازات الأمم التي سبقتها ، ومن ثورات العالم الجديد . ومنذ أن بدأت ثورة الإنتاج تحطم الحواجز الإقطاعية ، وتقيم الدول القومية ، ومنذ أن حدثت الثورة الصناعية وبدأت تدفع بسيل من السلع إلى الأسواق التي لم تعد تحتمل المزيد بدأت أنظار تلك الدول (الأوروبية) تمتد إلى خارج حدودها لتصرف تلك البضائع المكسدة وللحصول على المواد الخام الرخيصة .

وعلى مقربة من تلك الدول ثمة الدولة العثمانية ، بل إن أصابع تلك الدولة ، كانت تمتد إلى خاصرة تلك الدول في أعماق أوروبا ، فكان لابد من وقوع الاحتكاك بين الدول الأوروبية الناهضة ، وذلك العجوز المتغطرس ، الذي طالما أذاقها الهزائم تلوي الهزائم . وبدأت أصابع ذلك العجوز بالزهن والتراجع شيئا فشيئا من منطقة لأخرى ، ولكن دون أن يسمح لنفسه بالتراجع عن فكرة القوة العسكرية كأساس لدولته . لذلك لم يحاول أن يستفيد من علوم أوروبا ، ولا من صناعاتها اللهم إلا فيما يخدم توجهاته العسكرية . فكل البحوث وكل الإرساليات إلى أوروبا إنما كانت بعوثا عسكرية ؛ حتى المصانع التي حاول اشادتها لم تكن إلا مصانع حربية أو لخدمة التوجهات العسكرية .

وبدأت الأسوار العالية التي كانت تقف على حدود الدولة (العلية) بالتآكل والتصدع ، وبدأت عملية الانهيار الشامل ، وبدأت مراسم إعداد المآثم (للرجل المريض) والذي لم يحاول أحد إسعافه ، ولا كانت الرغبة عند أحد بشفائه . وبدأ الرأسمال

الأوربي يتحكم شيئاً فشيئاً بمقدرات الدولة وينتزع المراسيم والفرامانات السلطانية لحمايته " وأصبحت الاتجاهات في الحياة الاقتصادية تتغير لتكيف مع متطلبات السوق الأوروبية ^(٩) وعجزت الدولة عن سدّاد الديون الأوروبية ولأول مرة وقع الميزان التجاري بخلل واضح ^(١٠) . وأصبحت الدولة مرهونة للاحتكارات الرأسمالية ، لاسيما في النصف الثاني للقرن التاسع عشر . وراحت هذه الاحتكارات تجبرها على اتباع سياسات مالية وجمركية تناسبها، وصارت إرادتها هي النافذة . وإلى جانب ذلك أجبرت الدولة على التنازل عن جزء من سيادتها حين تنازلت عن سلطتها على بعض رعاياها ، وأذعنت لما صار يعرف بنظام (الحماية) والامتيازات . حيث ادعت كل دولة من الدول الأوروبية حق حماية بعض الطوائف ، وبذلك أصبحت الدولة عاجزة عن تطبيق قوانينها على بعض رعاياها ، مما أدى إلى تمتع البعض بما لم يكن يتمتع به الآخرون ، وتحمل البعض لتبعات لم يكن يتحملها الآخرون ، وشعور البعض بانتمائهم إلى دول وحكومات وحضارات خارج حدود الوطن . وكانت هذه هي البذرة الأولى للطائفية الخبيثة في وطننا حيث بدأت بعض الفئات تشعر بتمييزها عن الآخرين . وظل الأوروبيون يغذون هذه النعرات حتى اشتد عودها ، وأنت أكلها حقداً وبغضا وصل إلى حد التذابح في أكثر من مناسبة في القرن الماضي ، وهو أمر غريب في شرقنا ، صدره لنا الغرب من جملة ماصدر ، مما أدى إلى خلل في العلاقات الاجتماعية بين شرائح المواطنين ، وإلى الشعور بالانتماء الطائفي بشكل حاد ولأول مرة ، وإلى الممارسات الخاطئة من قبل البعض الأمر الذي أدى إلى تعميق الخلافات بين المواطنين . وهذا سبب آخر من أسباب الخلل الذي أصاب بنية المجتمع ، وأصاب العلاقات الاجتماعية بالصميم . فكان لابد من مراجعة الذات ، لاسيما من

قبل متنوري الأمة ، فحاول هؤلاء أن يضعوا أيديهم على مكنن
الذء ، وأن يوجدوا له الدواء . وبدؤوا بالتعرف على أسباب قوة
الأوربيين وأسباب ضعفنا ، أسباب تقدمهم وأسباب تخلفنا ،
وبدأت عملية الاستفادة من علومهم الطبيعية وتقنياتهم وإنجازاتهم ،
أما آرائهم وعلومهم الإنسانية فقد كان يجذ البعض الاستفادة من
تجاربيهم بما يتمشى مع حاجتنا واستعداداتنا ، في حين كان الحذر
مسيطر على البعض الآخر وكان الرأي عندهم أن لدينا في هذا
الجال ما يغنيننا وما هو أرقى وأفضل مما عند الأوربيين ، لكن ما لبثت
أن تسربت أفكار الأوربيين من خلال مترجم من كتبهم ، وعبر
البعثات التي زارت بلادهم ، والمبعوثين منهم إلينا . ولعل التماس
المباشر الرئيسي والحقيقي قد تم خلال حملة (نابليون بونابرت)
وماتلاها .

ولفهم المزيد عن طبيعة العصر لابد من الدخول في بعض
التفاصيل وهذا ما سنحاول عمله في الصفحات التالية .

الحياة الاجتماعية والسياسية

أولاً - الحياة الاجتماعية

١ - الحياة الاجتماعية في المدن :

كانت المدن تضم مجموعات من السكان تعمل في مجالات مختلفة ، وتتوزع على مستويات مختلفة ، فهناك الحرفيون ، والتجار ، والأعيان ، والموظفون ، ورجال الشرطة (الضابطة) ، والعلماء (رجال الدين) إلى جانب بعض (الفتوات والقبضيات) .

وكان الحرفيون يشكلون الشريحة الأكثر عددا والأقل حظا ، هذا إذا استثنينا بعض كبار الحرفيين ، الذين كانوا يملكون ورشات عمل واسعة فيها عدد من الصناع والأجراء . وإن كان أغلب هؤلاء الصناع من أبناء وأخوة صاحب الورشة . حيث كانت بعض الأسر تحتكر صناعة معينة تعرف بها دون سواها وربما اندثرت بعض الحرف بفناء أربابها وممارسيها مثل صناعة (القاشاني) مثلا .

وأشهر الحرف في تلك الفترة هي الحياكة والحداة والنجارة واللباعة وصناعة الأحذية والأدوات النحاسية والخزفية والفخارية

وبعض المهن المكملّة كالتنجيد وبعض مهن الخدمات كالحلاقة وبعض المهن التي تخدم الريف كالبيطرة . ولعل أكثر المهن انتشارا وشهرة كانت مهنة الحياكة وما يتصل بها من حرف مكملّة . وقد اشتهرت مدن بلاد الشام وبعض مدن مصر والعراق بانتاج أنواع من النسيج الجيد والمشهور على المستوى العالمي .

أمّا الأعيان فقد كانوا أكثر الناس رفاهية وحظاً نتيجة الأموال التي كانت تتدفق عليهم سواء من الهبات الحكومية أو مما تغله عليهم شراكتهم الصورية للفلاحين أو مما تدره عليهم أملاكهم وأراضيهم التي كانوا يكلفون بعض الفلاحين بالعمل فيها لقاء أجور لا تكاد تقيم أودهم .

وكان بين أسر الأعيان هذه أسر الأشراف التي يمتد نسبها حقيقة أو تزويرا إلى العزّة الشريفة وكانت تتمتع بامتيازات خاصة وحقوق إضافية .

أمّا التجار فقد كانت تجارتهم في البداية داخلية ، بمعنى أنهم كانوا واسطة بين المنتجين المحليين والمستهلكين المحليين كذلك ولكن بعد تغلغل النفوذ الأوربي في الدولة العثمانية وفتح البلاد أمام البضائع الأوروبية تحول الكثير من هؤلاء التجار لاسيما المسيحيين منهم^(١١) وأصبحوا وكلاء لبعض الشركات الأجنبية يعملون على تصريف مصنوعاتهما وتأمين المواد الأولية لها .

وقد أدى توسع أعمال التجارة إلى اغتناء هذه الشريحة الاجتماعية وراثتها وزيادة قوتها المؤثرة في المجتمع .

أمّا الموظفون الذين يعملون في الدوائر الرسمية فقد كانوا فئة قليلة العدد ، غريبة عن المدن غالبا (من مدن ومناطق أخرى) ولكنها رغم ذلك عرفت كيف تصنع لنفسها مكانة مرموقة وسط التركيبة الاجتماعية للمدينة وكان مما يميز هؤلاء تأنيقهم في اللباس ،

وتشددتهم في الكلام ، وتسلبتهم على عامة الناس ، وتسخيرهم لهم في قضاء حاجاتهم ، وتسابق البسطاء من العامة للخدمة هؤلاء لمجرد أن يقال أنهم يعرفون واحدا من موظفي (السراي) ^(١٢) .

أما عن العلاقات الاجتماعية في المدينة فقد كانت الأسرة (العائلة) تقيم في بيت واحد ، يختص كل واحد من الأبناء المتزوجين بغرفة ، أما الطعام فكان على (طبق واحد) كما يقولون أي يشترك الجميع بطعام واحد ، وكان الأب أو الجد هو المسؤول الأول .

وفي الحي تقوم بين الجيران عادات وطيدة من التعاون والتكافل والتساند . وكان وجوه الحي (أعيانه) يقومون مع المختار (شيخ الحارة) بحفظ الأمن في الحي ، ودفع الضرر ، وحمل الناس على احترام الحقوق . وكان (شيخ الحارة) و(الإمام) و(الأعيان) يشكلون ما يشبه المجلس الإداري والقضائي والتنفيذي في الحي وكل خلاف ينشأ في الحي فمرده إلى هذه الهيئة حيث تنظر في الخلاف وتفصل بين المتخاصمين . في حين كانت قوى الأمن الحكومية والسلطة الإجرائية الرسمية لا تقوم في الغالب إلا بحماية نفسها ، والمحافظة على الأماكن التي تسكنها ، يستقبلون بعض المراجعين نهارا ، فإذا جاء الليل أغلقوا مخافهم على أنفسهم وسكنوا على مضاجعهم ، لا يبالون بما حدث وبما يحدث ^(١٣) . وتصدر الإشارة هنا إلى أن مجلس الحي كان يستعين ببعض (القبضايات) من الفتوات وذوي البطش ممن أتوا بسطة في الجسم . وكان يخول نفسه حل الإشكالات وإدارة أمور الحي . وهو مسؤول عن أبناء الحي تجاه الأحياء الأخرى ، ويعمل على صيانة سمعة وكرامة الحي . فكل حي يمتلك ما يشبه الإدارة الذاتية الخاصة به ، ولكل حي راياته وبيارقه وأعلامه التي تميزه عن غيره من الأحياء والتي كانت ترفع في العراضات والاحتفالات والمناسبات . وكانت هذه الرايات

والأعلام تحفظ عند (شيخ شباب الحي) . أما في مواسم السَّوق إلى
الجنديّة فيُنصب سوقٌ للرَّشوة أبطاله (شيوخ الحارات) .

حيث يظهر كل واحد منهم براعته في جمع الأموال واقتسامها
مع رئيس التجنيد . وفي هذا الجو المفعم بالفساد ينجو من ينجو
وتقع (القرعة) على من تقع . فكان أبناء الأغنياء هم أصحاب
الأجسام يسرحون ويمرحون ، ولا يذهب إلى الجنديّة إلا المرضى
والمعلولون وأرباب العاهات من الفقراء الذين ليس لهم شافع (١٤) .

ومن الطريف أن الدولة (العلية) التي قاومت (اللامركزية)
بكل ما أوتيت من بطش وإرهاب ، ورفضت أن تتنازل عن
(المركزية المتزمتة) بإصرار شرس ، هي نفسها التي شجعت ورعت
تلك الانقسامات في المدن ، وحولت كل حي إلى وحدة إدارية شبه
مستقلة . وما فعلت ذلك إلا لتفتيت كل مدينة ، وإثارة معارك
جانبيهة هامشية تستنزف الجهد والنقمة ، فيصبح بأس المواطنين بينهم
شديد ، وينحصر همهم في قهر جيرانهم من أبناء الأحياء الأخرى
بدل العمل على تغيير الأحوال . حتى لقد وصل الأمر في أحياء
كثيرة إلى درجة نشوب معارك حقيقية بين الأحياء (كانت تسمى
الكون) يقتل فيها من يقتل ويخرج من يخرج ويؤسّر من يؤسّر
وتفرض الأتاوات و (الخوات) .

بل لقد كان لكل حي حدوده التي لا يجزؤ أحد على اقتحامها
أو تجاوزها دون أن يكون مستعداً لتحمل تبعات عمله .

ومن الطبيعي - كما هي العادة دائماً - أن يكون وقود هذه
المعارك وحمة اليارق والأعلام فيها من بسطاء الناس وعامتهم .
أما الأغنياء والأعيان والمتنفذون فكانوا يتصدرون المجالس ويتمتعون
بالميزات ويتراسون رفود المصالحمة والمجاملة ويتقدمون المواكب
ويتحلقون حول الموالد . ولا يفوتنا أن نذكر هنا تخصيص تلك

العائلات المتنفذة مكانا رحبا في بيوتهم لاستقبال الزوار والضيوف
والشركاء من البدو والفلاحين يسمى المنزل أو (الاناء) (*) .

وكانت تبحث في تلك المنازل الأمور الاجتماعية والسياسية
والاقتصادية . فالحرفيون وأرباب الصناعات المحلية يقصدون تلك
(المنازل) لطلب القروض والدعم أمام تفاقم أوضاعهم سوءاً
بسبب تدفق البضائع الأوروبية الرخيصة . والفلاحون الذين
تربطهم مع صاحب المنزل شراكة صورية يأتون لطلب قرض
(على الموسم) أو لطلب مشورة أو مساعدة في أخذ مريضهم إلى
الطبيب أو ليطلبوا الحماية من بعض رجال السلطة أو من هجمات
البدو أو من تعديات بعض (الأشقياء) .

وفقراء الحي وعامته يطلبون الرأي والمشورة في أمر اجتماعي
أو يطلبون المساعدة (لصرف) جابي الضرائب وكان صاحب
(المنزل) حريصاً - في الغالب - على تلبية ما يطلب منه كلما كان
ذلك ممكناً ليزيد من رصيده من (المحاسب) والأتباع والأنصار
الذين يدخرهم لوقت الحاجة .

وكان زعماء العائلات المدنية المتنفذة يشكلون قوة وسلطة
حقيقية قادرة على الضبط والربط وقد برهنت الأحداث أكثر من
مرة على قدرة هؤلاء وسطوتهم . فالكثير من الولاة ماكانوا
ليستطيعوا ممارسة أية سلطة على الإطلاق إلا عن طريق تقربهم من
تلك العائلات "والحقيقة أن هناك منطقتين للسلطة السياسية ،
واحدة خارجية متمثلة بالدولة العثمانية (الوالي) ، وأخرى داخلية
تشكل من الجماعات المحلية ذات النفوذ الاجتماعي والسياسي
المستقل في المجتمع فهي (الجماعات المحلية) لم تكن تشكل في

* أكبر الظن أن كلمة (اناء) ترجمة عامية لكلمة (قنّاق) التركية التي تعني مكان
الاستراحة .

بمجموعها وحدة سياسية متميزة ، ذات أيديولوجية موحدة ، بل كانت منظمة بشكل غير رسمي ؛ وكانت موزعة وفق خطوط عائلية و(اقتصادية - اجتماعية) وتتركز في مختلف أحياء المدينة حيث كانت سلطتها المستقلة تبرز بقوة (١٥) .

أمّا بالنسبة للدور الاجتماعي للمرأة فقد كان محدوداً للغاية ومحصوراً في أمور تربية الأطفال وإعداد الطعام وما إلى ذلك . أمّا الانخراط في الحياة الاجتماعية العامة فلم تعرفه المرأة إلا في حالات نادرة وعند بعض الطوائف وبعض العائلات إذ كانت تزداد الفرصة أمام المرأة للفاعلية الاجتماعية بازدياد اطلاع أسرتها على حالة المرأة عند الشعوب الأخرى . ومن هنا يمكن أن نفهم أسبقية المرأة لمبادرة الحياة الاجتماعية لدى العائلات التي عملت في التجارة لاسيما التجارة مع الأجانب

٢ - الحالة الاجتماعية في الأرياف :

ظل التأثير بالمستجدات ضعيفاً جداً في المجتمع القروي ، اللهم إلا في القرى التي ارتبطت انتاجها الزراعي بالاحتكارات الرأسمالية الأوروبية (مناطق زراعة التوت خاصة) ، وفي القرى التي افتتحت فيها مدارس للإرساليات التبشيرية ، وهي قرى مختارة بدعة ، ومحدودة العدد ولا يمكن اتخاذها قاعدة . أمّا بقية أنحاء الريف فقد كان الفلاحون واقعين فيها تحت رحمة أعيان المدن (أصحاب الأراضي) وتحت رحمة المرابين وإن كان أصحاب الأراضي والمرابون في حالات كثيرة عبارة عن جهة واحدة . كما إن الفلاحين كانوا واقعين تحت رحمة البدو ، إذ كثيراً ما كانوا يشنون عليهم الغارات التي هدفها السلب والنهب أو ائتلاف المحاصيل عن طريق رعي أغنامهم ومواشيهم للأراضي المزروعة وكان الفلاحون واقعين تحت

استمرار هذه التبعية تكمن في تراكم الديون على الفلاح ، وجعله يشعر باستمرار بحاجة لتلك العائلات المدنية لإقراضه ، وحمايته من تعسف رجال الحكومة ، ومن تعديات البدو ، ولتأمين الخدمات المختلفة التي لا تتوفر في مركز السلطة (المدينة) .

والأساس الذي تركز إليه تلك الشروط يقوم على شكل الملكية الزراعية في الدولة العثمانية ، وشكل استثمارها وهو شكل الأرض (الميري) التي يعود تملكها (رقبتها) في الأساس لبيت المال أي للدولة ، ولكن يخول للأهلين استثمارها ، أي حق التصرف بها بسند يسمى (سند التصرف) . وبرأي (محمد كرد علي) أن أكثر أراضي بلاد الشام من هذا القسم . . .^(١٧) وقد صارت (رقبة) تلك الأراضي في معظم الحالات بيد ثلة من العائلات المدنية (أعيان - علماء - أشرف - أغوات . .) وذلك بتأثير عوامل مختلفة أهمها طبيعة تشكل قوى السلطة في المدن ، وأشكال جباية الضرائب عن أرض (الميري) بواسطة هذه القوى المدنية ، مما أدى إلى تخلي الكثير من الفلاحين عن حق التصرف بالأرض لمصلحة متنفذي المدن .

وبصورة عامة أصبحت القرى تحت الرقبة والسلطة الكاملة لأعيان المدن ، فقبلاً سيطر التاجر ومالك الأرض والبيروقراطي على الريف ، وغالباً ما كان كل أولئك رجالاً واحداً أو عائلة واحدة . وبذلك ضارت الحياة الزراعية نتيجة (تتجير) الزراعة تحت سيطرة الأعيان . ويذكر صاحب (تخطيط الشام) أن قرى بكاملها سجلت بأسماء عائلات متنفذة في المدينة ويشير إلى أن غالبية القرى حول دمشق وحماة وحمص وسواها صارت بيد قلة من المتنفذين .

ووقوع القرى وفلاحيتها في شبكة متنفذي المدن كان يرضي نزعة أخرى في نفوس أولئك المتنفذين ونعني بها زيادة أهمية وقوة الساعين إلى الزعامة . كما يمكن أن نذكر هنا ملاحظته بعض

الدارسين الغربيين من تناقض آخر بين الريف والمدينة في بلاد الشام وهو أن المدينة (غربية) قوميا عن القرية ، فأعيان المدن وسكانها لم يأتوا من الريف المحيط بها (كما يجب أن يكون) وإنما ينتسبون إلى مدن وقبائل ومناطق بعيدة وهذا ما يمكن التأكد منه بملاحظة (الكنى) التي تحملها عائلات المدن . وفي ظل هذا الواقع من الفقر والجهل والظلم ، كان لابد أن تستشري أمراض وعادات وتقاليد وخرافات ، تصب جميعها في خانة جر هذا الفلاح إلى المزيد من الاستلاب والقهر والضياع .

أما المرأة في الريف فقد كان حظها أسوأ كثيراً من حظ المرأة في المدينة ، فهي إلى جانب حرمانها من كل الحقوق التي تليق بإنسان ، كانت مضطرة إلى العمل الشاق والمضني في شتى مجالات العمل الزراعي . وخلافاً لكل المقولات التي تعتبر العمل وسيلة للتحرر ، فإن عمل المرأة كان أداة لمزيد من الاستلاب والقهر ، حيث كانت تعتبر وسيلة انتاج تباع وتشترى وتستغل من قبل أهلها وزوجها .

ثانياً - الحياة الاقتصادية :

إن الحياة الاقتصادية في المناطق العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية قد تأثرت بحدّة بمطامع الأوروبيين ، وخططهم ، وتدخّلهم السافر في شؤون الدولة (العلية) . وهو تدخّل دافعه الأساسي والحقيقي مادي اقتصادي ، وإن حاول أن يلبس لبوس الدين . فالأوروبيون كانوا يهدفون إلى فتح السبل أمام بضائعهم ومصنوعاتهم من جهة ، وأمام تدفق المواد الخام الرخيصة إلى مصانعهم الناشئة من جهة ثانية . وقد وعى العرب هذه الحقيقة ، وأدركوا أنه منذ الحروب الصليبية التي شنها الغرب على شرقنا

والهدف هو الاستغلال : " إن بطرس الناسك لم يكن سوى آلة ،
وأما حقيقة الأمر ، فهو أن أوربا قد لاح لها إذ ذاك أن المسلمين في
ضعف لتفرق كلمتهم ، ولاشدداد ضعف الخلافة في تلك الأيام ،
وتخيلت أن دولها إن هجمت على الشرق الإسلامي هجمة واحدة
يتيسر لها أن تمتلك البلاد وتقتسمها ، وتصل إلى مشتهياتها المادية
تحت ستار حماية المسيحيين في الشرق . فالروح التي حركت هذه
الحروب هي روح (رومانية) وليست روحاً مسيحية . ونفس الأمر
يقال اليوم : إن أوربا لا تتهجم على الشرق بسائق تعاليم دينية بل
بسائق مناهج (رومانية) ورثوها مع ماورثوا من الرومان " (١٨) وقد
كان الشرق لاسيما آسيا العربية لقمة سائغة ، سال لها لعاب
الأوروبيين جميعاً ، وتسابقوا على الفوز بها ، وسلك كل منهم سبيلاً
قد يختلف عن الآخرين في سبيل الوصول إليها . وقد بين الزهراوي
كيف أن الغرب كله متألب على الشرق ، وإن لبس في بعض
الأحيان لبوس الصداقة وبرهن بالمنطق والعقل على اتفاق الغرب
على اقتسام الشرق وإن اختلفوا على كيفية هذا التقسيم " مهما
استحكمت حلقات الخلاف ما بين ذويه (الغرب) يبقى من السهل
أن يؤيدوا عرى الصلح على أكتاف الشرق ، التي يتسع عرضها له
كله . . . " (١٩) " فمن قال : " أن هذه الأمم الأوروبية التي تجمع
بينها القرابات المتعددة إنما قصارى همها إخضاع الشرق والاستيلاء
عليه فقوليه صحيح تؤيده الموييدات الكثيرة من المعقولات
والمحسوسات . . . على أننا إذا افترضنا أنهم لا يقتتلون لأجل
استيلاء بعضهم على بعض فإن الفكر يذهب إلى أنهم ربما يقتتلون
لأجل تراحمهم وتدافعهم على الغنائم الشرقية " (٢٠) وقد وصلت
حمى ذلك التراحم والتدافع إلى ذرى عالية قبيل الحرب العالمية
الأولى ، وكان هذا التراحم يأخذ أشكالا مختلفة منها الاتفاقيات
السرية والعلنية : " كثرت الشرائع (الشائعات) عن الاتفاقيات

السرية بين الدول الأوروبية وليست شائعة من تلك الشوائع ببعيدة عن الاحتمال، فبين انكلترة وفرنسة وإيطالية زعموا أنه يوجد اتفاق لأجل التوازن في البحر الأبيض ، وبين ايطالية وروسية زعموا أنه يوجد اتفاق، وبين ألمانية وروسية زعموا أنه قد أوجد اتفاق حديث. وقد رأينا أن كل واحدة من هذه الشوائع تشهد لها آية من آيات السياسة المحسوسة . . . وهذا ما يجعلنا نظن أن أمام أوربا وأمامنا عهداً جديداً في السياسة قد يصح أن نعده مخيفاً ولكن ربما كان حسن العواقب " (٢١) . ولكن هذا العهد الجديد المخيف على حد تعبير الزهراوي إنما كان وليد سلسلة من التداخلات التي بدأت منذ سنين طويلة . . . ولاريب أن لهذه التدخلات أسباب مادية واقتصادية (في الأساس وهذا ما كان واضحاً في ذهن الزهراوي وأذهان المتنورين الآخرين من أبناء الأمة بل إن ذلك كان يلقي أضواءً على الكثير من المشكلات التي يعالجها فهو حين يعالج مشكلة (حرب طرابلس الغرب) بين ايطاليا والدولة العثمانية يتنبأ بأن الدول الأوروبية ستدخل في هذه الحرب بدوافع اقتصادية " مما لاريب فيه أن أوربا ذات الروح الاقتصادية الفعالة لا تستطيع الصبر على بقاء هذه المشكلة التي تتدرج كل يوم من شديد إلى ماهو أشد فهي من هذه الجهة لا تصبر على بقاء هذه المشكلة المهددة للاقتصاد والسياسة " (٢٢) .

ومما لاشك فيه أن قرب بلادنا من أوربا كان مدعاة للتفاعل على مر التاريخ ، بالوسائل السلمية حيناً ، وبالحديد والنار أحيان كثيرة . وكانت كل جهة من جهتي هذا التفاعل تتأثر وبحدة بما يجري في الجهة الأخرى . ومن الطبيعي أن الجهة الأضعف هي التي كانت تتحمل وطأة ذلك التفاعل ، وتدفع راضية أو صاغرة ضريبته . ومنذ إفاقة أوربا الأخيرة وصنعها ماصار يعرف بالحضارة الغربية ، أو (النموذج الأوربي) للحضارة ، وبلادنا هي الجهة

الأضعف ، وهي التي يترتب عليها أن تدفع ضريبة هذا التفاعل ؛ وأن تصبح على تجاوزات الجهة الأقوى " .. لهذا الغرب الأوربي مميزات كثيرة أهمها أنه صار يشعر بالأمن من هجوم الشرق عليه ، بل على العكس صارت كل دولة من دوله تحدث نفسها بالتجاوز على الشرق ، وهذا التجاوز هو موضوع السياسة اليومية منذ مائة عام بل أكثر . ولذلك لانهسب من الأمور الجديدة ما نراه اليوم أمام أبصارنا على هذه الصورة ، وقد مرت حوادث كثيرة من تجاوز الغرب على هذا الشرق القريب ، ولكن لانظن أن هذا الشرق محن من قبل بمثل ما نحن به اليوم من التجاوز ، كما لانظن أن الشرق وجب عليه أن ينتبه لنفسه من قبل مثلما وجب عليه الانتباه اليوم " (٢٣) .

ولعل أفدح ما على الشرق أن يدفعه من الضرائب وأن يحتمله من التجاوزات حرمانه من التقدم ، وحبسه عن امتلاك أبجدية التطور ، خاصة أبجدية التطور التقني (التكنولوجي) التي هي عماد الحضارة الحديثة .

" سيطرة الرأسمال الأجنبي في سورية تخرمها من تحويل موادها الأولية فوق أراضيها وبأيدي عمالها وبأدواتها وبذلك تسهم في إبقاء مستوى اقتصادها ضعيفاً ومستوى معيشة شعبها منخفضاً وتجعل تطورها ضعيفاً " (٢٤) .

فمع تطور الرأسمالية الأوربية ، وزيادة الانتاج ، بدأت الرأسمالية الأوربية تعمل وبشتى الوسائل على ربط اقتصاد الدول الأخرى باقتصادها ، وجعله تابعاً له . وقد استمرت هذه المرحلة الاستعمارية (الكولونيالية) إلى الحرب العالمية الأولى ، حيث بدأت المرحلة الإمبريالية ، وفي حالة الدولة العثمانية فقد تسرب التدخل الأوربي في البداية عبر مسارب (شرعية) ؟ ضيقة جداً كالاتفاق

التركي الفرنسي الموقع عام (١٥٣٥) ، والاتفاق التركي الإنكليزي الموقع عام (١٥٨٠) ، وهي اتفاقيات قديمة وقعها الأتراك في أوج قوتهم . وكانت غاية تلك الاتفاقيات منح قناصل الدولتين شيئا من الحقوق ذات الصبغة القانونية والتي تخولهم حماية رعايا الدولتين في الدولة العثمانية * وعند النهوض الاقتصادي الأوربي رجع الانكليز والفرنسيون والأوربيون عامة إلى دفاترهم القديمة ، ثم بدؤوا بتوسيع أفق تلك الحقوق (الدبلوماسية العادية) التي منحها لهم الدولة العثمانية دون أن تأبه (لعقائيلها) لأسباب كثيرة منها : اعتدادها بقوتها ، وضآلة العلاقات التجارية مع أوربا في ذلك الوقت ، ولأن الأجانب في الدولة لم يكونوا يشكلون ظاهرة تستحق أدنى ريبة . ولكن تغيرت الظروف ، حين بدأت السلع الأوربية تعمل على فتح سوق لها في الدولة (العلية) ، وازداد عدد الرعايا الأجانب زيادة هائلة ، أغلبهم من المغامرين الذين جعلت منهم الشركات الرأسمالية الأوربية وكلاء لها في المكان الذي يقيمون فيه ، وأرسلوا اليه . ثم إن الدولة العثمانية بدأت تتآكل وتضعف في الوقت الذي اشتد فيه عود الدول الأوربية ، فاتخذت من تلك الاتفاقيات القديمة ، وماضمتها من حقوق كانت قد اكتسبت الصبغة القانونية المشروعة ، وسيلة لحماية الأجانب ، وتغطية تصرفاتهم الشاذة . وفي ظل فقدان التكافؤ بين الدولة (العلية) والدول الأوربية ، كان من الطبيعي أن تتماهى تلك الدول في فرض المزيد من هذه الامتيازات " مما أدى إلى فساد كبير داخل (الامبراطورية العثمانية) وإلى تدخل تجاري سافر من الأجانب ، وأصبح هؤلاء الأجانب التحكم بينايع الثروة التي كانت تستغل دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية نفسها " (٢٥) .

* أنظر سير ريدر بولارد - بريطانيا والشرق الأوسط من أقدم العصور حتى عام ١٩٥٢ ترجمة حسن أحمد سليمان . مطبعة الرابطة . بغداد - ١٩٥٦ - ١٩٥٧ - خاصة ص ٥٢ وما بعدها - كذلك انظر : روجي الخالدي - مقدمة في المسألة الشرقية - مطبعة مدرسة الايتام بالقلس - ص ٥٠ وما بعدها .

بدأت هذه الامتيازات بالقليل وانتهت بالكثير " وأخذت دائرة هذه الامتيازات تتسع شيئاً فشيئاً حتى صارت الشعوب والجماعات غير المسلمة في الامبراطورية العثمانية تتمتع إلى هذا الحد أو ذاك باستقلال طائفي ، فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ، وبإعفاء من الخدمة العسكرية ، ومن كثير من الضرائب والملاحقات القانونية وانتهى الأمر إلى تمكن فرنسا وانكلترا من منح الحماية حتى لبعض الرعايا العثمانيين من خدام وعملاء ولم تكن القوانين العثمانية لتطبق على المحميين ، حتى في حالة الإجماع ، الذي يستقل بالتحقيق فيه وبالمحاكمة عليه فنصل الرجل المحمي وكانت هذه الامتيازات أداة هامة للتآمر الاستعماري ضد الإمبراطورية ، تسهل الفتن ، وتشعل الثورات وتزرع في مختلف أنحاء الإمبراطورية مؤسسات أجنبية فكرية ودينية واقتصادية " (٢٦) .

بل لقد جاء حين من الدهر ، استطاع فيه القناصل الأوروبيون - بحكم هذه الامتيازات - أن يتدخلوا في كل صغيرة وكبيرة ، وأن يمنعوا الولاة ورجال الحكومة من تنفيذ القوانين المرعية . فقد " كانت حقوق وصلاحيات الممثلين الأوروبيين المحلية واسعة جداً ، فكان بإمكانهم التدخل المباشر في الشؤون القضائية والإدارية عندما تمس هذه الشؤون مصالح المحميين ويضرب (ل . ن كوتلوف) مثلاً في نص رسالة أرسلها أحد القناصل الروس إلى أحد الولاة بشأن حادثة تمس إحدى (الفتيات المحميات) وقد جاء في الرسالة : " لي الشرف أن أحيط معاليكم علماً أنه إذا لم تنفذوا مطالبي التالية بشأن هذه القضية بعد أربعة أيام فأني ستأوجه بنفسني مع هذه الفتاة إلى . . . ويعود (كوتلوف) ليؤكد أن الممثلين الأجانب يتدخلون بفعالية في الشؤون الداخلية في مناطقهم ، ولم يكن من الحالات النادرة أن يتم تسريح بعض الإداريين الأتراك

الذين لا يحسبون الحساب الكافي لمقاماتهم . . . ، فيتعرضون
للقصاص " (٢٧) .

وقد غدت هذه الامتيازات ضرورة للمصالح الأوربية تدخلها
في حسابها : " إن التجارة مع الشرق ، وهي التي عززتها
الامتيازات التي منحتها الامبراطورية العثمانية لمواطنينا وقناصلهم ،
أصبحت إحدى الوظائف الطبيعية التي لا بد منها لحياة فرنسا
الاقتصادية . ومن المعلوم أن هذه التجارة نالت نصيباً من اهتمام
الحكومة الفرنسية نفسها وأصبحت فائدتها ضرورية لتدخلها في
شؤون الشرق " (٢٨) .

ومن الطبيعي والحالة هذه أن يحاول رجال الأعمال
والرأسماليون الأوربيون إيجاد مفاصل ارتباط لهم من أبناء الدولة
العثمانية ، لأن أولئك سيكونون خير عون لهم ، فهم يستطيعون
القيام بما يعجز عنه الأجانب - رغم كل الامتيازات التي كانوا
يتمتعون بها - لأنهم الأدرى بعادات السكان ، ولغتهم ، وأغماط
سلوكهم ، وطريقة التعامل معهم . فجعلوا من البعض وكلاء لهم،
وممثلين لمصالحهم . وبدأ هؤلاء بتصريف البضائع الأوربية التي
كانت تتدفق عليهم بأسعار رخيصة ، في محاولة لدحر وإجهاض بل
والقضاء تماماً على المنتجات المحلية ، في نفس الوقت الذي بدؤوا فيه
بتسويق المواد الخام الرخيصة ، وضخها باتجاه مراكز التصنيع في
أوروبا . وقد تركز هؤلاء الوكلاء في البداية في الموانئ الساحلية
الكبيرة ، وفي بعض المدن الداخلية المهمة (حلب ، دمشق ،
حمص) .

والملفت للنظر أن هؤلاء الوكلاء كانوا في البداية من أبناء
الاقليات (المسيحية - اليهودية) * وإن كانت المصالح الرأسمالية قد
حاولت بعد ذلك استمالة بعض أعيان ومتنفذي المسلمين ، لما في

ذلك خدمة لمصالحها . فقد " تركزت التجارة الخارجية للولايات السورية بشكل أساسي في أيدي التجار الذين استعربوا . . . المنحدرين أصلاً من إيطاليا واليونان . والعرب المسيحيين والأرمن واليهود " (٢٩) . وقد نقل (د . بدر الدين السباعي) عن (فوليتي) كيف أن الإفرنسيين " وجدوا من الأنسب لهم استخدام ، عملاء من المسيحيين اللاتين . . . إن هذه الفئة من الناس ، التي ارتبطت مصالحها بمصالح الرأسمال الأجنبي ومؤسساته ، كانت تتحول تاريخياً إلى ركيزة من ركائز الدولة الأجنبية في سورية " (٣٠) .

والتجارة بعد أن كانت في الأغلب تجارة داخلية (محلية) ، قوامها الأساسي التبادل بين الصناعات الحرفية التي ينتجها حرفيو المدينة ، والمنتجات الزراعية التي تنتجها الأرياف القريبة من المدينة ، بدأت تأخذ طابعاً مختلفاً " ومنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ الاقتصاد السوري يشعر بوطأة التجير (الخارجي مع أوروبا) . فالاضطرابات التي أصابت الاقتصاد المديني ، والناجمة عن منافسة البضائع المصنوعة الأوروبية ، أدت إلى تنشيط التجير الزراعي الذي أدى بدوره إلى تنشيط عملية اقتناء الأرض " (٣١) " وقد أخذ زعماء الأقليات يقيمون العلاقات مع القناصل والتجار الأوروبيين ، ويحصلون على حمايتهم ، وكان التأثير الاقتصادي لأوروبا في ازدياد خلال العشرين سنة التي سبقت حوادث (١٨٦٠) ، وجنى الكثير من المسيحيين واليهود ثروة كبيرة من جراء عملهم كوكلاء للمصالح الأوروبية . وقد شعر المسلمون من جميع الطبقات بالاستياء الشديد لهذه التطورات " (٣٢) .

وهكذا بدأت تظهر طبقة متميزة من زعماء الأقليات ، أهلها ما استطاعت جمعه من الثروات ، وما استطاعت توطيده من العلاقات مع الأوروبيين ، وما استطاعت اكتسابه من علومهم

ولغاتهم في المدارس التبشيرية التي كانت في البداية وقفاً عليهم وحدهم ، أن تفسح لنفسها مكاناً مرموقاً ضمن تركيبة القوى المؤثرة في المدن السورية الهامة ، حيث " استطاع زعماء الأقليات أن يستخدموا مراكزهم في الإدارة المحلية ، وصلاتهم المالية مع أوروبا ، لإقامة قاعدة متينة للثروة والنفوذ . وقد تأكدت سلطتهم الفعالة ، بعد أن أصبحوا الطبقة التجارية السائدة في دمشق . وقد لعبوا بوصفهم من التجار ، دوراً أساسياً في امتصاص اقتصاد الولاية تدريجياً إلى داخل اقتصاد أوروبا ، وكانوا باعتبارهم من المصرفيين والمرابين يسيطرون على السيولة النقدية ، فأقاموا صلات اقتصادية قوية مع (البروقراطيين) وأصحاب الأراضي ، فقدّموا لهم الرأسمال ، لتمويل مشترياتهم من الأراضي ومشاريع السكن . وفي الواقع لقد جمعت عائلتان مسيحيان هما عائلة القدسي وعائلة شامية ، بين المناصب (البروقراطية) ورأسمال التجار . . . " (٣٣) وبدأ هؤلاء يشكلون ما يمكن تسميته (نواة البورجوازية) المحلية ، ولكن هذه البرجوازية ولدت مهیضة الجناح ، " بسبب ضعف القوى المنتجة ، ولأن حملة لواء هذا التطور (البورجوازية) تألفوا في البدء من الفئات التجارية المسيحية ، التي لم يكن بإمكانها التصدي للطرق الصوفية الإسلامية ، والوقوف أمام سيلها الجارف ، لماذا ؟ لأن كل محاولة بورجوازية لمقارعة الإقطاعية ، وريفيها الفكري (الصوفية) بمضمونها المتخلف المتزمت ، أتهمت بأنها هجوم من المسيحية على الإسلام " (٣٤) . وإذا كنا نوافق الدكتور (عبد الله حنا) على أن البورجوازية التي تقودها زعامة (الأقلية المسيحية) لم تكن لتستطيع استقطاب العامة والجماهير ولكن لأسباب غير تلك التي ذهب إليها . فبرأينا أن مأسما (البورجوازية) المحلية ، لم تكن تحمل في طياتها أية مصلحة لتلك الجماهير ، التي كانت في معظمها من الحرفيين ، الذين شلت صناعتهم أمام المنافسة غير المتكافئة والحماية بالامتيازات

، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فإن البورجوازية التي أشار إليها الدكتور (عبد الله حنا) لم تولد الولادة الطبيعية ، أي أنها لم تكن تطورا نجم عن تطور في أساليب الإنتاج . وكذلك لم يخرج هؤلاء من صفوف التجار الذين كانت لهم علاقات وطيدة مع هؤلاء الحرفيين ، كما كان من الطبيعي أن يحدث بل إن (البورجوازيين) المحليين الذين أشار اليهم الدكتور (حنا) جُلبوا من شرائح لم يسبق لها أن تعاملت في السوق التجاري ، إنما أقحمت إقحاما في هذا العمل ، لأسباب كثيرة ومختلفة ، ليس بينها مايمت بصلة إلى تشجيع قيام بورجوازية محلية حقيقية . وكانت مؤهلات هؤلاء تتمثل في استعدادهم لأن يكونوا نقاط ارتكاز للمصالح الرأسمالية الأوربية . وكانت مصالحهم ترتبط ارتباطا عضويا مصيريا بتلك المصالح القابعة وراء الحدود . وهذا بالذات ما جعل العامة تقاومها ، وتربط بينها وبين الأوربي من جهة ، وتحارب جشعها واحتكاراتها من جهة ثانية . "فهؤلاء التجار ، وهم أصناف : فمنهم من يتاجر بالمنتجات المحلية وكان معظمهم من المسلمين ، ومنهم من اهتم بالتجارة الخارجية وبخاصة في حلب ، وكان معظمهم من المسيحيين ، - العرب أو المستعربين - . وقد قام التجار بتخزين البضائع واحتكارها ، وتحقيق الأرباح الباهظة . وكثيرا ماشارت العامة على هؤلاء في أيام الجوع والأزمات " (٣٥) . وهذا سبب رئيسي آخر لمقاومة التجار من قبل العامة . وعدم انقيادها لهم لأنهم منذ البداية كانوا يمثلون الجانب المعادي لمصالحها وتطلعاتها . أما كون هؤلاء التجار من المسيحيين فليس سببا أساسيا ورئيسيا لمقاومتهم .

بل إن توجه بيوتات المال الأوربية نحو الأقليات ، وجعل زعمائها وكلاء لها ، وما أغدقه ذلك من ثروات على هؤلاء ، ربما يكون من الأساليب الشيطانية التي لجأ اليها الرأسمال الغربي لشق

وحدة المجتمع ، وتفكيك عرى لحمته التي ظلت متماسكة قرون طويلة . " وقد فطن كل من (جب) و (هارولد براون) إلى الآثار السلبية التي خلقتها التجارة الأوربية مع الشرق نتيجة سيطرة الطوائف غير الإسلامية عليها ، مما ساهم برأيهما بتفكيك اللحمة الداخلية للمجتمع الإسلامي وبرأيهما أنه لو أتيحت الفرصة للتجار المسلمين ، للمشاركة الفعالة في التجارة مع الغرب ، لكان في ذلك تخفيف كبير من الأضرار البالغة التي لحقت كلاً من مصر وسورية^(٣٦) وإن كان لنا بعض التحفظات على هذا الكلام ، لاسيما ما يتعلق بالفرص الضائعة أمام التجار المسلمين ، فليست المشكلة برأينا كون التاجر الوسيط للمصالح الرأسمالية الأوربية مسيحياً أو مسلماً ، إنما المشكلة في كونه وكيلاً لهذه المصالح الاستعمارية ، التي كانت تهدف إلى تقويض الحرف المحلية واكتساحها ، وإغراق السوق بسيل من السلع الرديئة والرخيصة ، وإلى تنحير الزراعة . وتوجيه الإنتاج الزراعي لما يخدم الصناعات الأوربية . فلا "يعود فشل (البورجوازية) في تطلعها لإنشاء صناعات محلية إلى كون (البذرة البورجوازية) قد ظهرت في أوساط مسيحية بحكم ارتباطها مع الرأسمال الأوربي . وعجزها عن قيادة العامة المسلمة " ^(٣٧) إنما يعود هذا الفشل إلى كون هذه (البورجوازية) التي تحدث عنها الدكتور (حنا) ، بعيدة في الأساس عن الوسط الحرفي ، وإلى فقدانها كل حس وطني ، وإلى ارتباطها العضوي بالمصالح الأوربية ، التي كان همها القضاء على كل إنتاج محلي . وقد كانت وسائل دفاع العامة ، ووسائل دفاع المجتمع الإسلامي ، "تتمثل بصورة أساسية في تنظيمات الحرف المدنية ، التي هي من أكثر الأطراف الاجتماعية تضرراً وأكثر الأطراف تجانساً فكرياً وتنظيمياً بفعل تركيبها (الديني - الصوفي) المتناسك " ^(٣٨) لذلك يمكن أن ننظر إلى " انفجارات القرن التاسع

عشر لاسيما في المدن (التجارية - الحرفية) (على أنها) انفجارات اجتماعية طائفية . . توجهت في تعبيرها الشعبي ضد (الكافر) الغربي ومثله التاجر الوسيط في المدينة وحاميه (القنصليات) ومؤسساته الأيديولوجية (المبشرون) " (٣٩) . وعلى هذا يمكن اعتبار " هجوم جهلة المسلمين على الحي المسيحي في دمشق (١٨٦٠) ونهبه . . . ليس مرده صراع (مسلم - مسيحي) ، بل هو نتيجة دوافع اجتماعية - سياسية وثقافية واقتصادية أشرنا إلى بعضها " (٤٠) .

ولم تكن الدول الأوروبية بعيدة عن إشعال هذه الفتن بطبيعة الحال ، لأنها كانت المستفيدة الوحيدة - أولاً وأخيراً . " وكانت الفتن في الغالب ترتدي طابعاً دينياً ، لتنتهي بامتيازات سياسية واقتصادية تناهها الدولة المتآمرة . كما كانت أحياناً وسيلة ضغط لفرض هذا القانون أو إلغاء ذلك في البلاد " (٤١) .

فالسبب الرئيسي والحقيقي لعدم انقياد العامة (الجماهير) لما اعتبره (د . عبد الله حنا) بذرة البورجوازية . لا يعود لكون هذه البذرة غرست في تربة (مسيحية) ، لأن بلادنا غربية عن مثل هذا النوع من الصراع الديني الطائفي ، ولم تعرفه إلا مع ماعرفته من المستوردات الأوروبية . فالأوروبيون (الرأسماليون) حين بسطوا حمايتهم على طوائف معينة ، وأغدقوا عليها امتيازات معينة ، وأخرجوها من دائرة السيادة القانونية للدولة ، إنما دقوا الإسفين الأول للطائفية . وكان هدفهم شق الصفوف ، وتصديع وزعزعة الكيان الاجتماعي للمجتمع الإسلامي ، ولم يكن هدفهم مطلقاً رفع الظلم أو الخيف عن أحد . ونظرة بسيطة تبعلنا ندرك أن الذين استفادوا من هذه الحماية هم (ثخنة) الأقليات ، وزعمائها ، والمتنفذون فيها ، أما بقية أفراد الأقليات فقد حكم عليهم بأن

(يضرسوا) فقط بفعل التهمة زعمائهم من (حضرهم) الأوروبيين .
ويضع (فيليب شكري خوري) يده على مكنن العلة عند تحليله
لأحداث (١٨٦٠) في دمشق حين قال : " ومن المؤكد أن (الرعاع)
كانوا يضمون بعض الحرفيين العاطلين عن العمل ، بسبب انهزام
الحرف المحلية اقتصادياً أمام البضائع الأوربية . فقد قاموا بصب
غضبهم على المسيحيين المحليين الذين كان عامة الناس يقرنونهم
بالمصالح الأوربية " ^(٤٢) هذه المصالح التي أغراها ضعف الدولة
العثمانية ، للتماذي والتطرف في فرض المزيد من الامتيازات
والقيود ، وربط اقتصاد أقاليم تلك الدولة المتأكلة بالاقتصاد
الأوروبي . وعدم السماح له بأن يشهد الانقلاب الطبيعي - كما
حدث في أوربا - . ويبدو الطابع الاقتصادي (المادي) لأحداث
عام (١٨٦٠) واضحاً حين نجد أن الغضب قد توجه أساساً باتجاه
أغنياء المسيحيين : " وقد تضررت بشكل رئيسي المناطق التي كانت
تسكنها الفئات الغنية من السكان المسيحيين ، أما حي الميدان حيث
كان يسكن الحرفيون المسيحيون الفقراء فلم يتأذى كثيراً نظراً لأن
الحرفيين المسلمين هبوا للدفاع عن جيرانهم هنا . . . ^(٤٣) .

وفي الفترة التي ولد فيها (الزهراري) وترعرع كانت تلك
الامتيازات تتصلب ، ويشتد عودها ، وتأتي على البقية الباقية من
اقتصاد الدولة . وقد بلغت الدولة العثمانية من العجز والضعف
ما جعلها تقبل بانشاء (مجلس إدارة الدين العثماني العام) سنة
١٨٨١ وهو مجلس رهن اقتصاد الدولة بين يديه . وكان يرأس هذا
المجلس رجل فرنسي ورجل انكليزي بالتناوب وكان يتكوّن من
مندوبين عن كل من الامبراطورية النمساوية المجرية وألمانيا وهولندا
وايطاليا . أما وجود مندوب عثماني فيه فكان (تكملة للعدد)
ووجوده لم يكن ليقدّم أو يؤخر شيئاً ، خاصة إذا عرفنا أنه عضو
مراقب ولا يحق له التصويت . بالإضافة إلى هؤلاء فقد كان (مجلس

إدارة الدين العثماني العام) يضم مندوباً عن البنك العثماني ، وهو بنك استعماري تعود ملكيته من غالبيتها للأجانب وصار هذا المجلس يتصرف بتملكات الدولة العثمانية ويشرف على إصدار الضرائب ، ويحتكر بعض أصناف المنتوجات (التبغ مثلاً) . وساهم في تنفيذ مشاريع كلفت الدولة أموالاً طائلة في سبيل خدمة مصالح الدول الأوروبية وغاياتها ، كمد الخطوط الحديدية . التي مدت لصالح الاستعمار الغربي لا لإنهاض القوى الإنتاجية المحلية . وكذلك الحال بالنسبة للموانئ التي شيدت خدمة للتجارة مع الغرب الرأسمالي ^(٤٤) ومن أقسى ما استطاع الأوروبيون فرضه على الدولة العثمانية تخفيض الرسوم والضرائب على التجارة التي يمارسها الأجانب في أراضي الدولة العثمانية مما فتح الباب للشذاذ والعاطلين عن العمل والمغامرين والأفاكين الأوروبيين لأن يجذبوها فرصة العمر . فجاؤوا إلى بلادنا وأصبحوا سادة الموقف اقتصادياً . بل إن البعض استغل قوانين الدولة التي تحمي الأجانب وصار يتاجر باسم بعض الأشخاص (الأجانب) مقابل جزء من الأرباح ذلك لأنه كان على التاجر الوطني أن يدفع ضريبة تتراوح بين (١٨ - ٢١ ٪) في حين كان الأوروبي لا يدفع أكثر من (٤ ٪) " مما جعل التجارة تقع بين أيدي الأوروبيين الذين جاؤوا من كل فج واستفادوا من هذا الواقع ، فاغتنوا وارتاشوا وتأنلوا

وتناسلوا حتى صاروا وكأنهم من أصحاب البلد " ^(٤٥) هذا البلد الذي اضطر لعقد اتفاقيات مع بعض الدول الأوروبية " تسمح للتجار الأجانب بدفع رسوم جمركية لا تزيد عن (٣ ٪) في حين كان على التاجر العثماني أن يدفع (١٠ ٪) وفي أجسن الأحوال (٧ ٪) كما أن الرسوم الجمركية التي كان يدفعها التاجر الفرنسي مثلاً في مرفأ من مرفأى الامبراطورية العثمانية تحرر تجارتها من أية رسوم جمركية أخرى إذا انتقلت إلى مرفأ آخر أما التجار العثمانيون فقد

كانوا يكلفون بدفع الرسوم الجمركية مرة أخرى في الميناء الآخر وكان لكل قنصل الحق (٥٠) براءة يقدمها لمن يريد من رعاياه . ثم أصبحت تباع من قبلهم بمبلغ يتراوح بين (٥٠٠٠ - ٦٠٠٠) ليرة تركية وهذه البراءة كانت تمنح حاملها امتيازات كثيرة" (٤٦) .

وقد هال (الزهرراوي) اخذاع البعض بنظام الحماية وما يمكن أن يجره من مغام ، في حين أدرك هو أنه لعبة استعمارية : " فياليت شعري ألا يقوم في شرقنا المبارك من أبناء وطننا من المسيحيين من يردون دعوى هذه الحماية في وجوه الأوروبيين ويقولون لهم : إن بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرناً ، دليل على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين إلى من يحميهم " (٤٧) كما هاله تهافت البعض على أعتاب القنصليات ، للحصول على الوظائف والوكالات للشركات الأجنبية : لست أدري قيمة مراكز قد أصبح الأطفال يعرفون كيف يتصاغر الكبار لنيلها " (٤٨) .

أمام تفاقم الأوضاع الاقتصادية واضطرار الدولة للرضوخ كلية للرأسماليين الأوروبيين ، وتحول ممتلكات الدولة إلى رهينة بيد (مجلس الدين) ، كان لابد من ظهور مقاومة لهذا الوضع الاقتصادي المأساوي ، وكان الحرفيون هم المؤهلون للقيام بهذه المقاومة ، ذلك لأنهم الجهة الأكثر تضرراً ، والجهة الأكثر تماسكاً وتنظيماً فالحرفيون " عماد العامة وروحها ، وهم بمنزلة عمال الصناعة بالنسبة للطبقة العاملة في عصر الرأسمالية وهم كتلة متحدة ، وقفت للدفاع عن مصالح الحرفة ، ومصالح أفرادها ومقاومة ظلم الحكام وتعسفهم . والحرفيون مثلوا الجانب الإيجابي الثوري للعامة ، وجناحها التقدمي الأكثر وعياً في ذلك الحين " (٤٩) ويمكن أن نستنتج أنه كانت للحرفيين تنظيماتهم المتماسكة والقوية كما

عرفت الحرف نظام (التلمذة الصناعية) . كما تأصلت بعض العادات والمواقف حتى صارت مع الزمن تقاليد راسخة ومتميزة . فلكل حرفة رئيس (شيخ كار) يعتبر المسؤول عن تنظيم الحرفة ، وعن مصالح ممارسيها ، وكان يقوم بفض الإشكالات التي قد تحدث بين الحرفيين ، أو بينهم وبين زبائنهم ، أو بينهم وبين صناعهم (أجرائهم) . وقد زاد من تماسك تلك التنظيمات وقوتها ، ارتباطها الوثيق بالطرق الصوفية ، بل ربما يكون من الطريف هنا أن نشير إلى أن بعض الحرف ارتبطت بطرق معينة من طرق الصوفية ، مما أعطى تلك التنظيمات (الحرفية) بعدا وجدانيا ومعنويا مؤثرا ولعلنا نجد فيما ذكره (العلاف) في كتابه (دمشق في مطلع القرن العشرين) ما يؤيد ما نذهب إليه . فقد ذكر بالتفصيل نظام (التلمذة الصناعية) في حرفة التنجيد - وهي حرفة خدمات - وتحدث عن حفلات تنصيب (تعميد) الصناع الذين أتموا تعلمهم للصناعة ، وحن الوقت ليصبحوا (معلمين) أي العمل في مكان خاص يملكه ويديره (صانع الأمس معلم اليوم) وذكر القسم الذي كان على (الصانع - المعلم) أن يؤديه بين يدي (شيخ الكار) ، ووصف الاحتفالات التي ترافق وتلي ذلك كما تحدث عن المكانة التي كان يتبوؤها (شيخ الكار) ، والاحترام الذي يقابل به . والمطلع على القسم الذي كان يردده (الصانع - المعلم) يدرك سريعا الارتباط العضوي بين التنظيم الحرفي ، والطريقة الصوفية ، حيث يمتزج الدين ومصلحة الناس في ذلك القسم بشكل واضح^(٥٠) . ولعل ما ذكره العلاف وغيره من شهود تلك الحقبة والأحقاب التالية يدفعنا للتفريق بين شلل من المتصوفة ألحقت ببطانة السلطة ومن والاها من المحاسيب والمتفعين ، وهم فئة من الناس عاطلة معطلة ، استمرت حياة البطالة ، وتوسلت لذلك بشتى الوسائل ، فكانت بمثابة مخلوقات طفيلية ، وهذا النوع من المتصوفة هم الذين حاربهم

المتنورون ، ومن بينهم بل في مقدمتهم (الزهرائي) ، حتى لقد كادت مقاومته لهم تكلفه حياته كما سوف نرى . وبين متصوفة ما كان تصوفهم ليمنعهم من السعي والكد، والنضال ضد كل أشكال الظلم والقهر . فلم يكن كل المتصوفة كما ذكر الدكتور (عبد الله حنا) من المتخلفين والمترفين والرديف الفكري للإقطاعيين . بل إن الدكتور (حنا) وفي نفس البحث (تحركات العامة ١٠٠) يعود ليدكر بأن : " اشتراك فرق الصوفية علناً في كثير من التحركات (تحركات العامة) كان دليلاً على الارتباط العميق بين فرق الصوفية والعامة ، وبخاصة جناحها الثوري ، الممثل في الحرف ، فكانت فرق الصوفية بمثابة الأحزاب السياسية للعامة حيث امتزج في بوتقة واحدة النضال الاجتماعي والسياسي والديني" (٥١) . ومن هنا كان لابد من إعادة النظر في كثير مما كتب وقيل عن وقوف الفرق الصوفية في وجه (المد الحضاري) الغربي ، واعتبار ذلك نوعاً من التخلف والتزمت ، أو دفاعاً عن (الإقطاع والإقطاعية) وما إلى ذلك . إذ يجب ألا تؤخذ الفرق الصوفية بجرائر بعضها ، فالفرق الصوفية التي امتزجت (بطوائف الحرف) كانت تمثل المقاومة المشروعة النابعة من مصالح شرائح واسعة من أفراد المجتمع " وكان انتشار الفرق الصوفية على نطاق واسع ودخولها إلى أعماق الجماهير المدنية صدى للاحتجاج غير المباشر على نظام الحكم السائد آنذاك ومظهراً من مظاهر الحياة الحرفية و حاجتها إلى التكتل والدفاع عن مصالحها المهنية والمعاشية والحياتية . ولقد قامت هذه الجماعات بتحويل المفاهيم الصوفية العقلية والروحية إلى تعبيرات وأسس أخلاقية تسيّر حياتها الاجتماعية متبعة تقاليد معينة ، وهي تمارس رياضة نفسية خاصة تحت إشراف شيوخها المحليين ومن هذه الزاوية يمكن فهم بعض جوانب الصوفية بأنها تعبير عن الاحتجاج على المجتمع

الطبقي القائم بغض النظر عن الوسائل المتبعة في هذا الاحتجاج
... بالإضافة إلى هذه الفرق عرفت بلاد الشام أيضاً السعدية ،
والشاذلية وغيرهما من الفرق التي كانت في الواقع أحزاباً للعامّة
وفق مفاهيم ذلك الزمن . . " (٥٢) .

وقد شارك المتنورون في هذه الحملة الهادفة إلى مقاومة النفوذ
الأوربي بكل مظاهره وقد كانت المقاومة تنطلق من دوافع سياسية
واقتصادية وثقافية لامن دوافع دينية كما يريد البعض أن يوهم
الناس . " ولهذا يحسن أن ننتبه إلى عدم الانزلاق في تفسير مآثره
من المستنيرين من المسلمين في هذه الفترة - فترة الربع الأخير من
القرن التاسع عشر - حيث يتجهون إلى مقاومة تيار صبح البلاد
بالصبغة الغربية الأوربية وإغراقها بالبضائع الأوربية وبخاصة حين
بدؤوا يرتابون ، ويرون أن هذه البضائع الغربية ، والأفكار الغربية ،
وطرائق الحياة الغربية ، التي تقصف وراءها جميعاً المصالح السياسية
للدول الأوربية ، ستؤدي آخر الأمر إلى احتلال دولة أو أكثر بلسان
الشرق العربي " (٥٣) .

وإلى جانب الحرفيين والتجار كان المراهون وهم من الأقليات
الذين تحكموا بالسيولة النقدية بشكل كبير . وقد زادت ثروة
هؤلاء بفعل حمى التجار التي شهدتها البلاد والاضطرار إلى
القروض رغم الشروط المرهقة . وقد استطاع هؤلاء أن يمتلكوا
الكثير من العقارات في المدن ، والأراضي في الضواحي . ويذكر
(فيليب شكري نحوري) أن ملكية هؤلاء قد امتدت إلى مناطق
كثيرة فيما كان يسمى بـ (حزام الحبوب) في حوران كما استطاع
هؤلاء المراهون أن يكسبوا مباركة الكثير من أبناء العائلات المتنفذة
نتيجة حاجة هؤلاء للقروض التي يشترون بها المناصب والوظائف .

إذ كان شراء المناصب بالرشوة أمراً شائعاً ومعروفاً ولا يكاد ينكره أحد (*) .

وقد كانت الأسر المدنية الكبيرة حريصة على أن يتوزع أفرادها على أكبر عدد ممكن من المناصب وتحاول أن تؤسس لنفسها حقاً شرعياً في توارث مناصب معينة . ولعل من المفيد أن نذكر هنا أن " محمد فوزي باشا العظم قد دفع للوالي مبلغ (١٠٠٠) ل.ت. ذ من أجل تعيينه رئيساً لمجلس دمشق البلدي في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر . كما دفع عبد الرحمن باشا اليوسف مبلغ (٢٠٠٠) ل.ت. ذ من أجل تجديد تعيينه أميراً للحج عام (١٨٩٥) . ومن المعروف أن كلا المنصبين يعودان على من يتولاهما بأرباح مالية كبيرة ويعطيان فرصة ذهبية لكسب المحاسيب والأتباع والأنصار " (٥٤) .

وازداد النشاط التجاري مع الغرب ، وزيادة التدخل الأوربي في شؤون الدولة ، وتأثر البلاد بالأفكار (العلمانية) وظهور طبقة متوسطة مزودة بالمال الذي جنته من المتاجرة مع الغرب خاصة ومزودة بنوع مختلف من التعليم حصلته من المدارس التبشيرية أو من المدارس المتأثرة بأسلوبها ، ساعد بعض العائلات لأن توسع لنفسها مكاناً وسط تركيبة العائلات المتنفذة في مدن بلاد الشام . وقد استطاعت هذه العائلات أن تشتري لنفسها المناصب المهمة وأن تلفت إليها الانتباه سواء أكانت هذه العائلات من الأغلبية المسلمة أو من الأقليات المسيحية " فنتيجة الارتباط الوثيق مع المصالح المالية والتجارية الأوربية وماحصلت عليه من حماية وافية وطمأنينة اجتماعية مكنتها من تطوير قواعد قوتها ضمن جماعتها أولاً وضمن تركيبة المجتمع المدني ثانياً فقد مُنحت كل من الجماعتين المسيحية واليهودية تمثيلاً أكثر (إنصافاً) ضمن مناصب الإدارة المحلية وانضم (زعماء) هاتين الجماعتين إلى الكتلة القوية المتمثلة (بالبيروقراطيين)

* وقد ذكر الأمير مصطفى الشهابي في كتابه المحاضرات في الاستعمار ، أنه كان يسمع وهو صغير أحاديث تدور حول الوظائف فكان أحدهم يقول : الوظيفة الفلانية راتبها كذا من القروش ولكن (البراني) فيها أضعاف الراتب أو أربعة أمثاله

المسلمين من أصحاب الأراضي (والوجهاء والعلماء) بصفة أعضاء منتخبين لأرفع وأقوى هيئتين علمائيتين في المدينة والولاية وانتخبوا أعضاء في المجلس البلدي وعملوا قضاة في المحكمة التجارية ومحاكم الاستئناف والصلح وبالنظر للحماية السياسية والتجارية التي منحت لزعماء المسيحيين من قبل عدة قنصليات أوروبية فقد عمل معظمهم تراجمة وحتى قناصل^(٥٥) . ومن الجدير بالذكر أن تلك المجالس تحولت سلطات كثيرة كانت تزداد بازدياد النفوذ الأوروبي ، ومن هذه السلطات " فرض الضرائب والرسوم الجمركية والإشراف على جمعها ، وتسجيل وتنظيم عمليات بيع الأراضي والموافقة على تعيين صغار الموظفين والإشراف على تجنيد الشرطة والحكم في الدعاوي المدنية وقد عارضت هذه المجالس الكثير من الإصلاحات العلمانية التي أصدرتها القسطنطينية " ^(٥٦) وتجدر الإشارة هنا إلى أن المجالس البلدية في المدن كانت تنتخب فقط من قبل ناخبين يملكون أرضاً ويدفعون ضريبة الملك بمقدار لا يقل عن (١٠٠) قرش أي أن عضوية المجالس البلدية كانت وقفاً على كبار ملاك الأراضي فقط " ^(٥٧) .

ويبدو أن الوجهاء المدينيين التقليديين " لم يرحبوا اجتماعياً بالاندماج الواسع مع العائلات العلمانية الفتية في المدينة " ^(٥٨) وإن كان محدثو النعمة هؤلاء قد استطاعوا أن يوسعوا لأنفسهم في النهاية مكاناً مرموقاً وسط التركيبة المدنية ، وأن يفرضوا أنفسهم بقوة ثرواتهم وسيطرتهم شبه الكاملة على الحياة الاقتصادية مما اضطرت العائلات التقليدية لأن تخطب ود هؤلاء ، وأن تتقرب منهم ، بل وأن تتصاهر معهم ، مع الإشارة إلى أن " مواقع الزعامات الاجتماعية الجديدة في المدينة المرتبطة بتطور النظام الرأسمالي وإن كانت قد تعززت لم تستطع - بعد - أن تنسف نفوذ الأعيان من الاقطاعيين ورجال الدين " ^(٥٩) ومع ذلك فقد استطاع هؤلاء

احتلال مناصب ووظائف ظلت حكراً على عائلات بعينها لأجيال متعاقبة مما يشير إلى المدى من النفوذ الذي استطاع هؤلاء أن يصلوا إليه بفضل سيطرتهم على مراكز الانتاج المحلي وأهمها الصناعات النسيجية - فقد كان هؤلاء بفضل الأموال التي جنوها من التجارة ، ومن السمسرة ، يمولون الحرفيين المنزليين ^(٦٠) . وقد برهنت الأحداث أكثر من مرة أن هؤلاء استطاعوا أن يكتسبوا نفوذاً لدى سواد الناس مما جعل منهم قوة ضبط وربط اجتماعي أكثر فعالية مما كان بمقدور الوجهاء والمثقفين والعلماء أن يقوموا به ^(٦١) . وبذلك تكون العائلات المدنية التي توارثت الجاه والثروة قد انهكت تماماً أمام مد الطبقة الجديدة ، المكونة أساساً من التجار والبيروقراطيين الجدد . حيث أن العائلات المدنية المذكورة كانت أبعدت نفسها عن احتلال المناصب العليا ، معتمدة على السلطة المحلية التي استطاعت أن تخلقها لنفسها فجاءت العائلات الجديدة لتبعتها حتى عن جيوب السلطة المحلية . وبذلك كادت أن تفقدها أي نفوذ على الإطلاق .

أما بالنسبة للحياة الاقتصادية في الأرياف فقد كانت ملحقة إلحاقاً كاملاً باقتصاد المدينة ، وتقع تحت رحمة وسيطرة الوجهاء والأعيان المدنيين على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم وفي فترة من الفترات أرادت الدولة العثمانية أن تضعف شوكة هؤلاء الأعيان ، وأن تسلبهم بعض مناطق نفوذهم ، وبعض مصادر ثرائهم وقوتهم ، فعمدت إلى إصدار (قانون الأراضي) عام (١٨٥٨) بقصد تشجيع الفلاحين على تسجيل الأراضي باسمهم والاحتفاظ بها . وكانت الدولة تهدف إلى جانب إضعاف نفوذ أعيان المدن ، تأمين مصادر ثابتة لدخل الخزينة ، ومنع أية وساطة بين الدولة والفلاحين وهي الوساطة التي كان يمارسها الوجهاء والأعيان والتي كانت تؤثر سلباً على مصالح كل من الدولة والفلاحين على حد سواء . كما أن

الدولة هدفت من إصدار ذلك القانون إلى إعادة ترجيح كفة السلطة المركزية على حساب السلطة المحلية التي كان يتمتع بها الأعيان والوجهاء المدينيون ولكن ذلك القانون أخفق إخفاقاً ذريعاً في تحقيق أي هدف من الأهداف التي وضع من أجلها وكان إخفاقه سخرية من سخریات الأقدار ، إذا أن الطريقة التي فسر بها ، وطبق غيرها ، أتاح الفرصة للوسطاء الذين كان الهدف إضعافهم ، لأن ينطلقوا في عملية اقتناء الأراضي بشكل واسع فقد كان (قانون الأراضي) لعام ١٨٥٨ مبنيًا على مقدمتين خاطئتين :

- الأولى : أن الفلاحين سيكونون راغبين في تسجيل أراضيهم ، وسوف يستطيعون بعد ذلك الاحتفاظ بها .

- الثانية : هي أن إدارة (الدفتر خانة - سجل الأراضي) ستم بصورة فعالة ونزيهة .

غير أن نظام تسجيل الأراضي المبني على سندات الملكية ، ورسوم التسجيل ، والإحصاء ، أثار فزع الفلاحين منذ البداية . فقد ظنوا (الفلاحون) أنه أنشئ لتسهيل عملية جني الضرائب والخدمة العسكرية ، فتركوا الفوائد المرجوة من النظام وسجلوا أراضيهم بأسماء أفراد أسرهم المتوفين ، وكبار زعماء المدينة ، والوجهاء الريفيين . فأستطاع عدد من الأسر الدمشقية القوية ، من خلال تقديم الوعود للفلاحين بحمايتهم من تدخل الدولة ، أن يحصلوا على حقوق شرعية في مساحات كبيرة من الأرض . وحتى عندما كان الفلاحون يرغبون فعلاً بتسجيل أراضيهم بأسمائهم فقد كانت رسوم التسجيل المطلوبة باهظة لدرجة تمنعهم من ذلك . فعندما كانوا لا يستطيعون دفع الرسوم كانت أراضيهم تدرج في المزارد العلني من قبل المجلس المحلي أو مجلس الولاية الذي كان بوسع

أعضائه تدبير عمليات المزاودة ، أو أنهم ببساطة يزاودون على جميع المشترين الآخرين في المزاد فالوجهاء والأعيان المدينيون " قد استخدموا مراكزهم في (المجلس المحلي) لتوسيع أراضيهم عن طريق بيع (المالكات) لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزاد العلني . كذلك ظهرت فئة أخرى من التجار والمرايين الذين أثروا حديثاً من جراء قوى التججير والذين أصبحوا يملكون الأراضي من خلال استغلال رؤوس الأموال الموظفة في أعمال الربا في تلك المناطق وفي حزام الحبوب في حوران " وقد كانت المزاودات على الأراضي صورية بكل معنى الكلمة ، وتنتهي دائماً لصالح العائلات المتنفذة في المدينة . " وقد استخدمت العائلات المالكة للأراضي الأرباح الزراعية لشراء المناصب ومن خلال مناصبها كانت تنعم على الناس أو تنفعمهم من خلال الوظائف والعقود ، والوصول إلى الحكومة والحماية منها . وهكذا فقد امتدت شبكة المحسوبية ، ونحيم نوع من الاستقرار على المدينة وضواحيها ، قائم على إمكانية الوصول إلى الأشخاص في السلطة (٦٢) .

وهكذا كانت المناصب والوظائف والوجود في بنية السلطة سبيلاً لالتقام المزيد من الأراضي ، كما كانت الأراضي وماتارده من أرباح سبيلاً لشراء المناصب والوظائف . وكان الفلاح هو الضحية دائماً ، إلى جانب ضحية أخرى تتمثل في بعض المحاولات الإصلاحية (العلمانية) التي كانت السلطة العثمانية المركزية تسعى إلى تطبيقها تحت تأثير ظروف مختلفة . فكانت العائلات المدينية تبذل قصارى جهدها لو أدت تلك الإصلاحات في المهد .

وكان مما يسهل عملية خداع الفلاح ، ثقته المزعومة أساساً بالسلطة المركزية إلى الدرجة التي تجعله لا يتوقع أي خير يأتي من جهتها ، ووقوعه (الفلاح) تحت السطوة الكاملة لأعيان ووجهاء

المدينة إلى الدرجة التي يجعله يخشى أية مراجعة معهم . وليس قانون الأراضي لعام (١٨٥٨) هو المحاولة الإصلاحية الوحيدة التي استطاع الوسطاء من الأعيان المدينيين الالتفاف عليها ، وإجهاضها وعكس اتجاهها ، بل استطاع هؤلاء أن يلتفوا على كل قانون يمكن أن يحمل في طياته الخير للفلاحين فحين حرّمت الدولة كل أشكال الضرائب على الفلاحين خارج (الميري) الموحدة (أوجد الأعيان والوجهاء تسميات جديدة " السخرة ، المعائدات ، الهدايا ، ضرائب الزواج ، العونة ، بالإضافة إلى البلص ، والقروض ، أو التسليف بفوائد فاحشة وغيرها . وفي أسفل السلم الاجتماعي (الهرم المقاطعي) يقبع الفلاح المنتج الذي عليه أن يمول بوسائل بدائية جداً وأرض صخرية قاحلة وغير قابلة للاستصلاح ، سلسلة من المستغلين المقاطعيين الذين يعيشون طفيليين على حساب القوى الفلاحية المنتجة " (٦٣) . فقد كان وقوع الفلاحين تحت رحمة التجار المرابين من أبشع ما يمكن تصوره من الاستغلال ، فقد كان هؤلاء التجار يستغلون حاجة الفلاحين للأموال من أجل دفع الضرائب وغيرها ليفرضوا عليهم شروطاً مجحفة مقابل إقراضهم بعض المال " ففي وقت جمع الضرائب وهو الوقت الذي يكون فيه الفلاح بأمس الحاجة إلى النقد ، يتوجه جيش من التجار وكلاء التجار الأجانب إلى القرى (ليساعدوا) الفلاح . بتقديم النقد الضروري له ، لقاء رهن محصوله القادم بفائدة قدرها (٣-٥٪) في الشهر ، أو لشراء محصوله كله لقاء ثلثي أو نصف ثمنه . وبهذا يستولي التجار على المحصول بأرخص الأثمان . . . وهكذا يجد الرسمال الأجنبي في القرية المسحوقة باضطهاد الاقطاعيين أفضل تربة لتطوير نشاطه الربوي " (٦٤) .

وقد استمرت هذه الحالة بل وتفاقمت حتى الهزيع الأخير من ليل الحكم العثماني بل إلى ما بعد ذلك .

ومن ناحية أخرى كان الفلاحون واقعين تحت رحمة القبائل البدوية القريبة من قراهم ، وقد اضطروا إلى دفع الأتاوات لهؤلاء خوفاً على مزروعاتهم ومحاصيلهم وقد كانت تلك الأتاوات تصل إلى درجة كبيرة من الغبن . بل إن شيوخ القبائل تحولوا في كثير من الحالات إلى مالكين للأراضي الزراعية ، وكانوا يسخرون الفلاحين أو يستغلونهم " فقد ملك زعيم قبيلة (أمارات - عنزة) الشيخ (فهد بك) عقارات قرب كربلاء . وفي منطقة الموصل امتلك شيوخ قبائل (شمر) أراضيهم الخاصة ، التي اشتغل فيها فلاحون أجراء . وكذلك كان لزعماء (الرولا ، وبني صخر) في الولايات السورية . ولقبائل شبه الجزيرة العربية في واحات نجد وجبل شمر أطيان كثيرة" ^(٦٥) وبهذا شكل شيوخ القبائل وفروعها وزعماء السلالات الغنية المتنفذة طبقة من (الاقطاعيين) البدو تعيش بشكل رئيسي على استغلال السكان المستقرين والقبائل الموالية . وفي حالة نحوض هؤلاء معارك ناجحة كان يحصل الشيوخ على نسبة (٢٠٪) من الغنائم . وبلغ من سطوة شيوخ بعض القبائل أن السلطة العثمانية اضطرت لتوقيع الاتفاقيات معهم والتي تعترف لهم من خلالها بالكثير من النفوذ وتهبهم الكثير من الامتيازات مقابل أن تضمن عدم نهبهم للقوافل وعدم تعديهم على المدن والحاميات ومن الجدير بالذكر هنا أن الكثير من ولاية دمشق قد احتفظوا بمناصبهم بسبب اثباتهم المقدرة على ردع القبائل الساكنة على طريق قوافل الحج إلى مكة المكرمة . بل إن بعض هؤلاء الولاة قد لجأ عند عزله من منصبه إلى إغراء تلك القبائل بالهجوم على موكب (الحج الشامي) وذلك لإضعاف هيبة خلفه أمام السلطة العثمانية مما يجبرها على إعادته لمنصب الوالي . . .

ثالثاً - الحياة الثقافية والفكرية

قلنا إن الدولة العثمانية هي ربيبة القوة والفتوحات العسكرية، لذا فقد انحصر همها في نهب خيرات ممتلكاتها ، وضخ ثرواتها إلى حيث تنفق على تعزيز القوة العسكرية للدولة ، باعتبارها أداة تسلط وقهر ، وعلى الزحف ، والبذخ ، الذي بدأ يغوص فيه حكام تلك الدولة إلى مافوق آذانهم . ولم تكن الدولة على استعداد لإنفاق أية مبالغ من واردات الخزينة على شؤون المعرفة والعلم ، ولم تحاول أبداً مسيطرة الدول المجاورة لها في أوربا ، خاصة في ميادين التقدم العلمي والصناعي

ولم يكن لدى الأتراك أية ثقافة أو حضارة صالحة لأن تنشر على الناس ، بل على العكس تماماً أحاطوا أنفسهم بمناعة شديدة حجبهم عن الأخذ بمعطيات المدنية الحديثة . ففي الوقت الذي كانت تتسابق فيه الدول الأوربية في مضمار العلوم والآداب وال عمران والصناعات كانت الدولة العثمانية تبحث عن أكثر الوسائل تعسفاً لنهب المال والغلال من بلاد العرب وسواها ل يتمتع به غلمان الأتراك في القسطنطينية ^(٦٦) . وفي الوقت الذي كانت فيه أوربا تصنع نهضتها العلمية والفكرية ، وتخلص مناهج التعليم من كل أشكال التخلف ، وتحرره من كل ما كان يكبل العقول والنفوس من أفكار بالية ، وتضع المناهج المتمشية مع روح النهضة العلمية ، كانت المدارس في بلادنا تتراجع لتقبع على شكل كتاتيب في الزوايا والتكايا والمساجد وبعض البيوت في أحياء المدن الكبيرة معتمدة على أريحية وكفاءة بعض (الشيوخ) . ومن الطبيعي أن يكون (المستوى) الفكري في ظل هذا الوضع الكئيب منخفضاً جداً ، وأن يكون التعليم الذي يقدم في هذه الكتاتيب - سواء أكانت إسلامية أم مسيحية - منحصراً في النواحي الضيقة للعلوم

الدينية وكان تدريس هذه النواحي نفسها منحطاً في مستواه وضيقاً في أفقه . . . (٦٧) وكان يشرف على كل (كتاب) (شيخ) أو رجل دين يعلم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة والأعمال الحسابية الأربعة ويحفظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة والسنن والشرائع والعقائد الإسلامية (في المناطق الإسلامية) أما في المناطق المسيحية فإلى جانب مبادئ القراءة والكتابة والحساب يتعلم الأطفال بعض الصلوات والأدعية والأناشيد الدينية . وقد ذكر (مارون عبود) بالتفصيل ما كان يتعلمه الأطفال على يد الخوري (تحت السنديانة) في قريته . ونجد ذلك في كتابه (رواد النهضة الحديثة) .

وقد كان التلاميذ في هذه الكتاتيب يدفعون أجوراً أسبوعية بسيطة جداً (الخميسية) ، ومن الطبيعي أن يكون مستوى التعليم في كل كتاب يتناسب مع المستوى العلمي لصاحبه . ففي بعض الحالات يكون حظ التلاميذ كبيراً حين يكون (شيخ الكتاب) أكثر اطلاعاً وأوسع أفقاً وصدراً .

في حين كان الكثير من أصحاب تلك (الكتاتيب) شبه أميين ضيقي الأفق محدودي التفكير . ولم تكن الدراسة في هذه الكتاتيب محدودة بمدة معينة ، بل كان البعض يتسربون من الكتاب ليساعدوا أسرهم في الأعمال الحرفية أو الزراعية بعد أن يتموا القراءة والكتابة أو حتى دون هذا الإلمام . في حين كان يستمر البعض ، وهم الأقل عدداً إلى أن يتموا حفظ القرآن الكريم ، حيث كانت تقام لهم حفلات التخرج (الختم) . وهي حفلات مشهودة ، حيث يسير المتخرج في موكب يشارك فيه شيخ الكتاب وإمام الحي وزملاء المتخرج وهم ينشدون الأناشيد التي تضافي على الاحتفال جواً من البهجة . . . وبعد ذلك يمكن أن يتلمذ المتخرج على بعض علماء

(مشايخ) بلده ، ليأخذ من كل واحد منهم ما برع فيه من العلم " اللغة - الحديث - الفقه . . . الخ " والتلميذ الذي يبدى موهبة ومقدرة على إتقان علم شيخه يأخذ منه (إجازة) تدل على تمكنه ، وتجيّزه بأن يعلم غيره . . . هذا بالنسبة للصبيان أمّا البنات فقد كانت لهن (كتاتيب) خاصة تعلّم فيها امرأة تسمى في دمشق (الخوجة) وإن كانت مدارس البنات أقل ، وعدد تلميذاتها أقل ولم يكن بإمكان من تختّم القرآن - تحفظه - متابعة التعليم ، إلا في حالات نادرة جداً ومجهودها الخاصة . وبصورة عامة كان التعليم في المناطق العربية يتم بمجهود فردية دون أي دعم من الدولة وظل الأمر كذلك إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر حين بدأت الحكومة تشعر بمدى ما أحدثته المدارس التبشيرية من آثار ، فافتتحت - كرد فعل عليها - المدارس الابتدائية في دمشق وحلب وبيروت للبنين والبنات وهي ما كان يعرف بالمدارس الرشدية ، وكانت مدة الدراسة فيها (٦) سنوات والغاية منها تخريج الموظفين للدوائر الحكومية . وبتأثير المدارس التبشيرية والمدارس الرشدية طورت بعض الكتاتيب مناهجها ، وتحولت إلى ما يشبه المدرسة ، ومن ذلك مدرسة (الشيخ عيد السفرجلاني بدمشق) وإن كانت مدة الدراسة فيها بقيت دون تحديد . هذا وقد تأسست مدارس أهلية مدة الدراسة فيها (٦) سنوات ومن أشهرها في دمشق مدرسة (الشيخ كامل القصاب) والكلية العلمية الوطنية .

وبعد إعلان الدستور أسست المدارس (السلطانية) وكانت تضم المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية ، وكانت لغة التدريس فيها هي التركية ، وإن افتتحت بعد ذلك مدارس (سلطانية) تدرس باللغة العربية تحت إلهام النواب العرب في مجلس المبعوثان . ولكن المدارس الحكومية ظلت دون مستوى المدارس التبشيرية ، ولم تستطع استقطاب إلا أعداد قليلة جداً من الطامحين للحصول على

وخليفة ، واحتلال مكان في (البيروقراطية) المتنفذة . وقد أشار (سليم أفندي سلام) مبعوث بيروت في خطبة له في مجلس المبعوثان بتاريخ (١٤ تموز ١٩١٤) إلى الحالة المتردية للمدارس الحكومية خاصة إذا ماقيست بالمدارس التبشيرية : " تكتفي وزارة المعارف بأن تقول عندي مدارس سلطانية كذا ، ومدارس إعدادية كذا ، ولكنها لا تفكر في هذه المدارس إنها تعين لتدريس اللغة العربية الشريفة أناساً ليست معارفهم بها بأكثر من معارف العوام ، وهي تعين مديرين تبرأ الإدارة إلى الله منهم . . . كل هذه الأسباب جعلت مدارسنا الرسمية في الاضطراب الذي تعرفونه . هذه مدارسنا السلطانية في بيروت ، تأسست منذ ثلاثين سنة ، ولا يبلغ عدد طلابها مائتي طالب . في حين أن عدد الطلبة في الكلية الأميركية ألف طالب ، وفي كلية اليسوعيين في بيروت سبعمائة طالب . ولعلكم تقولون أن الثقة بمدارس الأجانب هي التي سببت هذا الإقبال عليها ، نعم إنها الثقة ،

ولكن الثقة لا تكتسب من غير جاد وعمل ، ولولا رغبة الأهلين في الانتظام بسلك الوظائف لما دخل أحد من أبنائنا مكاتب الدولة وذلك ظاهر للعيان . . . أرايتم إلى الآن متخرجاً من مدارس الحكومة يتعاطى التجارة أو الصناعة أو الزراعة ؟ كلا ثم كلا ، فإن جميع الذين يتعاطونها من خريجي المدارس الأجنبية أو الأهلية ، لا المدارس الرسمية . يحزنني أن أبلغكم أن مدارسنا الرسمية باتت معامل لصنع الموظفين ، مع أن المدارس لم تنشأ إلا لكي تُفَرِّج للوطن رجالاً يعيشون بكدهم وجهدهم ، رجالاً يغنونه بثروة عقولهم . تلك حال مدارس الصبيان في بلادنا العربية ، أما مدارس البنات فماذا تقول فيها ، ماذا تريدون مني أن أقول يانواب الأمة ؟ إنها لفي الدرك الأسفل . . . إن مدرسة البنات العثمانية في بيروت ، لم تتخرج فيها منذ إنشائها إلى الآن تلميذة واحدة حديرة

بالاحترام العلمي ، بخلاف مدارس البنات الأجنبية وإنه
ليحزننا جداً أن تهمل وزارة المعارف واجباتها ولاسيما في سورية
حيث المصلحة السياسية تقضي عليها بمزاحمة الأجانب . . . " (٦٨)
وقد أسهبت عن عمد في اقتطاف مقاطع كبيرة من هذا الخطاب
الطام الذي يصور أبلغ تصوير حالة التعليم الرسمي حتى قبيل انهيار
الدولة العثمانية .

هذا وإلى جانب التعليم الرسمي ، والتعليم الأهلي المحلي كان
ثمة تعليم ممارسه لإرساليات الدينية التبشيرية وكان هذا التعليم يقوم
على أسس أوربية بكامله تقريباً . (٦٩) وكان لهذا التعليم الفضل في
إدخال التعليم العصري إلى المناطق العربية ، وإدخال تعليم اللغات
والعلوم الطبيعية . كما أتاح المجال للاطلاع على الأفكار والآراء
الأوربية والاطلاع على آخر منجزات الأوربيين في شتى
المجالات (٧٠) مما جعل كل باحث لهذه الفترة يجعل من المدارس
التبشيرية أحد أهم أسباب اليقظة العربية . وإذا كنا لانحسب أن
يبحس الناس أشياءهم ، ولانستطيع تطمين عين الشمس - كما
يقولون - ولأن لنكر الأفضال التي ربما يكون قد أسبغها هذا النوع
من التعليم على بلادنا ، إلا أننا لانتوي أن نتغافل عن الوجه الآخر
لهذا التعليم ، ولأن نؤخذ بالمظهر البراقة ، فنعطي هذا النشاط
التبشيري فوق ما يستحق كما فعل البعض حين قال : " لما كان
لابد من توفير كل حق لأهله ، وجب أن نقول أن الأمريكيين هم
الذين بدؤوا بتوفير آفاق سورية بالمعارف العصرية ، بتأسيس الكلية
الشهيرة في بيروت (الجامعة الأمريكية) . وإنه في هذه المدرسة جلس
للتعليم أساطين حكمة وأعلام إفادة ، لم تهرح سورية مدينة لهم إلى
الابد " (٧١) .

نقول إننا لانتوي أن نتجاهل الوجه الآخر للتعليم التبشيري
فقد كان بمثابة غزو فكري ، مهد ورافق الغزو الاقتصادي

والعسكري الأوربي " فكما حدث غزو أوربي أثر في التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي فقد حدث غزو ثقافي أوربي كذلك " (٧٢) فقد كانت الإرساليات الدينية التي بدأت نشاطها في البلدان العربية الواقعة في آسيا الأمامية منذ نهاية القرن السادس عشر ، أداة هامة من أدوات التوسع السياسي والأيدولوجي للدول الأوربية " (٧٣) . وإذا كانت الإرساليات الدينية قد بدأت عملها منذ ذلك الوقت المبكر ، " إلا أنها قد نشطت بشكل ملحوظ بعد عام (١٨٢٠) حين تأسس في بيروت (مركز الإرساليات الكنيسة المشيخية البروتستانتية الأمريكية) ، وعام (١٨٣٦) حين أعيد تشكيل الإرسالية اليسوعية مجدداً " (٧٤) وقد حدث نوع من التنافس بين البروتستانت ، والجزويت الكاثوليك في مجال افتتاح المدارس والمعاهد (الكلليات) " حيث كان اليسوعيون والأمريكان قادة حركة التعليم إذ بلغ عدد مدارس الأمريكان عام ١٨٨٢ / نحواً من (١٣٠) مدرسة متفرقة في سوريا ولبنان ، وكانت مدارس اليسوعيين ضعف هذا العدد عام ١٩٠٠ " (٧٥) وفي هذه الأثناء ازدادت حركة الإرساليات ، ولم تعد مقتصرة على المؤسسات الأمريكية والفرنسية والبريطانية ، فقد فتحت الأبواب للبعثات الروسية والإيطالية والألمانية ، وكانت كل فئة تخفي وراء عملها التبشيري والثقافي مطامع سياسية . وكانت النتيجة أن احتضنت كل مؤسسة طائفة معينة ، تشاركها مذهبها ، فنفر منها المسلمون لصفاتها التبشيرية بصورة خاصة وكان ذلك من العوامل التي أثارت التعصب " (٧٦) . وقد حاولت تلك الإرساليات أن تنفي عن نفسها الاتهام بأنها أداة بيد الدول الأوربية ، وحاولت أن تظهر بمظهر المستقل عن أية تبعية . ولكن كان لا يخفى " أن الدول الحامية لهذه أو تلك من الإرساليات الدينية تقدم لها الدعم المادي والسياسي الواسع . فقد تمتعت إرساليات كثيرة إلى جانب الأموال

التي تأتيها من مصادر خاصة تمولها كبريات الشركات الاحتكارية ، بإعانات من عدد من الحكومات " (٧٧) فكانت هذه الإرساليات المستقلة شكلاً ، مرتبطة إرتباطاً كلياً بالدول الحامية لها ، وتعمل بنشاط لتنفيذ توجيهات حكوماتها " (٧٨) . فقد كان للتعليم الذي مارسه البعثات التبشيرية ، إلى جانب الوجه الإيجابي الذي تمثل كما ذكرنا بالمناهج الحديثة والعلوم العصرية والاهتمام بتعليم الاناث ، وجهه السلبي المقيت حيث وضع في خدمة السياسات الاستعمارية الأوربية ، ومشاريعها التوسعية ؛ كما أنه حاول أن يعمق الخلافات بين الطوائف فقد " كانت السياسة الرسمية للإرساليات الدينية في حقل التعليم موضوعة في خدمة المصالح السياسية للدول الأوربية فقد كانت المؤسسات التعليمية للإرساليات الدينية تغرس بإلحاح وعناد فكرة التزلف لدول أوربية معينة ، والتعاطف السياسي معها وقد أشار (أمين الريحاني) الذي تلقى تعليمه في إحدى المدارس اليسوعية إلى أن الأمة الفرنسية عبارة عن طاووس ذي ريش براق ، فردت مدارسها ذيلها الطاووسي في كل لبنان ، غارسة فينا فكرة أن فرنسا هي أعظم أمة على الأرض ، أنبل أمة ، أغنى أمة ، أكثر الأمم علماً ، وأنها قلعة الحضارة وعاصمة النور " (٧٩) . وهكذا فكثيراً ما كانت الإرساليات الدينية تصبح قناعاً (من أجل التجسس السياسي للدول الكبرى ، وقد اشتهر في هذا الخصوص نشاط المبشر الكاثوليكي (بالغريف) الذي تفقد كعميل لنابليون الثالث أواسط وشرقي شبه الجزيرة العربية " (٨٠) ومن معالم الوجه السلبي المقيت لتعليم الإرساليات ، غرس روح التعصب الطائفي ، مما جعل هذه المدارس حكراً على أبناء طوائف معينة ، مما أبعد المسلمين عن هذه المدارس . إذ " سادت مدارس الإرساليات الدينية روح التعصب الديني . وإثارة البغضاء لأتباع الطوائف المغايرة " (٨١) وقد شكّا (سليم البستاني)

في (مجلة الجنان) عدد ٣١ آب عام ١٨٧٦ من أن المدارس التبشيرية المختلفة ذات اتجاه استعماري، وأن فائدتها انحصرت في المسيحيين دون المسلمين . وظل هذا الأمر سارياً حتى سنوات متأخرة ، فقد أوردت نشرة (الطهارة والمحبة) التي كانت تصدرها بشكل غير دوري الكلية الإنجيلية الوطنية بجمص في أحد أعدادها في عام (١٩١٠) أسماء الطلاب الدارسين فيها في ذلك العام في كل الصفوف ، ولم يكن من بين هؤلاء جميعاً إلا (طالب واحد) من غير أتباع المسيحية ، وقلة من الطلاب من أتباع المذاهب المسيحية الأخرى غير المذهب البروتستانتي ، الذي كان مذهب غالبية الطلاب . وقد أثار هذا الوجه السلبي لتعليم الإرساليات التبشيرية غضب كثير من متنوري الأمة فهذا (حبران تحليل حبران) يقول : " كان التعليم يأتيها من الغرب بشكل الصادقة ، وقد كنا ولم نزل نلتمس تحرير الصادقة ، لأننا جميعاً - متضربون وقد أحيانا ذلك الحبر ، ولما أحيانا أماننا ، أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ، ونبه عقولنا قليلاً ، وأماننا لأنه فرق كلمتنا ، وأضعف وحدتنا ، وقطع روابطنا ، وأبعد ما بين طوائفنا ، حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المبادئ ، كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتزعم بحساسنها وأجنادها " (٨٢) .

في ذلك الجو المحموم من الصراع الفكري والثقافي الذي كان يتنافس على عقول الناشئة ليشكلها وفق متطلبات المصالح الاستعمارية الأوروبية ، ويجعلها نسخة مكررة ومشوهة . . . كان لابد أن تهب الجماعات الوطنية لاسيما تلك التي أبعدت عن هذا التنظيم ، أو أبعدت نفسها عنه حفاظاً على قيمها ، وقوميتها وكنوع من الدفاع الفطري والغريزي عن الذات ، من أن تبحث عن أماكن لتعليم أبنائها ، خاصة وأنها يمست من جهود الدولة في

هذا المضمار . فافتتحت المدارس الأهلية في بيروت ودمشق وحلب وسواها . ومن (المدارس الأهلية في لبنان مآنشأته جمعية (المقاصد الخيرية) الإسلامية في بيروت وجمعية (زهرة الإحسان) لطائفة الروم الارثوذكس و (جمعية المعارف) الدرزية وجمعية (يقظة الفتاة العربية) " (٨٣) .

وكان (الزهرراوي) في معظم من هذا الصراع الثقافي والفكري ، يريد لأبناء وطنه أن يتزودوا بكل علم نافع ، أما كان مصدره . وإن كان لا يخفي شكه في المطامع الأوروبية التي تتعصى تحت ستار ناعمة كما سبق وذكرنا . وهو في إحدى خطبه وموضوعها (الأفراد والجماعات) بحث خاصة على العناية بتعليم البنات لأن "الأم هي المربية الأولى فيجب أن يتعلمن (البنات) تدبير المنزل وأمور بيتهن ، ولست أدري لماذا لا يعلمونهن قواعد اللغة العربية أيضا ، وتاريخنا المجيد ، والسيرة النبوية كما يجب وكما ينبغي ،) ويتابع وكأنه يرد على المناهج التبشيرية) أمّا تعليمهن لغات الأجانب فلا أجد له معنى " (٨٤) .

هذا بالنسبة للتعليم أمّا مصادر الثقافة والفكر الأخرى فقد تمثلت في المطبوعات (الكتب والصحف) . والكتب إمّا أنها من كتب العلوم اللغوية والدينية ، أو أنها من الكتب التي حاول بعض أعلام النهضة إحيائها من أمهات كتب التراث ، أو من الكتب المترجمة ، إمّا إلى العربية ، وإمّا إلى التركية . وقد استطاع المتنورون من رجالات النهضة أن يطلعوا على الكثير من الكتب المترجمة ، وكان من أهم مالفت انتباههم التأكيد على الحرية الفردية ، وحقوق المواطن ، وضرورة تقييد سلطة الحكام . وكلها كما لا يخفى من أفكار عصر الأنوار الأوربي لاسيما (مونتسكيو) خاصة في كتابه (روح القوانين) ولما كان من غير المعتاد - آنذاك - أن يشير

الكاتب إلى مصادر أفكاره ، ولما كان كل رجال النهضة قد اطلعوا - تقريباً - على نفس المصادر فإننا نجد هذا التشابه الكبير بين أفكارهم . . . وقد استطاع رجال من أمثال الطهطاوي والتونسي والأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي والزهراري أن يجمعوا بين العلوم والثقافة العربية وبين المهتم من الأفكار السياسية والاجتماعية الأوروبية ، وحاولوا أن يزيلوا من العقول أية أفكار تظن أن لا تلاقي بين ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية ، وبين ما أنتجته الحضارة الغربية . وكان عملهم بمثابة التوليف الضروري لقيام نهضة فكرية عربية حديثة . وإلى جانب هؤلاء كان عدد من المتغربين الذين لم يرشفوا من التراث العربي ولاقطرة بل اقتصرت معرفتهم على ماتلقوه من أساتذتهم في المدارس التبشيرية ، وعلى ماكتبه المستشرقون حول الحضارة العربية ، لذلك فهم لا يرون في التراث العربي إلا الجهل والجمود والتعصب والتخلف . في حين كانت هناك فئة ثالثة اقتصر اطلاعها على بعض الكتب التراثية ذات الأفق الضيق ، لذلك فهم لا يرون في ثقافة الغرب وعلمه وأفكاره إلا المروق والزندقة والكفر . . .

أما بالنسبة للصحافة ، فعلى الرغم من بعض المبادرات الصحفية المبكرة والرائدة ، فإن هذه الوسيلة لتحصيل المعرفة والاطلاع هي مما اقتبسها العرب عن الأوروبيين . وقد كانت في كثير من الحالات ساذجة ، يمارسها أناس لا علاقة لهم بالعلم والمعرفة ، فجاءت صحفهم هزيلة مضحكة ركيكة ، لا تستحق الإشارة إليها إلا لمجرد وجودها أو بالأحرى سبقها إلى الوجود . أما الصحف المهمة والجادة فقد تأخرت بالظهور إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر وأهمها (الجوائب) لأحمد فارس الشدياق و (نفيير سورية) للمعلم بطرس البستاني و (ثمرات الفنون) لمجموعة من الأدباء المسلمين في بيروت و (لسان الحال) لخليل سركيس وأهم

المجلات (المقتطف) ليعقوب صروف وزملائه ، ومجلة (المشرق) للأب لويس شيخو . وبعض الصحف والمجلات الأخرى في دمشق وحلب . وقد أدرك رجالات عصر النهضة أهمية الصحافة في بث روح الإصلاح وتنبيه المواطنين إلى مآضاعوه من حقوق ، ومحاولة خلق (روح عمومية) واعية ، ورأي عام مستنير . خاصة بعد أن لمسوا أهمية هذه الصحف وأهمية الدور الذي تلعبه على ساحة العمل السياسي في الدول الأوروبية ، وكيف أنها قد تحولت إلى (سلطة ثالثة) ، وكيف أن حكام تلك الدول يحسبون لها كل حساب . لذلك فقد سارع المتنورون من أبناء العروبة إلى تأسيس الصحف التي تدرك أبعاد الدور الذي عليها أن تمارسه ، مع الارتفاع بمستواها التقني وأسلوب تحريرها عن تلك الرطانة والساذجة . فكانت (النبراس والمفيد) في بيروت، وكانت (الاعتدال) في حلب ، وكانت (المقتبس) في دمشق، وكانت (الحضارة والمدنية) في الأستانة ، وكانت من قبل (العروة الوثقى) في باريس

و خلاصة القول :

أن تمسك كثير من المتنورين العرب بالعثمانية - ومنهم الزهراوي - لم يكن بدوافع دينية بل كان ذلك هو الملاذ والبديل المتاح في وجه الأطماع الأوروبية التي بدأت تكشف عن أهدافها بشكل سافر . وقد بدا جلياً أن انهيار الدولة العثمانية لم يكن يعني شيئاً أكثر من سقوط الوطن العربي في براثن الاستعمار الأوربي فقد كان التمسك بالعثمانية اختياراً لأهون الشرين كما قال (مصطفى الشهابي) .

وقد كانت الأقاليم العربية تعاني من تخلف شديد اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً سببه تقصير الدولة - العثمانية - من جهة ،

وضغوط التغلغل الأوربي من جهة ثانية ، فقد انحدر الانتاج المحلي أمام المنافسة القوية وغير المتكافئة التي مارستها الصناعة الأوربية الناشئة ، عبر سماسرتها ووكلائها ، وعبر تمتعها بالتسهيلات التي وفرها لها نظام الامتيازات . وتراجعت الزراعة نتيجة الحالة المتردية للفلاح الذي عانى من ضغوط الدولة والأعيان والمرابين وملتزمي الضرائب والسמסرة لاسيما بعد تنجير الزراعة وربطها بالصناعة الأوربية .



هوامش الفصل الأول :

- ١ - د. فهد جلعان، أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩) ، ص ١٩٠ .
- ٢ - مصطفى الشهابي ، محاضرات في الإستعمار ، (القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧) ، الجزء الثاني ، ص ١٨٠ .
- ٣ - د. منير موسى ، "عبد الدين الخطيب" ، بحث مقدم للؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٨) ، الجزء الثاني ، ص ١١٥ - ١١٦ .
- ٤ - مصطفى الشهابي ، مصدر سابق ، ص ٥٠٠ .
- ٥ - انظر ، د. محمد عمارة ، فجر اليقظة العربية ، (بيروت ، دار الوحدة ، ١٩٨١) ، ثلاثة أجزاء .
- ٦ - شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ، ص ٣٤١ .
- ٧ - د. هاشم ياغي ، ملامح المجتمع اللبناني الحديث ، (بيروت ، دار بيروت ، ١٩٦٤) ص ٤٤٠ .
- ٨ - ل. ن. كوتلوف ، تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي ، ترجمة سعيد أحمد ، (دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨١) ، ص ١٧ - ١٨ .
- ٩ - المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
- ١٠ - المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
- ١١ - المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
- ١٢ - انظر أحمد حلي العلاف ، دمشق في مطلع القرن العشرين ، (دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٧٦) ، انظر ٢٠ ومابعدا .
- ١٣ - انظر ، المصدر السابق .
- ١٤ - انظر ، المصدر السابق .
- ١٥ - فيليب شكري خوري ، "طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ - ١٩٠٨" ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام .
- ١٦ - عبد الحميد الزهراوي ، "النظار" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٦٧ ، ٢٠ تموز ١٩١١ .

١٧ - د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام السكان : الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق ، (بيروت ، معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٠) ، ص ٦١ .

١٨ - عبد الحميد الزهراوي ، "بعد أربع سنين ، سقوط استبداد ثان" ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٠ ، ٢٥ تموز ١٩١٢ .

١٩ - عبد الحميد الزهراوي ، "أخبار العالم أو السياسة الحاضرة" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٩٣ ، ١٨ كانون الثاني ١٩١٢ .

٢٠ - عبد الحميد الزهراوي ، "عهد جديد في الاتفاقيات" جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١١٩ ، ١٨ تموز ١٩١٢ .

٢١ - عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق .

٢٢ - عبد الحميد الزهراوي ، "حول الصلح" جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١١٥ ، ٢٠ حزيران ١٩١٢ .

٢٣ - عبد الحميد الزهراوي ، "أخبار العالم أو السياسة الحاضرة" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية العدد ٩٣ ، ١٨ كانون الثاني ١٩١٢ .

٢٤ - د. بدر الدين السباعي ، أضواء على الرسائل الأجنبية في سورية (١٨٥٠ - ١٩٥٨) ، (دمشق دار الجواهر ، ١٩٦٧) ، ص ١٨ .

٢٥ - د. هاشم ياغي ، ملامح المجتمع اللبناني الحديث ، (بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٤) ، ص ٧٢ .

٢٦ - د. بدر الدين السباعي ، مصدر سابق . ص ٧-٨ .

٢٧ - انظر ل. ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٩٤، ١٩٥ .

٢٨ - د. بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ، ص ١٢ نقلاً عن آخريين .

٢٩ - ل. ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٧٤ .

٣٠ - د. بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ، ص ١٥ .

٣١ - فيليب شكري حوري ، مصدر سابق ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٣ .

٣٢ - فيليب شكري حوري ، مصدر سابق ، الجزء الثاني ، ص ٤٥١ .

٣٣ - فيليب شكري حوري ، مصدر سابق ، الجزء الثاني ، ص ٤٧٥ .

٣٤ - د. عبد الله حنا ، "تحركات العامة" ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٨) ، الجزء الثاني ، ص ٥١٦ .

- ٣٥ - د. عبد الله حنا، مصدر سابق، ص ٥١٢.
- ٣٦ - د. وجيه كوثراني، وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣، ١٠٠٠ (بيروت، دار الحداثة ١٩٨٠)، ص ٣٣.
- ٣٧ - د. عبد الله حنا، مصدر سابق، ص ٥١٢.
- ٣٨ - د. وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص ٣٤.
- ٣٩ - د. وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص ٣٤.
- ٤٠ - د. عبد الله حنا، مصدر سابق، ص ٥٤١.
- ٤١ - د. بدر الدين السباعي، مصدر سابق، ص ٩٠.
- ٤٢ - فيليب شكري خوري، مصدر سابق، ص ٤٥١.
- ٤٣ - ل. ن. كوتلوف، مصدر سابق، ص ٢٩٠.
- ٤٤ - انظر: د. هاشم ياغي، مصدر سابق، ص ٧٢ - ٧٥.
- ٤٥ - انظر: محمد كرد علي، خطط الشام، (دمشق، مكتبة النوري، ١٩٨٣)، خاصة الجزء الرابع.
- ٤٦ - د. بدر الدين السباعي، مصدر سابق، ص ١٣.
- ٤٧ - عبد الحسيد الزهراوي، "اليوم وبعد اليوم" جريدة الحضارة، السنة الثانية، العدد ٨٥، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١.
- ٤٨ - عبد الحسيد الزهراوي، جريدة الحضارة، السنة الأولى، العدد ١٤.
- ٤٩ - د. عبد الله حنا، مصدر سابق،
- ٥٠ - انظر: أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين.
- ٥١ - د. عبد الله حنا، ثمرات العامة، ص ٥٢٧.
- ٥٢ - د. عبد الله حنا، جريدة الشورى، العدد ٦٨٨١، تاريخ ١٩٨٥/٩/٨.
- ٥٣ - د. هاشم ياغي، ملامح المجتمع اللبناني الحديث، ص ٤٣.
- ٥٤ - انظر فيليب شكري خوري، مصدر سابق.
- ٥٥ - انظر فيليب شكري خوري، مصدر سابق، ص ٤٧٥ وما بعدها.
- ٥٦ - انظر فيليب شكري خوري، مصدر سابق، ص ٤٤٥.
- ٥٧ - ل. ن. كوتلوف، مصدر سابق، ص ١٦٦-١٦٧.
- ٥٨ - فيليب شكري خوري، مصدر سابق، ص ٤٤٧.
- ٥٩ - ل. ن. كوتلوف، مصدر سابق، ص ١٦٩.
- ٦٠ - ل. ن. كوتلوف، مصدر سابق، ص ١٦٩.

- ٦١ - انظر : فيليب شكري بخوري ، مصدر سابق ، ص ٤٤١ .
- ٦٢ - فيليب شكري بخوري ، مصدر سابق ص ٤٤٧ .
- ٦٣ - د . مسعود ضاهر " اشكاليات نظرية لدراسة التطور التاريخي للمسألة الطائفية في لبنان " بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٨) ، الجزء الثاني ، ص ١٩١ .
- ٦٤ - د . بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ، ص ١٩-٢٠ .
- ٦٥ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ٩٤ .
- ٦٦ - انظر : مصطفى الشهابي ، محاضرات في الإستعمار ، ١٠٠ ، الجزء الثاني .
- ٦٧ - انظر : علي حاج بكري ، العقلية العربية بين الحربين (دمشق ، دار الرواد ، دون تاريخ) .
- ٦٨ - سليم أفندي سلام ، من خطاب في مجلس المبعوثان القاه بتاريخ ١٩١٤/٧/٤ .
- ٦٩ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٩٩ .
- ٧٠ - وقد تحفظ ل . ن . كوتلوف حول هذه الناحية فأوضح كيف أن تلك الإرساليات حجت أعمال ومولفات وأنكار الكتاب التقديميين .
- ٧١ - الكتاب الذهبي ليوبيل القنطف الحسني ، ص ١٢٦ .
- ٧٢ - د . هاشم ياغي ، ملامح المجتمع اللبناني ، ١٠٠ ، ص ١٨ .
- ٧٣ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ .
- ٧٤ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ .
- ٧٥ - علي حاج بكري ، مصدر سابق ، ص ٢٥ .
- ٧٦ - علي حاج بكري ، مصدر سابق ، ص ٢٨ .
- ٧٧ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٩٨ .
- ٧٨ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٩٩ .
- ٧٩ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ٢٠٠ .
- ٨٠ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ٢٠٢ .
- ٨١ - ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ٢٠١ .
- ٨٢ - جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة ، (بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٥٥) ، المجلد الثالث ، ص ٢٤٣ .
- ٨٣ - د . هاشم ياغي ، مصدر سابق ، ص ٩٦ وما بعدها .
- ٨٤ - عبد الحميد الزهراوي ، "الأفراد والجماعات" ، مجلة الانسانية .

الفصل الثاني

الرجل

في فترة عصيبة من أواخر القرن الماضي ، والبلاد مازالت تلملم جراحات الأحداث الأليمة التي عصفت هنا وهناك من أنحاء سورية ، وحيث الأطماع الأوربية لا تكاد تخفي أهدافها ، ورغبتها الجاحقة في السيطرة على الوطن العربي ، واقتسام ما كانوا يسمونه (تركيا الآسيوية) وفي عام (١٢٨٨هـ - ١٨٧١م) ولد في مدينة ابن الوليد للسيد محمد شاكر بن ابراهيم الزهراوي ولد ذكر هو الرابع بين أخوته الذكور سماه عبد الحميد ، ربما تيمنا باسم أقوى رجل في الدولة آنذاك . مالبث أن استوى على عرش السلطنة باسم السلطان عبد الحميد الثاني : ولم يكن أحد يتوقع أن يكون الفتى الناشئ عبد الحميد من أعتى مناوئي ذلك السلطان المستبد ، ومن الذين يقوضون عرشه . فقد كان هذا السلطان الطاغية من أمكر وأعتى السلاطين العثمانيين ، وإن كان مكروه وعتوه لم يستطيعا شيئا أمام ثقل التركة التي ورثها ، فوجه مكروه وعتوه في الاتجاه الخاطئ تماما ، فسلط زبائنه على المواطنين ، فلم يرعوا في هولاء إلا ولاذمة ، وساموهم سوء العذاب ، وأذاقوهم من الظلم ألوانا ، فكان الناس على حد قول الزهراوي بعد ذلك يخشون من الجدران أن تنم عليهم ، ويشكون في كل أحد قريبا أم غريبا .

وأسرة الزهراوي ، ينتهي نسبها إلى الإمام حسين بن علي ، وابن السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء ، وأغلب الظن ، أن نسبة (الزهراوي) مشتقة من اسمها (الزهراء) عليها رضوان الله تعالى ورحمته .

وعندما بلغ الزهراوي السادسة من عمره ، وضعه والده في كتاب (الشيخ ترك) ، حيث تعلم القراءة والكتابة والحساب واللغة التركية على يد صاحب الكتاب الشيخ (مصطفى الترك) . وبعد ذلك نقله أبوه إلى المكتب الرشدي " فأتقن وبرع في دروسه حتى أتمها ، ففاق أقرانه وتقدم رفاقه وأترابه ، وكان في خلال تحصيله موضع الإعجاب بتؤدته وترويه ، وحسن خلقه وتحصيله " (١) .

وبعد أن حصل على شهادة التحصيل من المكتب الرشدي ، بدأ يدرس العلوم المختلفة على رجال العلم في حمص ، فقرأ العربية وعلومها وفنونها المختلفة على ثلة من شيوخ بلده ، وتلقى الفقه الحنفي على يد الشيخ (حسن الخوجه) . وتلقى الحديث والتفسير والعقائد على يد محدث زمانه الشيخ الشهير (عبد الساتر أفندي الأتاسي) ، وقد أجازته شيخه بقراءة الحديث وروايته . وقرأ الأصول والكلام والمقول على الشيخ (عبد الباقي الأفغاني) . وكان (عبد الحميد الزهراوي) معروفاً بالاجتهاد والدأب على المطالعة والدرس حتى وصل شأواً قصر عنه أقرانه وزملاؤه .

وفي أوائل العقد الثالث من عمره (١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م) سافر إلى الأستانة بقصد السياحة فأقام فيها مدة وجيزة ، سافر منها إلى مصر، حيث نزل ضيفاً على نقيب الأشراف فيها (السيد توفيق البكري) ربما بحكم انتسابه إلى العترة الكريمة . وهناك أتيح له الاتصال بكثير من الأدباء والفضلاء والعلماء ، من رواد (دارة البكري) فكان موضع إعجابهم وتقديرهم وتشجيعهم .

وكان لرحلته هذه ، وما تخللها من مشاهدات ولقاءات ، أثر بالغ في توجهاته على الصعد المختلفة . فقد لمس حاجة البلاد إلى الإصلاح ، وأتيحت له فرصة الاتصال بدعائه ، لاسيما جمعية (حزب) (الاتحاد والترقي) ، وكانت تسمى (جمعية الشورى العثمانية) (*) فتبنى أفكارها ، وأيد توجهاتها ، بدليل أنه ما إن عاد إلى حمص مسقط رأسه حتى بدأ يصدر جريدة (النير) " التي كان ينشر في كل عدد منها مقالات في الإمامة وشروطها ، وينتقد أعمال الحكومة الجائرة ، منبهاً لها على سوء العاقبة إن دام هذا الجور والعسف " (٢) . وكان يطبع جريدته على مادة غروية (الجلاتين) على حسابه ، ويرسلها إلى البلدان المختلفة بواسطة البريد ، وقد حاربتها السلطات ومنعت تداولها .

وفي عام (١٣١٣هـ) سافر مجدداً إلى الأستانة ، بقصد التجارة هذه المرة ، وأخذ لنفسه متجراً في منطقة (سلطان أوطه لر) . ولأن استعداده لا يلائم التجارة ، ثقلت عليه أعباؤها ، فهجرها ، وانصرف إلى البحث والتحصيل والاطلاع ، وصار من زوار المكتبات العمومية الدائمين ، حيث عكف على قراءة أغلب كتبها ، لاسيما الكتب المترجمة ، التي تبحث في الاجتماع والسياسة والتربية ، وقد بدت آثار هذه المطالعات فيما كتبه بعد ذلك ونرجح أنه قد قرأ (مونتسكيو) لاسيما (روح القوانين) و(جان جاك روسو) ، وأنه قد اطلع على ما ترجمه وكتبه كل من (خير الدين التونسي) ، و(رفاعة الطهطاوي) ، لأن روح هؤلاء وأفكارهم ، ماثلة في كتاباته ، وخطاباته ، وإن كان من عادة كتاب ذلك الزمان عدم الإشارة إلى المصادر التي استفادوا منها ، ولعل هذا ما يفسر التشابه الكبير في آراء معظمهم نظراً لوحدة المصادر التي

* وكان من أعضائها الزهراوي ورفيق العظم - حقي العظم - رشيد رضا - محب الدين الخطيب .

أخذوا عنها . وبذلك يكون الزهراوي قد أضاف إلى ماتلقاه في بلده علوما ذات نكهة أخرى مختلفة . وفي أثناء وجوده بالأستانة ، اتصل به صاحب جريدة (معلومات) التي كانت تصدر هناك ، وكلفه بتحرير القسم العربي من الجريدة . وبذلك أتاحت له فرصة ذهبية للعمل حيث يحب ، إذ أنه كان قد تعلق بالسياسة والصحافة والإصلاح .

فبدأ يحرر المقالات في الأدب والسياسة والإصلاح ، وأهم ما يميز كتاباته - كعاداته دائما - الجرأة والصراحة وتغليب العقل والمنطق . ثم حدث أن غضبت الحكومة عليه ، ولم تعد تحتفل انتقاداته فاستغلت حادثة معينة . فأوقفته ثم حاولت استمالاته بتعيينه قاضيا لأحد الألوية فلم يقبل ، وبعد أن قضى حوالي الأربعة أشهر في التوقيف ، أرسلته السلطة (مأمور اقامة) (*) . إلى دمشق وأثناء وجوده في الإقامة الجبرية في دمشق الشام ، كتب رسالة في الإمامة ، وبيّن شروطها ، ونشرها في (المقطم) . ورسالة في الفقه والتصوف ، نشرها في (المنار) ثم جمعها في كتاب مستقل . وقد دعا في هذه الرسالة الأخيرة إلى الاجتهاد ، ومحاربة التقليد ، واعتبر الفقه قوانين تصلح لزمانها ومكانها ، وأن لكل قوم أن يوجدوا من القوانين ما يناسب زمانهم ومكانهم ، وأنه ليس لهذه القوانين أية قداسة ، إنما هي من عمل الإنسان ، وضعها لتناسب مصالحه ورفقه . وهاجم الصوفية وبيّن خطرهما على الدين والوطن ، بأسلوب حاد ، ملؤه التهكم والثورة والجرأة . " ولا شك أن حرارة اللهجة والنقد التي نلمسها في أقوال الزهراوي كانت شديدة الوقع على فقهاء الشام ، ومتصوفته ممن انتشروا انتشارا واسعا ، وكان لهم تأثير قوي في الجماهير . وهي إن كانت لا تخلو من بعض الحدة ،

* مأمور اقامة : تعني باصطلاح زماننا (التوقيف السياسي) والاقامة الجبرية .

الا إن هذه الحدة نفسها هي التي كان ينبغي أن يتسلح بها رجل يقوده مصيره نحو العمل والفعل " (٣) . " وقد كتب الزهراوي رسائله الإصلاحية الثلاث . في الفقه والتصوف - وهو في دمشق والشام تحت المراقبة السياسية . . . وقد كانت هذه الرسائل أشد مما كنا نكتبه في موضوعها نقداً على سعة الحرية هنا (مصر) ، وشدة الضغط هنالك . فهاجت عليه حملة العمام في دمشق . وأشد ما أنكروا عليه فيها ، القول بالاجتهاد وبطلان التقليد " (٤) . فقد هاجت هذه الرسالة الجامدين والحشوية وكادوا أن يوقعوا بالزهراوي ، ويفتكوا به ، حيث أغرو العامة به ، وأثاروهم عليه ، في خطب أحد أيام الجمعة في شهر رمضان ولم ينقذه منهم إلا التصرف السريع الذي قام به الوالي (ناظم باشا) ، حيث سارع فجلب الزهراوي ، وأوقفه . أي حبسه حبساً سياسياً . ثم عقد مناظرة بينه وبين من اتهموه بدينه وإيمانه ، كانت حجته هي الظاهرة والداغة . ولما لم تفلح دعوى اتهامه بالزندقة والارتداد والمروق من الدين ، أثاروا عليه تهماً سياسية ، وتوجهوا بدعائهم، إلى العاصمة مباشرة ، لإحراج (ناظم باشا) . وكان رجال السلطنة وزبائنها ، وراء هذه الاتهامات ، فأرسل إلى الأستانة ، ولم يكن سبب ذلك التشديد عليه ، غير من الحكومة على الفقهاء والصوفية، ولا إرضاء لعصبية الحشوية الجامدين في الشام ، وإنما سببه الباطن ، أنه كان قد نشر في (المقطم) مقالة عن الخلافة ، وهذا ما أشار إليه الأمام (محمد عبده) بقوله " . . . ألم يسمع بأن رجلاً في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية ، كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد ، وذهب فيه إلى ماذهب إليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالاً يبين فيه رأيه في مذهب الصوفية ، وقال أنه ليس مما انتفع به الإسلام بل قد يكون مما رزئ به أو ما يقرب من هذا ، وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله . فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه

هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأتواب العباب ، وقالوا أنه مرق من الدين ، أو جاء بالآفك المبين مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارئ أو الكاتب ، ولا الأكل والشارب " (٥) .

وبعد أن وضع في الإقامة الجبرية عدة أشهر ، كان خلالها تحت مراقبة جواسيس السلطة أرسل (مأمور إقامة) إلى بلده (حمص) ، عن طريق الأسكندرونة - حلب - حماه - حمص . وخصص له راتب شهري قدره (٥٠٠) قرش بعملة ذلك الزمان . ولم يستطع الزهراوي الصبر طويلاً على هذه الحال ، وأبت نفسه التواقة إلى الحرية أن تظل رهينة جواسيس أفضاظ جهلة ، ففر هارباً في عام (١٩٠٢م) إلى مصر ، عن طريق (طرابلس) عساه يجد هناك متنفساً لأفكاره وطموحه ، رغم نصيحة الإمام محمد عبده له بعدم الجحى إلى مصر والبقاء في سورية كما يتبين من نص الرسالة التالية التي أرسلها الإمام للزهراوي والتي يتبين منها وجود مراسلات بينهما : " ولدنا الفاضل ، تمنيت لو تمتعت بقربك ، كما قدر لي المتاع بأدبك ، ولكن أحمد الله الذي يرينا ما نختار ، في غير ما يقع عليه الاختيار فانت حيث أنت ، أنفع ما تكون لقومك ، فجعل لهم حظاً من عمل يومك ، ترحزح عن أبصارهم حجب الغفلة ، وتعظمهم بما أوتيت من الحكمة ، وتهيء نفوسهم لقبول الحق إذا أقبل ، وتعدّها لمداغة الباطل إذا أظلم . وأسأل الله أن يشد أزرك ، ويحفظ من ذلك وزرك ، ويرفع بعملك قدرك . وأما صلتنا فصلة آمال وأعمال ، وهي خير صلة ، وأوقفها عند الرجال ، بارك الله بك في أيامك ، ورزقك الخير والسعادة في أعوامك . والسلام " (٦) .

وفي مصر أتاحت له فرصة الاتصال برجال النهضة والإصلاح من المصريين ، ومن هاجر إلى مصر من أقطار العروبة

هروباً من ظلم وتعسف الدولة العثمانية . ومن بينهم أصدقاء
للزهرراوي ، ورفاق كفاح سبق واشترك معهم في مواطن كثيرة مثل
حلقة الشيخ (طاهر الجزائري) (*) ، وفي مصر ، اتصل به الشيخ
(علي يوسف) ، وكلفه أن يكون محرراً في (المؤيد) . فنشر
المقالات ذات المواضيع المختلفة ، إلى أن تأسس حزب (الأمة) ،
فانتقل للعمل مع أستاذ الجيل (أحمد لطفي السيد) ، محرراً
ومصححاً في (الجريدة) حيث تابع نشر المقالات ذات الاهتمامات
المختلفة ، والهادفة أصلاً للإصلاح . وبقي في مصر عالماً من أعلام
الفكر والإصلاح حتى عام (١٩٠٨م) ، حيث أعلن الدستور
فطلبه أنخوانه يحمص ليكون مندوباً عنهم في مجلس (المبعوثان) (**)
، فأجابهم حباً بخدمة الأمة والوطن ، فانتخب هو و (خالد أفندي
البرازي) مبعوثين عن لواء حماة . فذهب إلى الأستانة ، فكان صوته
في المجلس من أعلى الأصوات وأقواها في إقامة الحجة (٧) .

وهكذا تبدأ صفحة جديدة في حياة الزهرراوي وتنطوي
صفحة وان كان ما يميزه دائماً ثباته على المبدأ ومقاومته لكل أشكال
الظلم أياً كان مصدرها .

وفي المجلس كانت له مواقف مشهودة ومشهورة ، تدل على
كفاءته ووعيه وصدقه وشجاعته .

* كان من الرجال الأول في هذه الحلقة علماء مصلحون ومؤلفون معروفون : (جمال
الدين القاسمي - عبد الرزاق البيطار - سليم البخاري - ٠٠٠) ثم إتضح بها عدد
كبير ممن كانوا دونهم في السن (رفيق العظم - محمد كرد علي - فارس الخوري
- عبد الحميد الزهرراوي - شكري العسلي - عبد الوهاب المليحي - عبد الرحمن
شهبندر - سليم الجزائري) وقد اشتهروا كلهم فيما بعد .
** المبعوثان : ممي المجلس النيابي العثماني بهذا الاسم لأن كل لواء (محافظة) كان
ينتخب مبعوثين اثنين إلى المجلس .

وبعد أن بدا للعيان نكوص جمعية (الاتحاد والترقي) عن المبادئ التي كانت تبشر بها ، حين كانت في المعارضة واستثارتها بكل السلطات ومصادرتها كل الآراء واستبدادها بالأمر من دون الآخرين وتأسيسها الجرائد ، لتكون أبواقاً لها ، لم يجد الزهراوي ، وهو المتمرس بالكفاح من أجل الحرية والعدالة ، بدا من معارضتها ، والتصدي لها ، ومناقشتها الحساب فأسس مع أحد أصدقائه (شاكر الحنبلي) جريدة الحضارة الأسبوعية ثم لم يلبث أن استقل بها وحده . وشارك بتأسيس (الحزب الحر المعتدل) ، وحزب (الائتلاف) ، ثم اندمج الحزبان في حزب (الحرية والائتلاف) الذي كان يشغل فيه منصب وكيل الرئيس . وقد كان الزهراوي بحق ، بطل دور الحرية (مرحلة ما بعد الدستور) " ولقد يمكن أن يذهب بنا الاعتقاد إلى أن (الروح العربية) الحديثة قد تجسدت في وعي هذا الرجل ، وأن التوتر الأقصى لحركة الفكر العربي الإسلامي الحديث قد وجدت فيه أقوى حامل ، وأصدق عامل ، لقد كان حياة متحفزة متوثبة ، وطاقات واعية متدفقة ، وطموحاً لا يعرف الحدود ولا الكلل ، وأملاً يداعب النفس والعقل ، ويتحرق لإدراك الطلبة الكبرى ، التي سقط عندها حيث سقطت ولكن بعظمة ومجد " (٨) .

وكان في مقالاته في جريدة الحضارة ، وفي خطبه في المجلس ، وفي المهرجانات والمناسبات المختلفة ، يعتمد على النقاش الهادئ ، والمنطق الرصين ، والتعقل الذي كان يسميه اعتدالاً . وكان زملاؤه يلومونه أحياناً على اعتداله وترويه ، في حين كان الاتحاديون يعجبون من اعتداله ، مع معرفتهم أنه من أشد معارضيه وأثبتهم ، ولعل ما ذكره (مكسيم رودنسون) في إحدى المناسبات ينطبق تمام الانطباق على الزهراوي وذلك حين يقول " فليأخذ على المؤلف بروده الظاهري ، أولئك الذين لا يعرفون أن

البرود المقصود هو الدرجة القصوى ، لوجدان عارم الحماسة ، من أجل بلوغ هدفه " (٩) .

وفي فترة عضويته في مجلس (المبعوثان) ، حدث الهجوم الإيطالي على ليبيا ، وسقطت (طرابلس الغرب) بيد الإيطاليين ، فوقف الزهراوي على منبر المجلس ، وألقى خطبة رائعة ، " فهيج الحواطر ، وحرك السواكن ، ثم أجهش بالبكاء ، فقال له بعض الحاضرين من المبعوثين :

لاتبك فإننا سنستردها . فقال : أنا لأبكي على (طرابلس الغرب) ولكنني أبكي على الروملي وسورية والحجاز والعراق" (١٠) . مما يدل على شفافية تفكيره ، وصدق حدسه ، وتفهمه لمنطق الأحداث التي كان الاتحاديون يوجهونها بتعصبهم ورعونتهم وغفلتهم وتقاعسهم عما كان يديره الأوريون وربما بالتآمر معهم . ومما يدل على تفهمه لمنطق الأحداث ، ماجاء في رسالة له إلى صديقه الإمام (محمد رشيد رضا) حيث يقول : " لقد كشفت أوروبا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة العثمانية وقررت التداخل في سائر شؤونها وانما لايزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم . . . " (١١) .

وسنجد عند بحثنا في الفكر السياسي عند الزهراوي ذلك المدى من الوعي الذي وصل إليه والذي كان يرغب أن يرتفع إليه كل أبناء وطنه .

* وهي مادة تتعلق بتنظيم العلاقة بين مجلس النواب (المبعوثان) ومجلس الوزراء (النظار) وكيفية حل الأمور في حال وقوع الاختلاف بينهما
** بنح منافسه وصفي الأناسي .

وعندما تم حل مجلس (المبعوثان) إثر الخلاف الشديد حول
المادة / ٣٥ / من القانون الأساسي (الدستور) * .

عاد الزهراوي إلى بلده حمص استعداداً للانتخابات القادمة
ولكن الحكومة كانت قد أوصت بعدم إعادة انتخابه وجرت
الانتخابات في ظروف سيئة دفعت الكثيرين إلى عدم الإدلاء
بأصواتهم ولم ينجح الزهراوي بطبيعة الحال (**).

فعاد إلى الأستانة لمتابعة عمله في جريدته ولما رأى شدة اعتماد
الاتحاديين على مجلس (المبعوثان) أراد أن يحاربهم بأسلوبهم فشكل
حزبه ائتلافاً مع حزب (الأهالي) ، واستطاعوا أن يضموا اليهم الكثير
من الضباط والنواب ، وأن يظفروا بالحكومة ، ويجبروها على
الاستقالة وتشكلت وزارة (مختار باشا) ثم وزارة (كامل باشا) ،
وكانتا وزارتين وإن لم تكونا من الاتحاديين إلا أنهما ليستا من
الائتلافيين كذلك ، مع أنه كان بإمكانهم تشكيل الحكومة من
حزبهم وحزب الأهالي حليفهم ، وربما يكون هذا أحد أخطائهم .
ولكن الاتحاديين لم يكونوا ليرضوا عن إبعادهم عن السلطة بسهولة
، وكانوا على استعداد لفعل أي شيء في سبيل العودة إلى الحكم
، وكان كل شيء يدل على أنهم يدبرون أمراً ما ضد الوزارة
الائتلافية ، وهذا ما قاله أصاقاء الزهراوي له عندما زارهم في القاهرة
(وقد أثبتت الأيام صدق ما ذهبوا إليه إذ تبين أن حرب البلقان
وهزيمة الدولة فيها كان من فعل الاتحاديين لإحراج الحكومة
وإسقاطها ومن ثم العودة إلى الحكم . ولكن الزهراوي اعتقد أن
الامة لن ترضى عن أي تصرف من قبل الاتحاديين ، وأنها ستسقط
أي تحرك من قبلهم ، ولم ينزل عند رأي أصدقائه بالبقاء في القاهرة
ريثما تمر العاصفة الابداع الصداقة ^(١٢) . . ولولا ذلك لبطش به
الاتحاديون كما فعلوا بناظر الحرية حين أسقطوا حكومة (كامل
باشا) ، مستغلين حرب البلقان التي نشبت أيام وزارة (مختار باشا) ،
والهزيمة التي لحقت بالدولة خلالها .

وأثناء حرب البلقان ، تشكل في القاهرة حزب (اللامركزية) ، ولم يدخل هو في هذا الحزب (رغم أن المشهور غير ذلك) ، وسبب عدم انتسابه للحزب أنه كان لا ينوي الإقامة في مصر

" إنما رشحه حزب (اللامركزية) لرئاسة المؤتمر العربي (الأول في باريس) لمكانته العلمية والاجتماعية ، وموافقته للحزب في مقاصده الإصلاحية ^(١٣) ، (وسنعود لهذا المؤتمر في مكان آخر من البحث) وبعد مؤتمر باريس وصدور مقرراته حاولت الحكومة العثمانية الالتفات على هذه المقررات فأرسلت مندوبين من قبلها لباريس ، ولكنهما عادا خائبين ، ثم عادا مرة أخرى إلى باريس حاملين وعودا بتنفيذ الإصلاحات ، وتعيين الزهراوي عضواً في مجلس (الأعيان) ^(*) . وهو الأمر الذي أثار عليه الرأي العام ، مع أنه لم يقبل (المنصب) كما سوف نرى إلا إيماناً منه بأنه سيكون أقدر على متابعة تنفيذ القرارات من جهة ، وإلا بعد أن تأكد من النوايا الأوربية عامة ، والفرنسية خاصة ، تجاه بلده ، وإلا بعد أن خبر دخيلة الكثيرين من أعضاء المؤتمر ، لاسيما بعض أعضاء وفد بيروت كما سيتبين لنا خلال البحث ولم يكن الزهراوي " من أهل الأهواء الذين يجعلون مصلحة الأمة والدولة تبعاً للأغراض ، وعرضة للعواطف والأحقاد ، بل كان يحب العمل المبني على القواعد المعقولة ، والرغائب المأمولة " ، ^(١٤) وقد كتب إلى صديقه (محمد رشيد رضا) ، وإلى مكتب حزب اللامركزية في القاهرة مبرراً سبب قبوله للمنصب فأقره " لأن غرض الحزب الإصلاح لا المشاغبة ولا عداوة الدولة " ^(١٥) وقد أدى قبوله لمنصب (الأعيان) إلى بلبلة في الرأي العام سببها ظن بعض قصيري النظر ، وبعض المغرضين وبعض

* لم يكن الزهراوي الوحيد من رجال الإصلاح الذي عين في مجلس الأعيان بعد مؤتمر باريس كما قد يتبادر للذهن .

الانتهازيين أن الزهراوي سار وراء منافع الشخصية ، وباع القضية العربية لجلاوزه الاتحاديين " . وكثر القول بأنه تحول عن سيرته التي كان عليها طول عمره ، فأثر منافع الشخصية على مصلحة أمتة العربية ، فتحول ذلك الجمهور الذي كان ينوه به ويصفق له ، إلى الخوض فيه . ولو كان عقل الجمهور يدرك كنه تلك الفضائل التي (وصفناه بها) بحق لما صدق أن مثله يتحول بعد هذه السن إلى ضد ماثبت عليه أول نشأته ، وما الذنب على العامة في ذلك وإنما الذنب ذنب خرواص الأذكياء والمتعلمين الذين سارعوا إلى الخوض فيه فتبعتهم العامة . . . فإن أول نتائج الطعن في مثله - وقل أن يوجد مثله في طهارة سيرته الشخصية والسياسية . هي زوال ثقة الأمة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين . وما أولئك الطاعنون إلا حاسد يذم من الزهراوي ما يمتنى مثله لنفسه ، أو نفعي ساء ظنه لسوء نيته وفعله ، أو غيور شديد العصبية قليل الروية يبادر إلى إرضاء حميته ولا يحسب حساباً لعاقبة قوله وعمله " (١٦) . " ولو كان الزهراوي من طلاب المنافع الشخصية ، لأمكنه أن ينال منها في عهد (عبد الحميد) ماناله من كانوا دونه من أرباب الأفكار ، وحملة الأقلام ، الذين استمالهم السلطان (عبد الحميد) وأعوانه ، وغمروهم بالأموال والرتب وأوسمة الشرف . ولم يكن جهاده القانوني (الدستوري) للاستبداد الذي انقلبت إليه جمعية (الاتحاد والترقي) بعد الدستور ، بأضعف من جهاده للاستبداد الحميدي مع الجمعية في إبان صلاحها ، ومع غير الجمعية أيضاً . . . ولو كان من طلاب المنافع الشخصية ، لنال بمسايرة (الجمعية) منها ، ما كان يعلم أنه لا يناله بمعارضتها . وحملة القول : أنه بدأ حياته بخدمة الأمة والدولة ، وثبت على ذلك طول حياته . وإن جل عمله كان مع جمعية (الاتحاد والترقي) فهو بعد تلك المعارضة في زمن المبعوثية ، اعتقد أن الدولة صارت بيد الجمعية ، وأنه لا يوجد في الأمة حزب

يرجى أن ينتزعها منها ، فلم يبق طريق لخدمة الدولة والأمة إلا طريقها .

وهذا الاعتقاد هو الذي حمله على قبول منصب مجلس الأعيان" (١٧) .

وقد كان الزهراوي على وعي تام بذلك طول حياته ، فقد كتب يرد على من يتهم المعارضة - وقد كتب عليه أن يكون دائماً كذلك - بأن معارضتهم ليست إلا وسيلة لنيل المناصب ، فقال : " نقول لهؤلاء أن المناصب والمساند إلى هذه الساعة إنما تلتمس بمماشاة آباء المملكة لا بمعارضة أفكارهم ، ومقاومة رجائهم ومحاسبيهم " (١٨) . بل أنه ليسخر من أذعياء الإصلاح ، الذين يربطون بين الإصلاح وبين المناصب ، فإذا جاءت المناصب جاء الإصلاح كما سوف نتعرض لذلك في مكان آخر . ولا يعقل أن يكون الذي كتب مثل هذا الكلام ، أثناء وجوده في باريس أو بعيد ذلك ، يكون هو نفسه ضحية له . خاصة وأن سيرته السياسية تكذب مثل هذا التوجه . ثم إن من أهم أو أكثر الذين أثاروا الشغب حول قبول المنصب كان (حقي العظم) ، وقد أثبتت الأيام سبب شغبه ، إذ كان يعد نفسه ليحسن استقبال الفرنسيين في بلاد الشام ، وقد كافأه الفرنسيون على خدماته .

وقد نشرت مجلة (المنار) رسالة سرية من الزهراوي إلى صديقه (محمد رشيد رضا) ، فيها الكثير من المعلومات التي سنرجع إليها في أماكن أخرى من هذا البحث ، وفيها يحاول الزهراوي أن يبرهن على جدوى قبول المنصب ، لآمن دوافع شخصية ، بل من دوافع نضالية - حسب اجتهاده - ويعلق الإمام (محمد رشيد رضا) على ذلك فيقول : " من هذا الكتاب وكتب أخرى ، يعلم رأي الرجل الذي بنى عليه اجتهاده ، ومنه أنه مؤمن بحسن نية الاتحاديين

وتمنيهم الاتفاق مع العرب ، وبهذا كان يحاول إقناعنا . ولم يكن يخفى هذا على الاتحاديين ، ولذلك نجزم بأنهم قتلوه ، لأنه من أنجب نجباء العرب ، لالذنب آخر " (١٩) .

وكلنا يعلم أن التهمة التي أدين بموجبها ، هي وجود برقية حزب اللامركزية ، وفيها إقرار الحزب للزهرراوي على قبول منصب الأعيان ، من بين ما وجد من أوراق ووثائق في القنصلية الفرنسية فالذي يصر على اتمام الزهرراوي لقبوله منصب الأعيان ، لابد أنه غير مطلع على أن حزب اللامركزية قد وافقه على ذلك ، وأقره بعد أن إقتنع بوجهة نظره ، ولو من باب فسح المجال لتجربة وجهة نظره ، وهو إقرار لم يتم عن طريق الرسائل الشخصية فقط كما ذهب إلى ذلك الدكتور (عبد الكريم غرايبة) في كتابه (العرب والعثمانيون) ، إنما حضر الزهرراوي بنفسه إلى مصر ليدافع عن وجهة نظره ، حيث دارت مناقشات طويلة بينه وبين أركان حزب اللامركزية ، لاسيما (محمد رشيد رضا) ، الذي يقول : "لأنني لم أكتف بما دار بيني وبينه - قدس الله روحه - من المعاتبات في هذه المسألة ، بل دعوته إلى زيارتنا في القاهرة بمصر ، فأجاب وكنت أعقد معه مجلسين للمناقشة في كل يوم وليلة ، فرأيته بعد ذلك كله معتقداً أن الاتحاديين عازمون على ارضاء العرب ، وأنه يجب مسaire العقلاء مناهم على ذلك ، وأنا نال منهم بهذا من الحقوق ما لا يرجي أن نناله بالسعي مع محافاتهم . وقد وافقته على بقاءه في منصب الأعيان " (٢٠) .

وإذا كان لابد من تعليق أخير حول هذه القضية ، نقول إن قبول الزهرراوي للمنصب لم يكن بدافع شخصي ، ولا يعتبر نكوصاً عن النضال أو تخففاً من أعبائه ، إنما كان نتيجة اجتهاد بنائه خاصة على مارآه ولمسه أثناء انعقاد المؤتمر العربي في باريس ، حيث اقتنع

بما لا يقبل الشك أن البعض يعمل باسم الإصلاح ، وبتوجيه من الأوربيين ، على تفكيك الدولة العثمانية وفتح سورية أمام المخططات الفرنسية " إن الدسائس الأجنبية رقيقة ناعمة ، تنفذ في كل منفذ ، وتسري في كل مسرى ، فهي قد تدخل تحت طيات لباس الحق ، وضمن تفرقات شراب الصداق ، حتى إذا استحكمت في موقعها ، وتمكنت من نفث سمها ، فعلت فعلها ، وأنتجت نتيجتها " (٢١) . لذلك آمن أن أفضل الطرق للوقوف في مواجهة هذه المخططات ، يكمن في إعادة اللحمة بين شعوب الدولة العثمانية ، لاسيما بين الترك والعرب ، على أساس من الإصلاح والعدالة واللامركزية ، وقد ظن أن الاتحاديين يتخلون عن غطرستهم وتعصبهم ، بعد أن بدأت تتكشف الممارسات الأوربية ، وتعلن عن أهدافها بوضوح . ولكن الزهراوي أخطأ بحسن ظنه بهؤلاء الاتحاديين ، الذين كانوا دائما يقدمون مصلحة حزبهم وجنسهم على كل مصلحة أخرى ، حتى لو كانت مصلحة الدولة نفسها . وكان من المفروض أن يعي الزهراوي هذا الدرس ، وهو السياسي المحرب والمحنك ، خاصة وأن هذا الدرس تكرر أكثر من مرة ، ليس آخرها حرب البلقان .

وفي خضم الحرب العالمية الأولى ، أرسل واحد من أشهر رجال جمعية (الاتحاد والترقي) ، وأكثرهم تعصباً وحقداً على العرب ، ليكون قائداً للجيش الرابع ، والذي مقره دمشق ، هذا الطاغية هو (أحمد جمال باشا) وزير الحرية ، والذي عرف فيما بعد باسم (جمال باشا السفاح) . وقد حاول هذا المتعصب في البداية أن يكسب العرب إلى صفه ، ويستميل رجالاتهم بالوعود البراقة الكاذبة ، فأعلن أنه مؤيد لمطالبهم ، ودعا (تمويها) لقيام تعاون وثيق بين العرب والترك باعتبارهما جناحي الدولة ، وصار يحضر

الاحتفالات ، ويلقي الخطب الحماسية الإصلاحية ، الأمر الذي يذكر (بنابليون بونابرت) عشية دخوله القاهرة ، وإعلانه اعتناق الإسلام - خداعا ومكرا - .

ولكن أمور الحرب لم تسر على مايرام بالنسبة لجيوش الدولة العثمانية عامة ، وللجيش الرابع خاصة، لاسيما مايتعلق بفشل حملة السويس (سفر برلك) . حيث جن جنون (أحمد جمال باشا) فراح ييحث عن ضحية يحملها أعباء الهزائم المرة التي مني بها ، ولم يجد أمامه غير العرب بطبيعة الحال . فعاد إلى (دفاتره القديمة) ، ووجد قضية ماكان قد تم اكتشافه عرضا من منشورات ورسائل في مبنى القنصلية الفرنسية بدمشق ، حيث أضررها في نفسه يومها وادخرها ليوم موعود ، ولما جاء هذا اليوم، نصب المجلس العربي في (عاليه) ، وقدم إليه رجالات العرب ليواجهوا محكمة صورية ، الحكيم معروف فيها سلفاً . وحكم هذا المجلس السوري على العديد من رجال الإصلاح بالاعدام .

أما بالنسبة للزهرراوي فقد جلب من العاصمة ليواجه مصيره المحتوم ، وليس له من جريرة إلاّ حبه لأمته العربية ، وإخلاصه للدولة ، وحلمه بأن يصبح للعرب وغيرهم من شعوبها حقوق متساوية ، وهذا أمر لم يكن ليرضى به عتاة العنصريين الأتراك ، فشنع في السادس من أيار عام (١٩١٦م) مع شهداء القافلة الثانية ، بعد أن ألحق اسمه إلحاقاً بهذه القائمة ، ودون أن يقدم للمحاكمة ، وكل ذنبه وجود برقية حزب اللامركزية التي تقره على قبول منصب الأعيان ، ووجود رسالة من أمام اليمن يوصيه فيها بأحد الموظفين الأتراك خيراً ، ضمن ما وجد من أوراق في مقر القنصلية الفرنسية ، وهي كما لا يخفى لاتدين ولاتشين الزهرراوي من قريب أو من بعيد .

وبذلك يكون شهيدنا قد ختم نضاله بتقديم روحه الطاهرة على مذبح الحرية والكرامة . وقد كان في شئنه عبرة لكل من يعتبر، فلم يغن عنه اعتداله ، ولم يغن عنه أن كفاحه كان بالمنطق والرأي والعقل والحجة ، لأن شائقه شأنهم شأن كل طاغ ومستبد لا يتحمل النقد ولا يرضى به . وإذا كان اتبع طريق العقل والمنطق ، فعن إيمان وثقة بعدالة القضية التي يدافع عنها ، وليس عن ضعف أو تراجع .

وقد عرفت الجماهير العربية قيمة الرجل مرة أخرى ، وكان لإعدامه أثر بالغ في النفوس في الشرق والغرب .

فإذا كان الامام (محمد رشيد رضا) يواسي النفس لفقده بأن الكثير من أتباعه قد ضحوا معه ، فإن العرب في المهاجر ، قد أقاموا حفلات التأبين للإشادة بذكوره وفضله وفكره وإخلاصه . ولعل من الغريب والطريف أن نذكر هنا أن السيد (راشد نداف) المهاجر الحمصي ، والذي اشتهر باسم (جورج أطلس) ، وزوجه الخطيبة الأدبية (سلوى سلامة) ، وكانا متبني الصلة بالشهيد الفقيد ، عرفاه عن كثب ، واقتبسا من جذوة أفكاره الثائرة ، قد أصدرتا بموازرة كبار الجالية في (سان باولو) ، جريدة أسبوعية باسم (الزهرراوي) ، " أوقفها على نشر مختارات من خطب الزهرراوي الشهيد ، ومقالاته وآثاره وسواها ، وتراجع رفاقه في الاستشهاد ، إلى جانب مجموعة من آراء الأدباء والسياسيين في شهيد العروبة الكبير ، وقد عاشت هذه الجريدة عمراً مساوياً لجريدة الحضارة " (٢٢) . ولا نعرف حفلة تأبينية امتدت على مساحة سنوات ، مثلما أبنت جريدة (الزهرراوي) شهيدنا . وظلت سيرة الرجل ، وصورته حية في أذهان (الحمامصة) المغتربين ، وعندما تأسس النادي الحمصي في (سان باولو) عام (١٩٢١م) كانت صورة الشهيد العظيم

(الزهرابي) وإلى جانبه صورة تلميذه ورفيق كفاحه (رفيق رزق سلوم) تملآن بهو الاستقبال في مبنى النادي .
ومن نافلة القول بأن الأحكام التي صدرت عن ديوان (عاليه) العرفي باطلة شكلاً ومضموناً . باطلة شكلاً لأن (أحمد جمال باشا) نفذ أحكام الإعدام قبل أن ترسل إلى العاصمة لتصدر بشأنها إرادة سلطانية ، ولأن الأحكام صدرت بشأن أعمال تعود إلى ما قبل الاتفاق على الشؤون العربية بين الدولة والمتهمين بالذات .

وباطلة مضموناً لأنها جائرة ، ولا تستند إلى أسس قانونية مقنعة ، فهذا (علي فواد أردن) رئيس أركان حرب (أحمد جمال باشا) يكتب في مذكراته مانصه : " جاء في شهر نيسان المقدم (شكري بك) رئيس ديوان الحرب (بعاليه) وأخبرني أن محاكمة المتهمين قد انتهت ، وأن هيئة الديوان كونت فكرة صحيحة عن القضية ، وهي مقنعة بأن عدد الذين يمكن الحكم عليهم بالإعدام لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة على أكثر تقدير .

... ويكتب بعد ذلك كيف أن (أحمد جمال باشا) كتب على لائحة الحكم المقترحة إعدام إعدام ... ولما قال له رئيس أركانه ، ياباشا أرجوك فكر بالتاريخ صاح به : التاريخ .. فليتحطم التاريخ على رأسك " (٢٣) .

ثم إن ديوان الحرب (بعاليه) قد اعتمد على الوشائيات والاعترافات والوثائق ، وأهم هذه الوثائق ، المنشورات وأوراق حزب اللامركزية ورسائل وأوراق أخرى صودرت من مبنى القنصلية الفرنسية بدمشق وليس في هذه الوثائق كما سبق وذكرنا ما يتصل بالزهرابي (عضو مجلس الأعيان) إلا اثنتين : برقية أرسلها له حزب اللامركزية يفوضه فيها بقبول منصب الأعيان وهذا نصها : " قرر حزبنا باتفاق الآراء قبولكم لعضوية الأعيان واعتمد

الحزب عليكم بأن تكونوا واسطته لدى الحكومة لأجل المطالب العربية الأخرى " والبرقية موقعة باسم (رفيق العظم) .
والوثيقة الثانية كتاب توصية ورد من الإمام (يحيى حميد الدين) من أجل مساعدة أحد موظفي الترك .

بل لعل الأدهى والأمر فيما يتعلق بالزهرابي أن اسمه لم يرد في البلاغ الذي أذاعه (أحمد جمال باشا) عن محاكمة القافلة الثانية ، ولم يقدم للتحقيق ، ولم يحاكم ، وإنما سيق مع الذين سيقوا مساء يوم الخامس من أيار عام (١٩١٦م) ، وأعدم في الصباح ، في ساحة المرجة بدمشق ، وبعد ذلك تداركوا البرقية والكتاب ، وأضافوا اسمه إلى لائحة المتهمين والمحكومين (٢٤) .

وهكذا فقد كانت المحاكمة السورية التي نصبت في (عاليه) مجرد وسيلة دنيئة لاغتيال المثقفين والمستنيرين العرب ، وللقضاء على فكرة القومية العربية في المهد ، قبل أن يشتد عودها ، وتتمرس أكثر بأساليب الكفاح .

بل أن الظن ليذهب بالمرء إلى أن الاتحاديين كانوا بجهلهم أو تأمرهم ، تروسا في آلة الاستعمار الأوربي ، التي كانت تهدف إلى تخطيط وتفكيك الدولة ، واقتسام أرجائها .

وبعد " شتان بين رجل يكد لأمته ورجل لا يكد إلا لنفسه ، فقد كان الشهيد الزهرابي طيب الله ثراه من أبرز العاملين المجددين في خير أمتنا " (٢٥) . وكان واحداً من أخلص زعماء الأمة أخذته النضال ، والعمل السياسي ، وشغله عن أن يكون أحد الحكماء الربانيين ، والفلاسفة الاجتماعيين . وقد عرف باستقلال الرأي ، وصدق القول ، وقوة الإرادة ، والإخلاص في العمل ، وإيثار الحق على الهوى ، وتوجيه الهم والهمة إلى المصالح العامة ، وترجيحها عند التعارض على المنافع الخاصة ، بل لنعلم عنه أنه اشتغل في طور من أطوار حياته لمنافعه الخاصة (٢٦) .

فالتتبع لأطوار حياته ، يجده منهمكاً في العمل السياسي منذ شبابه المبكر ولاحق لحظة في حياته ، ولا أدري كيف يمكن أن يكون المرء بعيداً عن السياسة وحبل المشنقة على بعد سنتيمترات قليلة من رقبتة . والزهرابي في خضم عمله السياسي ، كتب أبحاثاً فلسفية واجتماعية وتاريخية " من ذا الذي لا يلاحظ تأملاته الفلسفية الجادة ، التي كان يحرص على أن يدعم بها أفكاره السياسية والاجتماعية ، ولكنه أبى أن يسير في طريق الفلسفة النظرية ، ليس فقط لأن هذه الطريق كانت - كما خير - عاجزة عن أن توصله بعيداً إلى حقائق النفس الجوهرية ، ومبادئ الوجود القصوى ، التي أعجز البحث عنها الفلاسفة والحكماء ، ولكن أيضاً وبصورة أخص لأنه لاحظ أن لأمة هموماً جوهرية أصيلة ، وقضايا مصيرية عميقة ، وأنها في (بداية إفاقه) تدعوه لأن يفدي في طلابها راحته ، لهذا تحول سريعاً إلى حقل الفعل والعمل ، حيث رأى أن (انتباهة عين الحكمة) متع انتباهة (عين العزيمة) تستلزم فعلاً مباشراً في الأمة . . . ولم يكن للعمل أن يثمر عنده إلا بالسياسة " (٢٧) . لذلك فقد أهمل الزهرابي الاستعداد الذي كان موهباً له ، ووجه كل همه للعمل السياسي الذي له مساس بالمجتمع ، وقضايا الأمة ، وللعمل الاجتماعي الذي له مساس بالسياسة . والفكرة السياسية الاجتماعية التي شغلت الزهرابي ، وكانت عنوان كفاحه السياسي هي فكرة (التربية السياسية) وبث (الروح العمومية) في أفراد الأمة . وأراد أن ينهمك كل فرد من أفراد الأمة بالعمل السياسي وأن يكون على وعي بمجريات الأحداث ، وأن يخرج من دائرة اللامبالاة ، وهي أفكار استقفاها على الأرجح من قراءته (لمونتسكيو) خاصة . " وقد جرت عادة رجال الحكومات أن يدعوا انحصار هذه الممارسة فيهم وحدهم ، وكان الناس يسلمون لهم بهذه الدعوى ، وإذا عابهم عائب بالاستسلام المطلق للحكام

يقولون : نحن لانفهم بالسياسة ، وهم غافلون على أنهم بقولهم هذا يدفعون صك الاعتراف بأن ليس لهم أن يناقشوا الحاكم في شيء ما ، أما الغرب فقد تخلص من هذا العيب . . " (٢٨) .

وإذا كان هناك ما يميز حياة هذا الرجل فهو الثبات على المبدأ ، والصدق مع الذات ومع الآخرين " إذا كان بعض الناس يكتب للكسب أو للشهرة أو للتملق أو لمجرد تسجيل الوقائع ، فقد كان الزهراوي صاحب رسالة جلييلة ، وهدف بين . وكانت شخصية الزعيم المصلح فيه تطالع القارئ قوية ظاهرة خلال الصفحات والسطور . . . وإذا كان من الكتاب في بعض الأحيان من يترك رأياً يأخذ رأياً كما يخلع ثوباً ويلبس ثوباً على حسب الظروف وتقلب المصالح والأزياء فإننا نجد في الزهراوي الكاتب الذي ترتبط أفكاره به ارتباطاً عضوياً ، والمصلح الذي يقدم الرأي ثم يقدم بجانبه الحياة ، ألا ما أحوجنا إلى الكتاب الأحرار " (٢٩) .

وإذا كنا قلنا بأن الحكم بالإعدام على الزهراوي خاصة باطل شكلاً ومضموناً فإن القارئ لكتابات الزهراوي سيلمح إصراره الثابت والمستمر على الوقوف بوجه مخططات جمعية (الاتحاد والترقي) ، وسيشعر بأن حثف هذا الرجل هو الذي يدفعه ويقوده ويوجهه ، فحكم الإعدام كان لإسكات هذا الصوت ، وتطعيم هذا القلم الذي ما انفك ينتقد ويفند ويهاجم دون كلل أو ملل .

وحين صعد الزهراوي إلى منصة الإعدام نظر نظرة إصرار وتحدي إلى وجه ظالميه وقال " إن العناية ترعى وطننا الحبيب ، وإننا سوف نصل إلى الحصول على استقلالنا كاملاً ، بعد أن ننتقم من الخونة الأتراك " (٣٠) وكانت هذه الكلمات المومنة الهادئة آخر عهده بالدنيا .

هوامش الفصل الثاني :

- ١ - أحمد النبهان ، " ترجمة عبد الحميد الزهراوي " مجلة المنار ، الجزء الثالث ، المزمرة ٢١ (١٩١٦م) ص ١٥٠ .
- ٢ - المصدر السابق ، ص ١٥١ .
- ٣ - د. فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ، (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩) ، ص ٣١٠ .
- ٤ - محمد رشيد رضا ، " عبد الحميد الزهراوي " ، مجلة المنار ، ج ٣ ، ١٩م ، (١٩١٦م) ، ص ١٧٠ .
- ٥ - محمد عبده ، الإسلام بين العلم والمدنية ، (القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٦٠) .
- ٦ - د. محمد عمارة ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، الكتابات الاجتماعية ، (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢) ، ص ١٥٣ .
- ٧ - أحمد النبهان ، مصدر سابق ، ص ١٥٣ .
- ٨ - د. فهمي جدعان ، مصدر سابق ص ٣٠٣ .
- ٩ - مكسيم رودنسون ، مقدمة كتاب " الأيديولوجية العربية المعاصرة " مؤلفه عبد الله العروي ، ترجمة محمد عيتاني (بيروت ، دار الحقيقة ، ١٩٨١) ، ص ٥٥ .
- ١٠ - أحمد نبهان ، مصدر سابق ، الجزء الرابع ، ص ٢٠٨ .
- ١١ - انظر : مجلة المنار ، الجزء الثالث ، المزمرة ١٩٠٠ .
- ١٢ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٣ .
- ١٣ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٢ .
- ١٤ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٣ .
- ١٥ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٥ .
- ١٦ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٢ .
- ١٧ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧١ .
- ١٨ - عبد الحميد الزهراوي ، " النظار ، الوزارة الحقية لماذا مكنت أكثر من غيرها " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٧٠ ، ٨ آب ١٩١١ .
- ١٩ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٨١ .
- ٢٠ - محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٨٢ .
- ٢١ - عبد الحميد الزهراوي ، " لاختوف اليوم " ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة العدد ١٢١ ، أغسطس (آب) ١٩٢١ .

* العنوان الكامل : " ترجمة السيد عبد الحميد بن السيد محمد شاكر بن السيد ابراهيم الزهراوي "

٢٢ - نظير زيتون ، " الشهداء الزهراوي وسلوم " ، كلمة ألقاها في مهرجان (الفكر والعقيدة) المنعقد في حمص عام ١٩٦١ ، وقد نشرت مجريات المهرجان في كتاب : مهرجان الفكر والعقيدة لتكريم ذكرى عبد الحميد الزهراوي ، رفيق سلوم ، الدكتور عزة الجندي ، (دمشق - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣) ، ص ١٤٦ .

٢٣ - د . أحمد السمان ، " حول الشهداء " المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

٢٤ - انظر ، المصدر السابق .

٢٥ - مصطفى الشهابي ، " الزهراوي في قافلة الشهداء " مهرجان الفكر والعقيدة ، ص ٢١ .

٢٦ - انظر ، محمد رشيد رضا ، مصدر سابق .

٢٧ - د . فهمي جدعان ، مصدر سابق ، ص ٣٠٤ .

٢٨ - عبد الحميد الزهراوي ، من خطبة الفتح المؤتمر العربي الأول ، وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣ ، كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به ، تقديم ودراسة د . وجيه كوثراني ، الدولة العثمانية وظروف نشأة الحركة العربية ، (بيروت - دار الحداثة ، ١٩٨٠) ، ص ٣١ .

٢٩ - د . نجاح العطار ، " الزهراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين " ، مهرجان الفكر والعقيدة مصدر سابق ، ص ٤٣ .

٣٠ - د . جهاد مجيد محي الدين ، " المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا (١٩١٥ - ١٩١٦) ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٩ ، الجزء الثاني ، ص ٣٨٦ .

الفصل الثالث

الحرية

إن الذي قدر له أن يعيش في اسار حكم مستبد ، يخصصي على الناس حركاتهم وسكناتهم ، ويعد عليهم كلماتهم وخطواتهم ، أما أن يستكين ويلين ، كأن الظلم قدر لامفر منه ، وما عليه إلا أن يستعين عليه (بالصبر والصلاة) وترويض النفس على الذل والهوان ، وأولئك لا يعتد بهم بين البشر ، لأنهم أقرب الى العجماءات المربوطة الى الرحى أو العربات ، لا تتجاوز حياتهم المأكل والمشرب واشباع الغرائز . وأما أن يستغل الظروف ، ويتلاءم مع القوة المستبدة المتحكمة في المجتمع ، ويجعل نفسه سوطاً من أسواطها ، ولعنة من لعناتها ، وأولئك هم المتملقون والانتهازيون والزبانية ، الذين يجعلون أنفسهم آلة من آلات الاستعباد ، وترسا ملحقاتاً (بماكينة) الاستبداد . وأما أن يضع روحه على كفه ، ويبذل كل ما في وسعه ، لإخراج نفسه وإخراج الناس من خضم الفساد والظلم والاستغلال ، وأولئك هم المصلحون والزعماء ، الذين تحسسوا آلام الناس ، فعادوا اليهم ليأخذوا بأيديهم إلى معارج الحرية والعدالة ، وليعيدوا اليهم الثقة بأنفسهم وبإنسانيتهم ، وليزيلوا من أعماقهم الخشية من أولئك الذين جعلوا من أنفسهم آلهة من دون

الله " ماذا تكون عاقبة الأقوام ، اذا ألهموا الحكام ، وتعبدو بدم الحسام ، ألا يستجير الضعاف ويجارون ألا يسرّون بطلب الناس ويجهرون " (١) . فمهمة هؤلاء الرجال المصلحين الاطهار تتأخص بأنهم " يرشدون الأقوياء الى العدل الذي ينفعهم أنفسهم وخيرهم ويرشدون الضعاف الى أسباب القوة التي يدفعون بها ظلم الظالمين " (٢) .

تكمن مهمة المصلحين اذاً في التحرير من القهر والتسلط ، أيا كان مصدره وإعادة المجتمع الى نفسه ، والإنسان الى إنسانيته ، سواء أكان قاهراً أو مقهوراً . فالقاهر عندما يعود الى العدل ينتفع هو نفسه لأنه لا عاقبة للظالمين ، وينتفع المقهور ، فيعرف مكن القوة التي فيه فيطلقها من عقابها ويدفع بها اذى وظلم الظالمين . وهذه القوة الكامنة في أعماق النفوس تحتاج لمن يساعد على كشفها وتعريف أصحابها بها ، ودفعهم للاستفادة منها ، وهذه هي مهمة القادة والرواد والمصلحين " عن قوة النفوس أسألكم لاعن قوة الأبدان التي لن تساوا الفيلة والسباع مهما بلغت فيها . فإن كنتم تجدون هذه القوة فنعم الأحياء أنتم ، وحبذا ما ترزقونه بسبب هذه الحياة من عزة وبقاء . وإن رأيتم أنفسكم بعيدين عنها فتساءلوا لماذا هذا الموت وأنتم أهل ذلك الكتاب (القرآن) الذي أحيى الموتى من قبل " (٣) . ومن واجب كل مواطن أن يبحث عن أسباب القوة التي تفيده هو ، وتفيد وطنه . وبرأيه أن التقصير في حب القوة مرض نفسي واجتماعي " فان امرؤ أتاكم معترفاً بمرضه مستشفياً من دائه فانظروا ماذا ينفعه من العمل ومروه أن يأخذ من العلم ما يلزم لإصلاح العمل . وان كان مهملاً ولم يشأ أن يعمل عملاً صالحاً للنفس والمجتمع فانظروا أن تبيده الأقوياء غير مشاكسين وإن أمة صمدت عن النذر وكفرت بالسنة فالتمسوا منها منة .

كنتم فيها وقوا أنفسكم البوار الهون " (٤) فكأن القوة المقصودة هنا مرادفة تماماً لحقيقة الإنسان والإنسان عندما يجهل قوته ، ثم لا يريد أن يهتدي إليها بل يخشى أن يهتدي إليها يتحلى - في الحقيقة . عن إنسانيته ، ويخالف الفطرة " وإن شئت أن تعرف مبغضي ذواتهم ، فأولئك هم مخالفوا الفطرة التي فطرت عليها النفوس ، وأذعنت لحكمتها العقول ، (الذين لا يعملون في سبيل أن يكونوا أقوياء) أقول هذا ولا أزيدكم شرحاً لتقدحوا زناد ذكائكم ، وتعلموا من أشرنا إليهم بصفاتهم متى رأيتموها في إنسان . . . وزيدوا عليهم طوائف المستعبدين " (٥) . وحتى لا يأس الأفراد الذين تعايشوا مع ضعفهم مدة طويلة ، حين يقارنون ضعفهم بالقوة التي يمتلكها غيرهم ، لابد من تعريفهم بأن في أعماق كل واحد منهم بذرة من القوة بحاجة إلى الرعاية " في كل نفس حبة من القوة، وفي كل قوم بيد من عظيم ، وقد قضى الفاطر سبحانه بالتباين ، فليست الحبة التي في كل نفس من القوة بوزن التي في النفس الأخرى ، ولكن قد تكون البيادر التي في قوم متبايني الأفراد أيضاً ، إذا كانت أعدادهم متساوية أو متقاربة . ولأجل هذا كان الاجتماع والتمدد من أشد ضرورات الإنسان لكيلا يكون الحكم للتوازن الذي بين فرد وفرد لأن النظام يفسد حينئذ " (٦) . وبعد أن يطمئن الأفراد إلى القوة التي في أعماقهم ، والتي تتكامل مع القوة التي في أعماق الآخرين ، ويبدؤون في ممارسة حقوقهم ، في ظل نظام يحترم كل فرد من الأفراد ، ولا يصادر رأيه لأي سبب من الأسباب وهذا ما يخلق المجتمع المتكافل المتضامن الذي يؤمن بالحرية، ولا يتأفف من اختلاف وجهات النظر ، لأنه يدرك أن الطبيعي أن يختلف الناس في تناول الأمور : " لو كان الحق شيئاً محسوساً ، لما كان للأفراد ولا للأقسام مناص من الاختلاف في رؤيته ، لتعدد الجاهلي التي يتجلى فيها ، واختلاف درجات أبصارهم ، وتباين

مواقع أشخاصهم بالنسبة إلى مواقع ظهوره ، فكيف والحق شيء غير محسوس ، وإنما تحوم حوله المدارك ، مستعينة بالتجارب واستقراء النتائج ، التي تؤدي إليها الأحوال ، واختلاف المدارك ؟ ودرجات الاستقراء أمر واقع ، ماله من دافع . . . فالاختلاف أمر طبيعي ، لا يحسن بنا أن نشمئز منه بل يجب علينا أن نسلك فيه أحسن السبل . . . يجب أن يكون لنا فيه أدوية من الآداب والسنن الاجتماعية . يجب أن نعرف أن له درجات ، وأن بعض درجاته ممكن إزالتها سريعاً ، بحسن التفاهم وتقارب الرغائب ، وهو الذي نسميه وفقاً ووثاماً . وبعض درجاته يمكن تخفيفها بحسن التدبير وهو الذي نسميه سياسة " (٧) ، فالحرية التي يجب أن يتمتع بها الإنسان من حيث هو إنسان لأنها جزء من كرامته الإنسانية وجزء من فطرته الطبيعية هي في الحقيقة تحرير لهذا الإنسان من كل أشكال السيطرة والاستعباد وعلى كل المستويات . (فالزهرراوي) يدعو لتحرير الإنسان من كل سلطة تخنق تفكيره ، وتصادر عقله لمصلحة عقول الآخرين وتفكيرهم ، أيا كان هؤلاء الآخرون ، ومهما كانت المكانة التي يحتلونها . وأول ما يجب تحريره منه هو الاستسلام شبه الكامل للأقدمين والذي أدى إلى " تقييد الأبواب واغلاق الأبواب وتقطيع الأسباب وقام مقام سلطة الأرباب وفينا راء وسامع والكل خانع وخاشع " (٨) وهو يدرك أن الذين " فعلوا بعقولهم من تقييدها واسقامها قد أصبحوا لا يرضون عنا إلا أن نفعل بعقولنا كفعلهم أو أشد " (٩) .

وإذا كان البعض يقدسون الأزمنة بقدمها ويستسلمون لعقول من سبقهم وكأن لا عقول إلا عقول الأقدمين يأخذون بأقوالهم (على العمياء) . وكان البعض الآخر يثدركون مابأقوال الأقدمين من الضعف والقصور إلا أنهم يصمتون ويسكتون خوفاً الملامة فإن واجب الإنسان أن يجادل ويناقش ويقول الحق ويتحرر من

سطوة أناس استمدوا قوتهم من مجرد أنهم عاشوا في زمن سابق .
فأول خطورة على طريق تحرير الانسان وتحرره ، اعماله العقل
والتفكير ، فيشعر بذاته ، وبكرامته الانسانية ، ولايفعل فعل أولئك
المستلبين الذين يرمون بعقولهم بين أقدام المتسلطين المستبدين ، أيا
كان هؤلاء " وحاشا لامرئ أوتي ذرة من فهم الحكم في الوجود
أن يسمح باهمال استعداد لم يمنحه الله للعباد سدى " (١٠) .

ومن الواجب أن تعطى الثقة لكل انسان وأن يساعد على
تحرير نفسه من كل الأوثان حتى الطفل الصغير يجب أن يتحاشى
الكبار صبه في قوالبهم الجاهزة ، لأن الأطفال الذين تحرروا من
سطوة الأهل كانوا الأقدر على الشعور بكرامتهم وانسانيتهم " ومن
المشاهد أن الذين خلصوا من هذا الأسر (أسر الأهل) قد بعدوا
بأفكارهم عن أفكار والديهم بعداً شاسعاً ومن العجيب أن هؤلاء
الخالصين من ذلك الأسر على قلتهم وانفرادهم في أممهم كانوا
المغبرين لعادات البشر وأخلاقهم " (١١) وبعد أن يتحرر كل فرد من
أوثان الماضي ، ومن ريقة وأسر العادات والتقاليد ، ويستعيد ثقته
بنفسه وعقله ، يتحول من مجرد فرد في رعية حكومة مستبدة ، الى
مواطن بكل معنى الكلمة ، وبكل مايرتّب على ذلك من
مسؤوليات وفعاليات ، وربما يأتي في مقدمتها المشاركة الايجابية في
صنع القرار السياسي في الوطن ، وعدم ترك ذلك لأية فئة أيا كان
الاسم الذي تنضوي تحته ، وربما يكون في مقدمة مايرتّب على
(المواطنة) مقاومة الكهانة السياسية التي يمارسها أفراد ، أو أحزاب
أو طوائف ، من دون بقية المواطنين متذرعين بحجج متعددة .
فيستبدون بالسلطة ، ويحتكرون العمل السياسي ، ولايسمحون
بأي قدر من المحاسبة ، ولايشعرون بأية مسؤولية أمام الآخرين .
ولم يستطع المقاومة هذه الا أناس تحررت نفوسهم وعقولهم من كل
قيد الا قيد المنطق والحق والمصلحة العامة ، فعرفوا أنه " لاعمى عند

أهل العلم لتعصب (كل) قوم على آخرين بغير الحق الا الاثم والعدوان والبغي والطغيان " (١٢) الذي يجب مقاومته ومحاربتة لأنه لايزول بأسلوب آخر غير أسلوب المقاومة والنضال " تالله لو ظلت الأمم طول دهرها حليفة الشكوى مع عدم روح المقاومة لما زال عن رأسها المتغلبون الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، ويكرهون أن يناقشوا بما يعملون " (١٣) ومناقشة الحاكم الحساب حجر الأساس في العمل السياسي وفي الحرية السياسية التي سعى (الزهرائي) لإيصال الوطن والمواطنين إليها " كان من أعظم ما أهملناه مسأله (نصب الحكومة) تلك المسأله التي اعتنى بها السلف كثيراً ووضعوا أصولها بالسيف والقلم أحسن وضع وخلف من بعدهم خلف أضاعوا كل مقومات الأمة حتى صاروا خولا وعبيدا " (١٤) و(الزهرائي) سياسي مطبوع يكره الاستبداد لأنه يخلق الفكر ويسد عليه المنافذ ويحول دون التقدم والإصلاح الذي هو غاية الغايات " إن الطموح الى الأحسن هو اللائق بالحي والأحسن لا يأتي اذا بطل الانتقاد والانتقاد لا يتيسر اذا صادف من يقدر على الاستبداد فالوقوف أمام منافذ الاستبداد أعظم الأعمال وتأيد الذين يقفون هذا الموقف أكرم الخلال " (١٥) وإقداما منه على أعظم الأعمال بدأ حياته العامة مناضلاً ضد الاستبداد وراح يصدر جريدة (المنير) ويوزعها على الناس أشبه بالمنتشور الثوري الذي يفضح مساويء الحكم الحميدي المستبد . يفعل ذلك في وقت كانت الكلمة فيه ربما كلفت صاحبها حياته " فكان الناس يخافون من الجدران أن تنم عليهم فراحوا يتسابقون في الرياء والسعيد عند نفسه من رأى أنه أجهر الناس وأفصحهم أو أبلغهم في مدح ذلك الحاكم المطلق " (١٦) أما هو فقد رأى في هذا الاستبداد مذلة للوطن والمواطنين ، فهب يكافح ، ويشارك في هدم صرح العبودية ، وهتك الحجب التي نسجت حول عقول وأفكار الناس ، ويحاول أن

يستنهض الهمم ، ويحذر الأمة من عاقبة الاعراض عن الأخذ بأسباب التقدم والتزقي ، الذي هو سنة الحياة والوجود ، لئلا يصيبها ذلك السوط الرباني " الذي يصح أن نسميه عقوبة كونية ، وهو الخطب الذي تحمى به بعض القبائل لابائها الأخذ بأسباب التزقي والاصلاح وإصرارها على عيشة توجب الفساد " (١٧) .

وبعد أن يشارك (الزهرابي) مشاركة فعالة ومتميزة على أكثر من صعيد على اسقاط الحكم الحميدي المستبد يتابع مسيرته النضالية في مواجهة الانحراف وسرقة الثورة - إن صح التعبير - وحرفها عن مسارها على يد جماعة (الاتحاد والتزقي) وكان من أهم ماسعى من أجله دفع المواطنين الى خضم العمل السياسي والوطني فهو في البداية يشجعهم " أن السيئة العظمى التي هي غلبة الاستعباد ، ولا أقول الاستبداد - قد زالت بحول الله ، وأعظم ما علينا اليوم هو سد كل المنافذ التي يخشى أن تعود تلك السيئة من جهتها . نعم إن الروح الذي كان غالباً في ذلك العهد هو روح الاستعباد . . .

لقد أصبح من أبده الأشياء أن يقول الناس أجمعون نحن عبيد السلطان وعبيد الحكومة . وصار أحب الألقاب الى المقربين لقب العبد الخاص " (١٨) الى آخر ما هنالك من مظاهر الاستعباد مع أن الانسان يجب أن يتذكر دائماً بأنه " لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً وبديهي أنه لا عزة مع الاستعباد " (١٩) والعزّة ليست مسألة صورية أو شكلية ، وليست في المظاهر التي يحاول البعض الظهور بها . العزّة الحقيقية هي الشعور بها ، وممارستها ، أما أولئك الذين " كانوا يظهرون أمام الناس عظمهم الأغزاء كانوا في الحقيقة يتحسرون على العزّة أحياناً كثيرة ، وإن علت لهم القصور والشرفات ، لأنهم كانوا لا يأمنون على النعيم

الذي فتنوا به حتى ينتموا على عظيم من آلات الاستعباد " (٢٠) فاذا كانت هذه حال كبراء العهد الحميدي فما بال المواطنين العاديين أنهم " أصبحوا مع الاستعباد يكرهون الحياة كلما أخذتهم هزة من حب الشرف وعزة النفس ، وهذا ما يدعوننا أن نسمي الاستعباد بالسيئة العظمى " (٢١) وقد لاحظ (الزهرابي) مع بقية المواطنين أن إعلان الدستور ، واسقاط السلطان المستبد لم يبدل شيئا من واقع وجوهر الاستبداد . فعزا ذلك في البداية لثقل التركة التي خلفها النظام الحميدي ، وخلص أنه لابد من مرور بعض الوقت ، قبل أن تزول ملامح الاستبداد والاستعباد " فمن كان حسب أن الدستور يعمر الدنيا ويصحح أخلاق الموظفين وغير الموظفين ويعطي قوة عظيمة أمام الأجانب ويشفي الإخاء الوطني من مرضه كل ذلك في يوم أو أسبوع أو عام أو عامين فإنه قد ظن خطأ وسها في الحساب " (٢٢) ولكن الحقيقة كانت غير ما تصوره في البداية فقد كان ثمة استئثار بالسلطة وبالدولة من قبل جمعية (الاتحاد والترقي) تحت ضغط دوافع عنصرية عمياء . وقد أدرك (الزهرابي) بعد لأي أن الإصلاح لا يتأتى من مجرد إعلان الدستور بل لابد من وجود معارضة حقيقية وقادرة تقف في وجه الذين يحاولون شد البساط من تحت أقدام العهد الجديد ، وتوظيفه لمصالحهم العرفية والعنصرية الضيقة " يغلط من يظنون أن الدستور وحده يرفع كل صنوف الاستبداد وإن لم يجد للحق والحرية المشروعة أنصار يقولون ويعملون بمجادلون وينازعون كلا بل لاغنى للشعوب في وقت من الأوقات عن أشخاص يقفون أمام مناف الاستبداد وما القوانين الأساسية إلا مساعدة لهم " (٢٣) ومن هنا كانت وقفته الحادة والجادة في وجه جلاوزة العهد الجديد " أن الذين كانوا يعلمون عبد الحميد دروس الاستبداد ، والذين كانوا يعملون بأمره كل

شيء مما جاز ومما لم يجز ، والذين كانوا من عبيده الصغار ومن عبيد عبيده ، والذين كانوا السعاة والرشاة له بحق الأبرياء ، والذين كانوا يتمنون أن يكونوا من مقبلي أعتابه وخدام أبوابه ، كل هؤلاء رأيناهم يتسمنون مقامات عالية متنوعة في هذا العهد أيضا . رأينا الذين كانوا معروفين بالرشوة لا يزالون في مراكزهم ، والموصوفين بالجهل ما فتئوا في مواقعهم . أما العدد القليل الذين طردوا اذ ذاك ، فقد تبين فيما بعد أنهم لم يطردوا لأنهم جهلاء أو مرتشون ، بل كان ذلك انتقاماً منهم لبعض الأشخاص . ثم تبين أنه من دخل حديثاً في الوظائف هم من قبيل أولئك الذين تقدموا . كان الناس قد سثموا من موظفين مغرورين منفوخين بمن ينتموا اليه من بعض كبار الرجال في العاصمة ، وقد رأينا عدد هؤلاء المنتمين زاد أضعافاً مضاعفة ، إذ فتح لهم باب جديد أوسع من الأبواب السابقة ، وهو باب الجمعية (حزب الاتحاد والترقي) " (٢٤) بهذه الحدة ، وبهذا الوضع الحاسم ، وبهذا الصدق مع الذات والمبدأ ، يستأنف (الزهرراوي) رسالته ، التي هي في الحقيقة مهمة ورسالة كل مصلح وكاتب " وإذا كان من الكتاب - في بعض الأحيان - من يترك رأياً ويأخذ رأياً كما يخلع ثوباً ويلبس ثوباً على حسب الظروف وتقلب المصالح والازياع فإننا نجد في (الزهرراوي) الكاتب الذي ترتبط أفكاره به ارتباطاً عضوياً والمصلح الذي يقدم الرأي ثم يقدم بجانبه الحياة ألا ما أحوجنا الى الكتاب الأحرار " (٢٥) وقد كان (الزهرراوي) يعي ذلك تماماً ، ويفعل ما يفعل عن بينة " اذا استثنينا من هذا النوع (الانسان) أولي الألباب من الأنبياء وذوي الأفكار من الحكماء والمخترعين والعلمين فأية مزية تبقى في الباقيين وأي شرف لهم أولئك مفاتيح أبواب الخير ومصادر الشرف الأعلى لهذه النوع " (٢٦) وهم الذين أدركوا الحقيقة الساطعة وهي أن الانسان

من حيث شخصه لاشيء ، ظل زائل ، أما من أراد الخلود والبقاء فلن يكون ذلك الا من خلال خدمة أمته " أما الأمم فلا تتلاشى مادام فيها الصالحون الذين يخدمونها . فمن كانت نفسه حبيبة اليه وأحب بقاءها فليطلب بقاءها في غير شخصه الذي يحزنه ذلك اليوم (الموت) ، ليطلب بقاءها في أعمال يعملها وخدمة يقدمها لأمته قبل حلول تلك الساعة فيبقى حينئذ ببقاء أمته ويرتفع الى الحق (جل وعلا) طيب من نيته ، وصورة جميلة من عبودته له ، والحق يتولى عبادة الصالحين " ^(٢٧) ولقد كان (الزهراري) من هؤلاء " وشتان بين من يكذب لأمته ورجل لا يكذب الا لنفسه فقد كان الشهيد (الزهراري) طيب الله ثراه من أبرز العاملين المجدين في خير أمتنا " ^(٢٨) وقد تعجب (الزهراري) من سقوط بعض الذين كانوا رموزاً للنضال أمام اغراءات المناصب " فاذا بهم الان أميل الى ماكانوا يقاومونه ويزهدون فيه وأكثر استعداداً له " ^(٢٩) ويعتبرون ذلك ذكاء ورجحة عقل في الوقت الذي يعتبرون فيه أن الصديق مع الذات والثبات على المبدأ والاختلاص لمصالح الأمة حمق وسذاجة " تبقى الأمم ماشاء الله تعالى وبقائهما يبقى الأفراد الذين يقومون بالعبادة للحق فيها ويكونون أحراراً عما سواهم بقدر الامكان هؤلاء قد يظنهم نفر من الناس حمقى لانهم يرونهم غير منهمكين في بعض لذائذ قد فتنوا هم بها وانما يقدمون النفوس في سبيل أمور الى الأمم مرجعها لالى أشخاصهم ومالحمقى الا أولئك الظبانون هذا الظن فإن العمل والسعي بما به ارتقاء الأمة وخلاصها لم يكتب معه الشقاء كما يتصورون " ^(٣٠) وقد أدهشه أكثر ، عدم تورع هؤلاء الساقطين على إثارة الفتن والقتال ، لأنها تخلق لهم الجو المناسب للاستغلال " وليستعينوا بها على خدع المغفلين . . . فهم كلما كثرت القلاقل ازدادوا تمكناً من الايها ، واتهام من يخشونهم من

الرقباء والمناظرين ، وازدادوا تضليلاً للأفكار بأنه لا يجوز والحالة هذه التهجم عليهم " (٣١) وهكذا يربطون بين مصالحهم الشخصية والمصلحة العامة (بديماغوجية) مقبلة . .

ولم يرق للاتحاديين بطبيعة الحال ، عناد (الزهرراوي) ولم يعجبهم دفاعه عن الحرية التي تنتج لكل جماعة (أمة) من جماعات الدولة الاعتراز بنفسها وتراثها ولسانها بسبب ضيق أفقهم ونزعتهم العنصرية لذلك نصبوا أنفسهم أوصياء على الدولة ، وعلى شعوبها ، ونظروا بعين المقت والشك لكل أحد ، ولكل حزب آخر ، سوى حزبهم متهمين تلك الأحزاب المعارضة بأنها ضد الدولة . يريدون من وراء ذلك مصادرة الآراء والأفكار ، والاستبداد بالنفوس والعقول . وقد أراد (الزهرراوي) أن يفند دعاوي الاتحاديين ، وأن يحاورهم بالعقل والمنطق " التخالف لا يزول ، ولكن له آداب ، والتنازع لا يبطل ، ولكن له سنن ، والحق يختلف فيه الأفكار ، ولكن التفاهم ممكن ، لأن الأفكار قابلة للتحويل ، وقبول النصح . وإذا تعذر التفاهم فكل حزب يصيرون في سبيل ما يرونه الحق ، والحكيم هو الذي يتعمد عن تشديد اللوم في الأمور التي كأنها طبيعية " (٣٢) باختلاف وجهات النظر ، وتباين الآراء ، أمر طبيعي ، ودليل صحة وعافية في المجتمع . أما من يدعو الى غير ذلك ، ويدعي بأنه وحده يملك الرأي السديد ، والمنطق السليم ، فانه انما يسير قدماً في طريق الاستبداد . وهذا ما كانت (جمعية الاتحاد والترقي) تفعله حين كانت تحاول أن تستأثر بأمور الدولة العثمانية . لذلك دعا (الزهرراوي) الى قيام أحزاب معارضة لحزب (جمعية الاتحاد والترقي) " لابد من الوقوف أمام منافذ الاستبداد ، ومظان الأعوجاج ، وأنه اذا لم يقم بذلك بعض الأحزاب السياسية لسبب من الأسباب ، في زمن من الأزمان ، مست الحاجة الى غيره . فانه

إذا ثبت أنه يوجد في الأمة من يريدون التغلب على كل أحد ، من غير أن يعترض عليهم أحد ، وكان لا يوجد الا حزب واحد موافق، كان هناك أما الاتفاق التام على عصمة أولئك المتغلبين عن الخطأ ، والرضاء العام باستبدادهم ، وأما موت أوجب سكوت الكثيرين أمام تغلب الأقلين ولا ينفي علائم الموت الا شهادة عيانية بقيام حزب معترض ، يقف أمام الكثرة والقلة ، ولا تثنيه الألقاب التي يخلعها عليه الحزب الآخر زأنصاره " (٣٣) .

وإذا كان الاتحاديون يصادرون الحريات والأفكار بحجة الحفاظ على الدولة ، وضمان بقاء وحدتها ، فإن (الزهرراوي) يسخر من هذه الادعاءات . فالزهرراوي مع الاتحاد المبني على أسس حضارية ، وليس على أسس أخرى ، سواء أكانت دينية أو عرقية : " نوضح كلامنا فنقول : نحن مسلمون ولكننا لا نريد اتحاداً يكون خارجه أبناء وطننا من غير المسلمين ، ونحن عثمانيون ولكن لا نريد اتحاداً يكون خارجه كل أبناء الوطن من غير الترك وتفسير هذا الكلام - بغاية الصراحة - أن الاتحاد النافع هو الذي يبقى فيه العربي مثلاً عربياً ، والرومي رومياً ، والألباني ألبانياً ، ولا يسه أحد بأحد الظن حين يريد خدمة لسانه ، ويسعى في ترقية أفكار قومه ، ويظهر تمنييه بأن يكثر فيهم العلماء والأدباء فالإتحاد إذا كان من أجل الوطن فالرجل الذي ينسى قومه وقوميته لا يأمنه على الوطنية الا أحق ، فإن من لا قوم له لا وطن له ، ومن ينسى أهله فهو ناس وطنه قبل ذلك " (٣٤) .

بهذه الكلمات الصريحة - غاية الصراحة - على حد تعبيره يرفض التنازل عن حرية أمته ، ويرفض إلحاقها دون قيد أو شرط بالدولة العثمانية . ويدعو الى أن يكون لها - ولسواها من أمم

وشعوب الدولة العثمانية - كيائها المتميز . فهو وإن كان لا يدعو الى الانفصال عن الدولة ، الا أنه يرفض وصاية أي شعب من شعوب الدولة على الشعوب الأخرى ويستخدم ربما للمرة الأولى في قاموس السياسة في المنطقة عبارة - القومية ، ويهاجم بشدة الاتحاديين لغلوهم وعنجهيتهم وتعصبهم لجنسهم التركي ، ويسخر من دعواهم بأن كل من لا ينضم لحزبهم ، ويعمل تحت أمرتهم ، خائن يعمل ضد الدولة ووحدتها . ويرد عليهم بعنف وحدة ويدعو " لأن تخرج كلمة العنصر الحاكم من الأفكار وليس من قاموس السياسة فحسب " (٣٥) ويسخر بصراحته العنيفة معلناً بأنه لا يقبل باتحاد " يراد به أن يتنازل التركي مثلاً عن تركيته أو الغربي مثلاً عن عربيته لأجل خاطر الاتحاد فهل فهم دلالو الاتحاد " (٣٦) وعندما يرى اصرار هؤلاء على موقفهم العنصري بسخر منهم المرة بعد المرة " ليس شيء في نظر العاقل بأسمى من صد رجل أنخمته الأنانية رجلاً آخر يجب أن يتغذى بقليل من حب نفسه وقومه " (٣٧) و(الزهراري) إلى جانب دعوته الى حرية المواطن واعتبار ذلك جزءاً عضوياً من مقومات إنسانيته وكرامته وحرصه على التحرر من كل أشكال القهر والتسلط ، ودله على طريق المقاومة ، طريق القوة ، لانتزاع الحرية . فإنه دعا كذلك الى حرية الوطن وتحرره من كل أشكال التسلط والقهر والطمع الداخلي والخارجي فعلى الصعيد الداخلي دعا لأن يعمل كل مواطن على رفعة وحرية وعزة وطنه . والى الخروج من دائرة الاستكانة والخنوع ، والانتقال الى العمل الايجابي والمقاومة الفعالة وعدم الاكتفاء بالشكوى " يشكوا الناس كما كانوا يشكون أمس ولكن ماذا تنفع الشكوى اذا لم تكن معها روح مقاومة " (٣٨) .

فهو يحاول استنهاض الهمم وتبصير المواطنين بمساوي ما هم عليه " لقد تواترت النذر القوارع وتلاحقت الموقظات من الصوارع وما نحن بملتفتين ولا نحن من الكوارث صادفين كأن قد استحکم الوقر في آذاننا أو استحوذت الغشاوة على ابصارنا أو كأن قد أخذنا النوم . . . ولست أدري وقد تألبت الحوادث ، وتظاهرت الخطوب ، متى يكون التذكر ؟ الى الله المشتكى من عقول ونفوس نحسبها متضامنة مع صد عوادي الأيام ، وهي متشاكسة ، بعضها على بعض الد الخصام . . . قد استنلها الانذال فضلاً عن الأقرباء واستنلها الأذلاء فكيف الأجلاء ، وهي مع ذلك تفيض بالتفاخر وتبدي وتعيد في التعاطم " (٣٩) .

وبعد أن يشعر المواطنون بما عليه أوطانهم من ضعف وتخللف لابد أن يتساءلوا عن أسباب هذا الضعف ويعملوا على تحرير الوطن من برائته . وربما يكون التحرر من الأمراض الاجتماعية المتفشية من أهم ما يجب الانتباه له ، وأهم هذه الأمراض : ما ابتليت به نفوس المواطنين من الملق والمداينة ، ومسايرة المستبدين والمتنفذين هذا المرض الذي تفشى خاصة في الطبقة الغنية ، التي رھنت نفسها لدى الطغمة المستبدة ، تزین لها أعمالها ، وتصفق مهللة لكل تصرف من تصرفاتها ، أملاً في الحفاظ على مصالحها ومكاسبها ، واستدراراً لمزيد من الفتات الذي تلقیه إليها الطغمة المستبدة . وإذا كان (الزهرابي) لا يستغرب ارتھان الأغنياء لزبانية الاستبداد ، إلا أنه يستغرب وقوع الفقراء في مثل ذلك " لكن المعدمين لا يجدون عذراً اذا جمعوا بين ذلة الاملاق وذلة الملق الباطل " (٤٠) ثم يعود ليذكر الأغنياء ، بأن الغنى في المال لا يعرض عن الكرامة والعزة ، ويذكرهم بأن " الكثير من الأغنياء في الأمم الأخرى يتمنون له

كانوا فقراء ويتخلصون من حكم الأجنبي . . . " (٤١) وإذا كان هو يحمل في أعماقه نفساً حرة مقاومة مناضلة ، فإنه كان يؤمن بأن كل مواطن في بلده لا يقل عنه إباء ومقاومة لذلك فهو يخاطب قومه " لو كنتم غير مؤمنين ، وغير كارهين حكم الأجنبي ، لو جدت لي قوماً آخرين غيركم . وأما وأنتم تحملون ما أحمله من الإيمان ، والنفرة من سيطرة الأجنبي ، أنتم قومي الذين تجدد روعي الأنس بهم وترغب العمل والتعاون معهم " (٤٢) .

وهو في سبيل ضمان الحرية السياسية للمواطنين يتبنى الأسلوب الأوربي (البرلماني) في ممارسة الديمقراطية ويسمي الأشياء بأسمائها فيتحدث عن المجالس النيابية ، وعن حرية الانتخاب ، وعن المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية ، وعن تعدد الأحزاب ، وعن المؤسسات القانونية والدستورية . ولا يجد حرجاً في ذلك ولا يستعمل ما يستعمله غيره من رجالات النهضة من مصطلحات (الشورى - أهل الحل والعقد) وإن كان لا ينسى بأن يذكر بأن الديمقراطية أصيلة في تراثنا ، تحدث عنها في كتابه (خديجة أم المؤمنين) وبين ما كان للعرب قبل الاسلام من أخلاق تقوم على الحرية والمشاورة . . . كما أنها الديمقراطية - الحرية) قد وجدت بعد الاسلام ما يزيد لها رسوخاً - وإن ما نأخذه عن الأوربيين ليس سوى الشكل والترتيب وأن أوربا لم تكن سباقة في مجال سن (الدساتير) على الإطلاق " فمن عرف هذا يعرف أننا انما اقتبسنا عن أوربا طريقة من طرق ترتيب الاستشارة (الشورى) ولم نقبس أساس الاستشارة على أننا لانعني بهذا أن الذي اقتبسناه من أوربا شيء هين وإنما قصدنا به اثبات عراقتنا

بما هو روح (*) القوانين الأساسية " (٤٣) فهو يدعو إلى الأخذ بالنظم الديمقراطية (الليبرالية) على النمط الأوروبي ، لاسيما (الانكليزي) وما إرجاعها (في روحها) إلى أسس تراثية عربية وإسلامية إلا لإثبات أنها لا تتعارض مع هذا التراث من جهة ، وإلا لتسهيل عملية الأخذ بها من جهة ثانية . ومما لا خلاف فيه أن النظم (الليبرالية) الأوروبية تقوم على تعدد الأحزاب وعلى حرية الانتخابات . . . وبالنسبة لحرية الانتخابات فلإن (الزهرراوي) يعطيها اهتماماً كبيراً لأنه يترتب على الانتخابات نتائج في غاية الأهمية والخطورة . لذلك فهو حين يدعو إلى نظام (برلماني) فإنما يدعو لأن ينبثق هذا المجلس عن انتخابات نزيهة . بعيدة عن كل تأثير أو توجيه ، يمارسها المواطن وهو يشعر بحرية كاملة ، ويدرك أنه يقوم بواجب قومي هام ، لأنه سيوصل إلى مجلس النواب أناساً يعرفون كيف يقودون وطنهم في وجه كل الأطماع ، ومحاولات التسلط الداخلية والخارجية : " إي لعمر الحق يجب أن تتقوا الله في أوطانكم إن كنتم مؤمنين ، وإن كنتم لتسلط الأجانب كارهين . فإنه ليس بينكم وبين ذلك التسلط إلا أن تخان الأمة في الانتخابات مرة أخرى والعياذ بالله " (٤٤) وهو يشير بذلك إلى تدخل السلطة للاتجاه بالانتخابات ونتائجها إلى حيث مصلحتها مما أدى إلى ابعاد الكثير من رجال الوطن عن المجلس (مجلس المبعوثان) . .

والخلاصة أننا نستطيع الآن أن نذكر موجزين : بأن (الزهرراوي) قد نظر إلى الحرية من زوايا متعددة ، فهو ينظر إليها أولاً على أنها حق لكل إنسان من حيث هو إنسان ، وأنها جزء من إنسانيته ، وأحد المقومات الأساسية لكرامتهم . وبرأيه أن من يتخلى عن حرите فإنما يتخلى عن إنسانيته ويصبح وانساناً

* في هذه العبارة ما يذكر بقوة بنو تنسكيو في كتابه روح القوانين . .

(العجماءات) . وحرية الإنسان تعني تحرره من كل أشكال القهر والتسلط أيا كان مصدرها . وتعني كذلك تحرره من ربة ماتواضع الناس على تقديسه من العادات والأشخاص والفترات الزمنية المحددة، كما تعني أن يكون له الحق في الاعتقاد بما يريد ، والتفكير والتعبير بما يريد دون أن يخشى على نفسه وأهله شيئا . . .

وهو ينظر إليها ثانياً على أنها حق للمواطن في الدولة يجب أن يمارسها لأنه بذلك يمارس حقه في المشاركة (في نصب الحكومة) و (مناقشتها الحساب) وخلعها إن لم تقم بواجبها . وحين تتاح الحرية للمواطن فإنه يشارك كذلك في العمل السياسي فيختار لنفسه حزبا يتفق مع طموحاته وأهدافه ، وطموحات وأهداف الوطن ، ويعمل من خلاله على تقدم الوطن ورفعته . وإذا لم تكن الحرية متاحة للمواطن فعليه أن يناضل في سبيل انتزاعها لنفسه ، وللآخرين من أبناء وطنه ، وعليه أن يقاوم الاستبداد والتسلط والقهر ، فإنه إن لم يفعل ذلك فإنما يهدر كرامته ، ويستحق الهوان الذي ينزله به قاهره والمستبدون به .

وهو ينظر إليها ثالثاً على أنها تحرر من الأمراض الاجتماعية التي تستشري نتيجة التخلف والجهل . فهي تبعد بالإنسان عن الملق والمداهنة والرياء ، وتضعه وجهها لوجه أمام واجبه في مقاومة المتسلطين ، دون أن يعبا بما يتلهى به ضعاف النفوس من المكاسب والمناصب .

وهو ينظر إليها أخيراً على أنها تحرر وتحرير للوطن من أنواع القهر والتسلط ، سواء أكان ذلك صادراً عن جهات داخلية تسيرها أطباعها وأهواؤها ، أم عن جهات خارجية يدفعها حبها للاستغلال . ولاستنزاف ثروات الشعوب والتحكم بمصائر الآخرين .

وحرية الوطن لا تتحقق إلا إذا سادت روح المقاومة ، ولا يمكن أن
تسود روح المقاومة ما لم يتحقق في المجتمع نوع من العدل والتكافل
الاجتماعي بحيث لا تستأثر فئة من المواطنين بكل المغائم في حين يقع
على الفئات الأخرى كل أنواع المغارم والأعباء .



هوامش الفصل الثالث :

- ١ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، ص ٨٦٦ .
- ٢ - عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق ، ص ٨٦٧ .
- ٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم " ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٣ ، ١٥ أغسطس (آب) ١٩١٢ .
- ٤ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، ص ٧٧٤ ، ٧٧٥ .
- ٥ - انظر : عبد الحميد الزهراوي ، نظام الحب والبغض ، مصدر سابق .
- ٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " القوة " ، مجلة الانسانية ، الجزء الثاني ، السنة الثانية ، ١٤ / ٥ / ١٩١١ .
- ٧ - عبد الحميد الزهراوي ، " القوة " ، مجلة الانسانية ، مصدر سابق .
- ٨ - عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، (القاهرة ، المطبعة العمومية ، ١٩٠١) ، ص ٣٧ .
- ٩ - عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- ١٠ - عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- ١١ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، ص ٧٩٧ .
- ١٢ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، ص ٧٩٩ .
- ١٣ - عبد الحميد الزهراوي ، "خواطر السياحة" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٧٩ ، ١٢ تشرين الأول ١٩١١ .
- ١٤ - عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم " ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٣ ، ١٥ أغسطس (آب) ١٩١٢ .
- ١٥ - عبد الحميد الزهراوي ، "النظار" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٦٨ ، ٢٧ تموز ١٩١١ .
- ١٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيته السياسية - ١ - " ، جريدة الحضارة

- ، السنة ٢ ، العدد ٥٣ ، ١٢ نيسان ١٩١١ .
- ١٧ - عبد الحميد الزهراوي ، "القوة" ، مجلة الانسانية ، الجزء الثاني ،
السنة الثانية ، ١٤/٥/١٩١١ .
- ١٨ - عبد الحميد الزهراوي ، "تريتنا السياسية - ١ -" ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٥٣ ، ١٢ نيسان ١٩١١ .
- ١٩ - المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٢٠ - المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٢١ - المصدر السابق ، ص ٧ .
- ٢٢ - المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٢٣ - عبد الحميد الزهراوي ، "النظار" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ،
العدد ٦٨ ، ٢٧ تموز ١٩١١ .
- ٢٤ - عبد الحميد الزهراوي ، "حروبنا الداخلية" ، جريدة الحضارة ،
السنة الثالثة ، العدد ١١٨ ، ١١ تموز ١٩١٢ .
- ٢٥ - د . نجاح العطار ، "الزهراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين" مهرجان
الفكر والعقيدة ، (دمشق) . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ .
- ٢٦ - عبد الحميد الزهراوي ، "نظام الحب والبغض" ، مجلة المنار .
- ٢٧ - عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة الأولى ، العدد ١٤ ،
١٤ تموز ١٩١٠ .
- ٢٨ - مصطفى الشهابي ، "الشهيد الزهراوي" مهرجان الفكر والعقيدة ،
مصدر سابق .
- ٢٩ - عبد الحميد الزهراوي ، "حروبنا الداخلية" ، جريدة الحضارة ،
السنة الثالثة ، العدد ١١٨ ، ١١ تموز ١٩١٢ .
- ٣٠ - عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة الأولى ، العدد ١٤ ،
١٤ تموز ١٩١٠ .
- ٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، "حروبنا الداخلية" ، جريدة الحضارة ،

- السنة الثالثة ، العدد ١١٨ ، ١١ تموز ١٩١٢ .
- ٣٢ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم " ، جريدة الحضارة ،
السنة الثانية ، العدد ٨٤ ، ١٧ تشرين الثاني ١٩١١ .
- ٣٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " ترييتنا السياسية - ٨ - " ، جريدة
الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٦٢ ، حزيران ١٩١١ .
- ٣٤ - عبد الحميد الزهراوي ، " ترييتنا السياسية - ٢ - " ، جريدة
الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٥٤ ، ٢٠ نيسان ١٩١١ .
- ٣٥ - المصدر السابق .
- ٣٦ - المصدر السابق .
- ٣٧ - عبد الحميد الزهراوي ، " ترييتنا السياسية - ٤ - " ، جريدة
الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٥٦ ، ٤ مايس ١٩١١ .
- ٣٨ - عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة " ، جريدة الحضارة ،
السنة الثانية ، العدد ٧٩ ، ١٢ تشرين أول ١٩١١ .
- ٣٩ - عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة " ، جريدة الحضارة ،
مصدر سابق .
- ٤٠ - عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم - ٢ - " ، جريدة
الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٤ ، ٢٢ أغسطس ١٩١٢ .
- ٤١ - المصدر السابق .
- ٤٢ - المصدر السابق .
- ٤٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم - ١ - " ، جريدة
الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٣ ، ١٥ أغسطس ١٩١٢ .
- ٤٤ - المصدر السابق .

الفصل الرابع

العدالة

" اي والله إلى الذلة والبوار. ينقلب المجتمع الذي لا عدل فيه . . . ومتى علم (الإنسان - المواطن) أن العزة والبقاء يرافقان العدل ، والذلة والبوار يصحبان الظلم ، كان أحب شيء إليه العدل . وأبغض شيء إليه الظلم . وحينئذ يكون تعصبه للعدل وبالعدل ومنتجا للعدل " ^(١) فالعدل من مقومات العزة والبقاء ، للفرد والجماعة على حد سواء ، بل ومن بعض مقومات النفس . فالعدل مرتبط ارتباطاً عضوياً بالإنسان ، يطلبه لنفسه لأنه حاجة اجتماعية أساسية ، وجزء من تركيبه الحضاري والاجتماعي ويطلبه لغيره لئلا يتناقض مع نفسه " من أحب ذاته حق المحبة هيئات أن يظلمها ومن أراد أن لا يظلم نفسه فليحارب من لا يظلمون غيرهم وايحارب من يظلمون فلا جناح علينا أن نبيع الحياة - وهي أغلى شيء - في جهاد الذين يظلمون غيرهم لعلنا نحيا لانظلم ولا نظلم أو يحيا أبناؤنا من بعدنا على هذه الشاكلة لعلنا نحيا عالمين أن ذوات غيرنا كذاتنا فنأخذ مالنا وندع مالهم . لعلنا نحيا متعاونين ، فنحن كلنا أخوة سواء بالحياة أو بالمات " ^(٢) فهو مؤمن بالعدل كأساس لسعادة الإنسان وبناء الأمة وعزة الوطن ، ومستعد لأن يبذل روحه فداء لإيمانه الراسخ بأهمية العدل على مختلف الصعد الفردية

والاجتماعية . . وانظلم برأيه لا يكون من جهة السلطة فقط ، ومن جهة الحكومات أو الفئات المستبدة ، بل قد يكون من جهة الأفراد ، يوقعه الأقوياء بالضعفاء . أو من جهة الدول توقعه الدول الكبيرة والقوية بالدول المستضعفة . أو من جهة طبقة متنفذة توقعه بالمستضعفين . أما بالنسبة للظلم الذي يوقعه فرد على فرد وذلك حين يجاوز الحد في الأنانية ، فيعتدي على حقوق غيره ، ويغتصبها لنفسه ، وهو أساس الشرور الاجتماعية " جميع مانسميها شرورا إنما منشؤها مجاوزة الحدود في محبة الذات لأنه لا معنى للشر إلا الاعتداء على الحقوق . وهل هذا الاعتداء شيء غير مجاوزة الحدود . ولا فرق بين أن تكون أنت المعتدي على غيرك لأجل ذاتك وأن تكون يعتدي عليك غيرك لأجل ذاته ^(٣) وأنت حين تدفع الظلم عن نفسك ، وتساهم في رفعه عن غيرك ، إنما تقوم بواجب تمليه عليك إنسانيتك . وأنت حين تمتنع عن ظلم غيرك فلأن هذا هو الشكل الطبيعي للعلاقة في المجتمع " فالأمر تكافؤ وتكافل لا تطول وتفضل " ^(٤) ولن يتحقق هذا التكافل إلا حين يقف كل فرد عند حدود حقوقه ولا يحاول أن يمدحها إلى مجال حقوق الآخرين ، وحين يدرك هذا الفرد الحكمة من وجوده " ما أنت أيها الفرد إلا ظل مهما امتد يتقلص ، أو سحاب مهما تراكم يتفرق . . . ليس لك إلا بروق من الحياة سريعة الانطفاء ، قليلة البقاء ، يكاد يعدم الفرق فيها بين الهناء والعناء . . . فإذا شحقت أنك لاشيء من جهة شخصك تفكر هل خلقت عبثاً . . . أظهرك المبدع الحكيم لأمر جليلة قد يعرفها الحريصون على التعرف بها . ويظهر لنا من جملة تكوين الأمم المتباينة . . . فكأنك أيها الفرد خلقت تابعا لمعنى الأمة " ^(٥) .

لذلك فإن الإنسان حين يفرق في مطالعته الشخصية ، ولا يهتم بمصالح المجتمع الذي يعيش فيه إنما يكون ظالماً لنفسه ،

وظالماً لغيره ، وبعيداً عن مفهوم العدل ، والتكافؤ والتكافل إذ يجعل سعيه قاصراً على مستقبله الشخصي مما يجعله قاصراً عن إدراك أن " المنافع الشخصية في هذا النوع (الإنسان) لا يتوفر ولا يظفر بها إلا ضمن المنافع العمومية . وإن رقي شخص في مجتمع منحط ، ورفاهه في موطن خشن ، وسعاده في بيئة شقية ، محال في نظر العقل وممتنع في حكم الواقع . . . " (٦) فمن الظلم أن يصر الإنسان همه في مصلحته الشخصية ، ولا يكثر بمصلحة غيره ، لأن ذلك سيؤدي إلى اختلال التوازن في بنية المجتمع ، وإلى تفكيك أواصر العلاقات بين أفراد ، وسينعكس ذلك على كل فرد من أفراد ، بما في ذلك الأنانيون أنفسهم . فهذا (الزهرائي) يعلن بأن مصلحة الأفراد لا تتحقق إلا ضمن مصلحة الأمة والمجتمع " فالأمة التي يشعر أفرادها بأن منافعهم منوطة بمنافع مجمرع الأمة ، فيسعون في طريق ترقيتها وإعلاء شأنها لتعلو بذلك أقدارهم ، وتسمو منازلهم . . . ولو كان شعور المرء بحاجته إلى سعادة قومه يشبه شعوره بالحاجة إلى سعادة ذاته ، لكان سعيه لمستقبل الأمة ، مثل سعيه لمستقبل نفسه ، ولترتب على ذلك نهوض الأمم العائرة . . . فإن من شأن هذه الغريزة (العمل للأمة والتخلص من الأنانية) أن ترتقي بالإنسان إلى أسمى ما استعداد له وتصعد به إلى مستوى المدنية الصحيحة " (٧) فالزهرائي يعي تماماً خطورة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وما يترتب على هذه العلاقة من تأثير على مستقبل الأمم . وكان يرجح بتأثير الشريعة الإسلامية من جهة ، وشعوراً منه بأهمية العدالة من جهة ثانية وربما تأثراً ببعض الإصلاحيين الأوروبيين جانب المصلحة العامة لذلك فهو " يشجب شجباً قوياً (ذاتية) أولئك الذين لا يعرفون المصدر الحقيقي للسعادة ، ويظنون في الدروان حول محور ذواتهم ، وفي المنافع الشخصية التي يراد لها أن تتحقق على حساب المنافع العمومية . ذلك أن مقام الأمم ومستقبلها في معركة الحياة

مرهون بشعور أفرادها بأن منافعهم منوطة بمنافع مجموع الأمة " (٨)
وأن أي تصرف خلاف ذلك يعني الظلم وانتفاء التكافؤ والتكافل
والعدل ، والابتعاد عن روح الدين والحضارة " إن معنى محبة الله
اتباع الحدود ورعاية حقوق الغير وبذل وسع النفس في هذا الشأن
وكل فروعه " (٩) .

(فالزهرائي) يرى العدل على الصعيد الفردي بتخلص كل
فرد من الأنانية البغيضة والعمل في سبيل المصلحة العامة وبالسعي
في سبيل رفعة مجموع الأمة دون أن تلهيه مصلحته الشخصية ، التي
لن تتحقق ، وستكون ناقصة حتماً ، في ظل مجتمع ينعدم فيه العدل
والتكافل والتضامن . كما أنه يرى العدل في أن يلتزم كل فرد
حدود حقوقه ولا يحاول - تحت أي غطاء - مد هذه الحقوق بحيث
تطمس حقوق الآخرين . ويسخر من أولئك الذين يحاولون أن
يرتبوا لأنفسهم حقوقاً ليست لغيرهم ، تحت ستار دعاوي مختلفة
منها مثلاً الادعاء بالانتساب إلى عترة معينة (وتخيل الشرف والمجد
بالتولد من ذلك الوالد أو ذلك الجد) ويعد ذلك نوعاً من التعصب
(العنصري) الباطل الذي لا يقره عقل ولادين " إن تلك لأوهام
باطلة لا تروج إلا على العقول العاطلة " (١٠) .

فلا يجوز إذا هضم حقوق الغير لأي سبب كان ، وتحت أي
شعار كان . فلا ظلم ولا تنظالم . والإنسان حين يمتنع عن ظلم
غيره فإنه في الحقيقة يعبر عن حبه لنفسه ، لأنه لا يحب أن يظلمه
غيره " فالإنسان لا يحب غيره إلا لأجل ذاته فهو بهذا الحب لم يخرج
من حب ذاته إلا بحسب الصورة فقط " (١١) .

أما على صعيد العدالة الاجتماعية ، فقد أحس بالتفاوت ،
الكبير بين الطبقات ، وعد ذلك من الفساد المؤدي إلى الدمار
والبوار ، إن لم يؤخذ بالمبادئ الإصلاحية التي يقدمها العقلاء من
أبناء الأمة ، الذين أدركوا أن لعاقبة للمفسدين ، لأن العدل

الطبيعي لا يسمح باستمرار الفساد ، واستمرار الظلم . لذلك فهو مطمئن من هذه الناحية إلى أن العقوبة للصالح والإصلاح . فإن بدت للبعض أن قوة المصلحين ضعيفة واهنة لا تستطيع شيئاً أمام جيروت المفسدين الذين يتحكمون بالبلاد والعباد " فقد تكون عظيمة (القوة المرافقة للإصلاح) ويطيف من الإصلاح بنفوس المفسدين خطرات موقظة ومزعجة ، فتجذب فريقاً منهم (المفسدين) وترجعهم عن غيهم . وقد تكون ضعيفة ويطيف بنفوس المفسدين طائف من الروح الخبيث ، فيهلك المفسدون دعاة الإصلاح ومتبعيهم . ولكن لا يلبثون بعدهم إلا قليلاً ، حتى تبيدهم طبيعة الفساد ، لتقوم الحجة فيما بعد " (١٢) .

بهذا الإيمان المطمئن والراسخ بأن (البقاء للأصلح) لأن ذلك سنة من سنن الكون (لتقوم الحجة فيما بعد) يشق (الزهراري) طريقه في الدعوة إلى الإصلاح ، وإلى إقرار العدل ، لأنه بعض مقومات المجتمع ، ويهوله هذا التفاوت بين الناس " فواحد على العرش لا تقع عينه إلا على ما يشتهي من زخرف . . . حركة خفيفة من حركات شفثيه تدوي لها الأرضون ، وتغر لها الأعناق ، وتوقد بها الحروب . . . وآخر على الحضيض ، يأوي إلى مثل أوكار الوحوش ، ويغشي ظهره من الأثقال مثل ما يغشي ظهور الزوامل ، يعدو النهار والليل تحتها لينال من القوت ما ليس بأفضل من الأعشاب ، ومن اللباس ومالو عرض على الحيوانات لفضلت عليه جلودها " (١٣) .

بهذا الإحساس العميق ، وهذه العبارات العنيفة يعبر عن رفضه للواقع الظالم الذي تعلق فيه منزلة البعض وتهبط فيه منزلة الأكثرية الساحقة من أفراد المجتمع إلى مادون منزلة الحيوان الأعجم . وهو حين يرفض هذا الواقع لا يستكين له وإنما يدعو إلى المقاومة لأنها وحدها هي التي تسقط الظلم وهي وحدها التي

تنصب حكومة العدل " إذا قتمت اليوم تلتمسون من تلومونه
(بسبب فساد المجتمع) فإنكم ستجدون سر التقصير ساريا في
الطبقات كلها، وحينئذ لا يخلص من اللوم أحد، وإنما تختلف
الدرجات، فلا يستوي الذين صبروا وصابروا في مقاومة الباطل،
والذين كانوا بالباطل وللباطل قائمين، والذين كانوا بالباطل
وللباطل قاعدين " (١٤) فمقاومة الباطل والظلم من أقدم واجبات
الإنسان، وعليه أن ينخرط في هذه المقاومة ليحرر نفسه ومجتمعه،
دون أن ترهبه مظاهر القوة التي يتمتع بها الظالمون، الذين استلبوا
حقوق المواطنين. لأن هذه القوة الظاهرة قوة مؤقتة كما سبق
وذكرنا سرعان ما تزول تحت ضربات معارل المقاومة من جهة،
ولأنه لا عاقبة للظالمين من جهة ثانية " إن المحيط الذي لا عدل فيه
لا ينبغي أن يجزع القليلون فيه على أنفسهم فإن أولئك الكثيرين
الذين فيه لاحقون بهم إلى الدلة ثم البوار وبس القرار " (١٥)
(الزهرراوي) لا يتحدث عن الظلم وعن التفاوت الطبقي
والاقتصادي بشكل عام فقط بل يحاول أن يعطي الأمثلة عن الظلم
الذي تزدى فيه طبقات المجتمع كلها ويعد ذلك جزءاً من نتائج
الاستبداد والاستعباد والفساد. فبالنسبة لحالة الفلاحين يقول:

" فلا تسأل عن حالة الفلاح المسكين فإن الاستعباد قد أنسخ
عليه بكل كفه حتى تركه لا يستفيد من متاعبه المتبادية إلا أحسن
العيش مشوباً بالذل والمهانة " (١٦) فلا بد إذا من إنصافه ورفع
الإصر عنه وجعله ينال حقه كاملاً وبشكل يتناسب مع أتعابه
(المتبادية) وإذا كانت هذه حال الفلاح في العهد الحميدي فإنها
ظلت كذلك في العهد الجديد " الفروق التي أحس بها الفلاحون
بين الدور الماضي والدور الجديد تكاد لا تذكر لأن طريقة الأعشار
لاتزال على حالها جامعة لأنواع الاعتساف. وشؤون الضبط
والربط لم تتغير، وتغلب (الأفندية) لم يتحول، ولم يجد شيء في

بحاري الأنهار . . . " (١٧) أما بالنسبة للحرفيين والصناع " فهم أسوأ حالاً من الفلاحين لأنهم إلى جانب عيشهم الضئيل قد أنهكتهم تلك العسكرية (التجنيد الإجباري) . . . حتى أصبح الفلاح الموصوف آنفاً أحسن حالاً منهم " (١٨) أما المثقفون فإن الظلم الذي يقع عليهم في مجتمع الفساد والاستبداد يكون بحرمانهم من مصادر الثقافة من جهة ، وحرمانهم من التعبير عن آرائهم ومعارفهم من جهة ثانية . " والمغرمون بالمعارف (مثلاً) قد حيل بينهم وبين المباحث والكتب الاجتماعية والسياسية ، وحرّم عليهم اقتناء شيء من تلك الكتب تحريماً يؤيده العقاب الشديد إذا وقعت المخالفة " (١٩) أما بالنسبة للجنود " فالأفراد من العسكر كانوا يخدمون تلك العسكرية ثماني سنين وتسع سنين في الغالب وأكثرهم لا يفرحون بلباس جديد يناسب الإنسان طول هذه المدة وبعضهم تأتي عليهم ظروف لا يكفون فيها ألم الجوع " (٢٠) ويزيد الأمر سوءاً وظلماً فيما يتعلق بالعسكرية إذا انتبهنا إلى ما أورده من أن مدتها كانت تصل إلى تسع سنوات تقطع من عمر الشاب وتبدد لإرضاء نزوات السلطة ، ولتسلط على الشعوب ، بدل أن تكون فترة إنتاج يستفيد منها الوطن والمواطن . بالإضافة إلى أن عبء هذه العسكرية لم يكن يقع على إلا على أبناء الطبقات الفقيرة والمستضعفة أما أبناء الأغنياء والأعيان والأشراف فلما أنهم كانوا معفيين بحكم القانون (الأشراف) ، أو أنهم كانوا قادرين على دفع الرشاوي والتهرب من أدائها ، فكان الذاهبون لأداء العسكرية في غالب الأحيان من المعيلين لأسرهم . فكانت هذه الأسر تقع تحت عبء شديد من الفقر والعوز ، مما كان يحدو بالكثيرين للفرار من الخدمة . وبما أن هؤلاء كانوا لا يستطيعون الظهور أمام أعلام السلطة فقد تحولوا إلى السلب والنهب وقطع الطرقات . وقد كانت ظاهرة (الفرارية) شائعة ومعروفة ، ولا زالت في الذاكرة

الشعبية في مختلف المناطق حكايات كثيرة من أعمال هؤلاء الفارسين . أما بالنسبة للتجار ، الطبقة أو الفئة الأكثر غنى والأكثر ارتياحاً من الناحية المادية إذا ما قورنت حالتهم بحالة بقية المواطنين إلا أنهم مع ذلك يشعرون بالمدلة والظلم إذا ما قارنوا حالتهم بحالة من اتصلوا بهم من تجار الأمم الأخرى فهم يعرفون الفرق ، الكبير ، " بين البلاد التي تتجلى فيها حقوق الإنسان من حيث هو إنسان وبين البلاد التي يقول أهلها نحن عبيد الحكومة " (٢١) .

وقد مر معنا من قبل كيف أن (الزهرابي) سخر من تملق الأغنياء وانتهازيتهم لإقتناص المزيد من فرص الكسب الحرام ، وذكرهم بأن المال لا يمكن أن يكون بديلاً عن الكرامة والعزة وأن الكثير من الأغنياء في الأمم الأخرى يتمنون لو كانوا فقراء ويتخلصون من حكم الأجنبي .

وبرأي (الزهرابي) أن إقامة العدل هو أول واجبات الحكومة ، وهي ما وجدت إلا من أجله (*) فهي توحد الجميع " حتى يصير الكبير والبعيد على حد سواء في طلب العدل ، وحفظ الحقوق إلى

* يعتبر العدل أحد أسس المجتمع فهو يستنتج من استقراء مثل يضربه أن أسباب قيام المجتمعات (المدنية) :

- ١ - حب الذات - ٢ - حب الغير لأنه الأصل الأعظم في تحصيل مصالح الذات - ٣ - العدل في توزيع الأعمال والنتائج - ٤ - الإحسان (مراعاة الضعاف) - ٥ - العلم لأن العمل لا يكون صحيحاً ومجدياً إلا إذا بني على المعرفة - ٦ - التعليم - ٧ - اقتسام الأعمال (تكافل وتكامل) - ٨ - نظام العائلة - ٩ - نظام المساكن - ١٠ - نظام البيوع - ١١ - نظام الأحمور (العمالة) - ١٢ - شريعة القسمة (تقسيم الدخل القومي) - ١٣ - شريعة القروض (الودائع والعواري) - ١٤ - شريعة الغصب والإتلاف - ١٥ - نظام المواريث - ١٦ - نظام الجزاء - ١٧ - حماية الضعفاء - ١٨ - نظام المعاهدات الخارجية - ١٩ - نظام إحداث القوة (نصب الرئيس ١٠٠٠) - ٢٠ - نظام المنظمات (العقيدة والإيدولوجية) .

• انظر : الزهرابي ، نظام الحكم ، و : غرض .

مرجع واحد (الحكومة والقانون الأساسي) وهذه نعمة لا يستهان بها ، لأن الله سبحانه يقول : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لتهدمت بيع . . " يعني أن الله يدفع الناس عن بعضهم بواسطة بعض وبديهي أن الوازع الأعلى هو الحكومة فلولا الحكومات لتغلب الكبير على الصغير ولما رأينا علوماً وبلداناً... " (٢٢) ولكن أية حكومة هذه ، إنها الحكومة التي نصبها الشعب ، والتي باستطاعته أن يخلعها حين تستبد ، أو حين تخفق في إقامة العدل : " ومتى كان الحاكم خاضعاً لشروط ، كان منصوباً بيد الأمة ، وليس ناصب نفسه بنفسه ، ومتى كان كل فرد من الأمة عضواً أساسياً فيها ، كان شريكاً بالطبع في نصب الحكومة . فإن حرست الحكومة الكيان ، وأقامت العدل ، في أمة من الأمم ، كان ثمة ربح لكل فرد من أفراد الأمة . وإن لم تفعل ذلك ، كان هناك خسر على كل أحد من آحادها . وبديهي أن الأمة التي لا تتقن الحساب ، ولا تتوسل لدفع أسباب الخسر ، ليس لها أن تشكو غير نفسها " (٢٣) فالعدل وإن كان من عمل الحكومة إلا أن الحكومة بحاجة لمن يعاضدها إن رغبت في إقامته ، ولمن يردعها ويردها إلى الصواب إن حاولت تجاوزه ، ولن يستطيع ذلك إلا شعب واع مؤمن بحقوقه ، مستعد للمقاومة والدفاع عنها: " أما الأمم الميئة المستسلمة للمتغلب ، فإنها جديرة إذا لم تر العدل أن تقول كما يقول العبد المظلوم والمهان : لم يشبعني سيدي ، لم يكسني ، لم يرحني ، لم يخفف عني التعب ، ولكن ماذا تفيد العبد الشكوى إذا كان لا يملك حيلة سواها ؟ وما أشنعها من مهانة إذا ابتليت بها أمة من الأمم " (٢٤) فالعدل ليس منحة مجانية تعطى للأمة والأفراد ، إنه ثمرة كفاح ونضال مريرين ، إنه ينتزع من فم المستغلين ، ومن براثن المتسلطين . والظلم ما كان لقمع له أن كـا . مواطن انبرى لمقاومته ، وخرج من سلبه ودمته : " فليأخذ الساطل .

واجب من أول الواجبات ، والتقاعد عنه إثم وخطيئة من أول الآثام
والخطيئات " (٢٥) فوجود الظلم ، وانعدام العدل ، يعود وبالدرجة
الأولى إلى سلبية المواطنين ، وابتعادهم عن ابتدار حقوقهم
كمواطنين ، وعدم مقاومتهم للظلم والطغيان والقهر ، والاكتفاء
بالشكوى . وما كانت الشكوى يوماً لتعيد حقاً ، وتقيم عدلاً ، "
يشكو الناس كما كانوا يشكون أمس ، ولكن ماذا تنفع الشكوى
إذا لم تكن معها روح مقاومة " (٢٦) .



هوامش الفصل الرابع :

- ١ - عبد الحسيد الزهراوي ، " المؤتمر " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٢ ، ٢٠ ، مايس (أيار) ١٩١١ .
- ٢ - عبد الحسيد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١٢٣ ، ١٥ أغسطس (آب) ١٩١٢ .
- ٣ - عبد الحسيد الزهراوي ، " حول الحرب أيضاً " جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٤ ، ١٣ حزيران ١٩١٢ .
- ٤ - عبد الحسيد الزهراوي ، " بعد أربع سنوات " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١٢٠ ، ٢٥ تموز ١٩١٢ .
- ٥ - عبد الحسيد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم - ٣ - " ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٥ ، ٢٩ أغسطس ١٩١٢ .
- ٦ - المصدر السابق .
- ٧ - عبد الحسيد الزهراوي ، " المستقبل " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٩٦ ، ٩ شباط ١٩١٢ .
- ٨ - د . فحسي جدعان ، مصدر سابق ، ص ٣١١ .
- ٩ - عبد الحسيد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .
- ١٠ - المصدر السابق .
- ١١ - المصدر السابق .
- ١٢ - المصدر السابق .
- ١٣ - عبد الحسيد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة الأولى ، العدد ١٤ ، ١٤ تموز ١٩١٠ .
- ١٤ - عبد الحسيد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم - ٣ - " جريدة الحضارة . السنة ٣ ، العدد ١٢٥ ، ٢٩ أغسطس ١٩١٢ .

- ١٥ - المصدر السابق .
- ١٦ - د. جودة الركابي والدكتور جميل سلطان ، الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي ، (دمشق - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٢) ، ص ٦ .
- ١٧ - عبد الحميد الزهراوي ، "النظار - ٢ -" ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٧ ، ٢٠ تموز ١٩١١ .
- ١٨ - عبد الحميد الزهراوي ، "تريتنا السياسية - ١ -" جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٣ ، ١٢ نيسان ١٩١١ .
- ١٩ - المصدر السابق .
- ٢٠ - المصدر السابق .
- ٢١ - المصدر السابق .
- ٢٢ - عبد الحميد الزهراوي ، "الأفراد والجماعات" ، مجلة الانسانية ، مصدر سبق ذكره .
- ٢٣ - عبد الحميد الزهراوي ، "اتقوا الله في أوطانكم - ١ -" ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ ، ١٢٣ ، اغسطس ١٩١٢ .
- ٢٤ - المصدر السابق .
- ٢٥ - المصدر السابق .
- ٢٦ - المصدر السابق .

الفصل الخامس

التربية السياسية

إذا كان الإمام (محمد عبده) يتضجر من السياسة معتبراً إياها أسّ مصائب الشرق " فإن شئت أن تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ولفظ السياسة . . . ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة " (١) فإن (الزهرراوي) ينحو منحاً مختلفاً تماماً ، فهو يرى " أن النوع الإنساني لم يتيسر له قطع المراحل في التكمّل إلا على يد السياسة ، وإن المبطلين بعشق الإصلاح لا بد لهم من مددها ، فإن ما يطلبونه للإنسانية قلّ أن يكون ملقى على أبوابهم ، يربحونه لها وهم مستريحون " (٢) ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن رأي (محمد عبده) كان تعليقاً منه على حادث سجن (الزهرراوي) والأذى الذي ناله بعد نشر كتاب (الفقه والتصوف) وجاء في ذلك التعليق : " أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف (الاجتهاد) فليس الحامل عليه التمسك بالدين فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة ، وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عدواه ،

فبينته غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين ، إلى آخر ما يكون من حرية الفكر " (٣) وحرية الفكر هذه كانت الهاجس الذي لازم (الزهراري) طول عمره وعمل على الوصول إليها في كل ماكتب ، ابتداء من كتبه الدينية والاجتماعية والتاريخية . . . إلى مقالاته ودراساته السياسية بل إنه قد خصص سلسلة من المقالات في جريدته (الحضارة) ، أعطاها عنوان (الترزية السياسية) ، هدف منها توعية المواطنين سياسياً ، ودفع كل مواطن إلى لجة العمل السياسي ، بعد أن يتسلح بالوعي ، وبكل مقومات المواطن الصالح ، من علم ومعرفة وفكر مرن متفتح بعيد عن الحقد والتعصب والكراهية . فهو يرى أن " تبنى (السياسة) على محبة الناس بعضهم بعضاً بقدر الإمكان ، وإن كان بعضهم أجنبياً عن بعض " (٤) . و(الزهراري) يهدف من حملته لنشر الوعي السياسي والاجتماعي ، أن يخلص الناس من شعورهم بأنهم مجرد رعايا ، لادخل لهم بالعمل السياسي ، وأن يشعروا ويدركوا بأنهم مواطنين ، لهم حقوق لا يجوز التنازل عنها .

وكان يعي تماماً بأنه وغيره من الذين يعملون على نشر الوعي السياسي ، وبذر بذور الإصلاح في ذلك الديحور المظلم ، الذي تردت إليه أحوال الدولة والشعوب الخاضعة لها ، إنما كانوا يؤدون رسالة مقدسة " بربكم قولوا لنا إذا استثنينا من هذا النوع (الإنسان) أولي الألباب من الأنبياء وذوي الأفكار من الحكماء والمخترعين والمعلمين فأية مزية تبقى في الباقيين وأي شرف لهم ؟ أولئك منفتح أبواب الخير ومصادر الشرف لهذا النوع " (٥) وكان على وتسي كامل بما يواجهه حملته من صعوبات وإشكالات ، أهمها " مشكلتين تنظيميتين :

أولهما المسببات ، الذي فيه الأمة ، والثاني الجشع الذي فيه أوروبا " (٦) وقد ساءه أن يكرر بعض الانتهازين قد استغلوا ظروف

التخلف لمصالحهم ، فحولوا الإصلاح إلى تجارة يكسبون من ورائها: " إن في البيئة والمجتمع إفساداً لا يستطيع انكاره ، وإن هذا هو الذي دعا لكثرة النداء بالإصلاح ، وروج البضاعة المعروضة في سوقه ، وإن كان كثير منها يزيّف لدى نقد المهرة " (٧) ولذلك كان يرغب من خلال حملته في (التربية السياسية) تكوين المواطن الواعي سياسياً ، والقادر على النقد ، حتى لاتروج البضاعات الفاسدة ، لأن المواطن حينئذ يكون قادراً على تمييز الغث من السمين ، والخبيث من الطيب ، والمصلح من المفسد ، ولا يغتر بكثرة أتباع رأي ، وقلة أتباع رأي آخر ، لأنه سيدرك أن الكثرة والقلة في الأتباع ليست دليلاً على سلامة وصحة المبدأ ، بل ربما يكون أتباع المفسدين أكثر : " لأن الفرق بين المفسد والمصلح كبير هو فرق بين الضدين وإن كانت درجة المصلح عالية كان الأقربون منها أقل من الأبعدين . . . " (٨) .

وحتى لا يغشى المواطن من كثرة أتباع المفسدين ، وحتى لا يمنع ذلك من مجاهدة الفساد ، يبين أن المبادئ الصحيحة ، والسياسات السليمة ، والآراء والأفكار الصادقة ، تملك في ذاتها قوة ذاتية ، تؤيدها وتقوم لها مقام الكثرة : " ولولا أن للإصلاحات قوة تؤيدها ، لتلاشى كل إصلاح قام به مصلح ولكن تلك القوة المؤيدة تقوم للمصلح ومن يقاربه مقام الكثرة " (٩) . وعلى هذا واعتماداً منه على هذه القوة يطمح إلى دفع كل مواطن إلى لجنة العمل السياسي ، ليصبح سياسياً ، أو بالأحرى مناضلاً سياسياً . لأن السياسة عنده ، وعي ونضال ، وإيمان بالمبدأ ، واستعداد للتضحية في سبيله ، وبحث عن كل الروابط ، ووسائل إقامة التلاحم بين أفراد المجتمع ، وليس مجرد تلاعب بالألفاظ ، وتصدرًا للمتجالس ، وتسماً للمناصب . فالسياسي " وهو الباحث عن كل روابط الاجتماع ، لأستكثر منه أن يحمل أوزار الوغى - إن

استطاع - في رد كيد المستبدين ، الذين وضعوا أعمالهم في كفة
السيفة ، من حب التميز ، وبئس ما اكتسبوا لأنفسهم من البغضاء ،
وللمذعنون لهم ، شبر مكاناً وأضل عن سبيل الحياة النوعية
(الحضارية) وأقرب إلى الهوان من الأنعام وفي هذا بلاغ لعلمهم
يتذكرون " (١٠) ،

لمثل هذا المواطن الذي يضع روحه على كفه ويخرج لمقاومة
المستبدين والطغاة دون أن ييأس أو يستسلم ، كانت دعوة
(الزهرائي) للتربية السياسية ، ولن نصل إلى تكوين مثل هذا
المواطن إلا عن طريق تربية استعداداته وقدراته ، لأن الاستعداد
الذي عند الفرد " هو الذي يعمر وهو الذي يدمر هو الذي يثمر
العز وهو الذي يثمر الذل " (١١) وهذا الاستعداد ليس فطرياً -
فقط - كما يحلو للبعض أن يشيعوا بل هو " بإذن الله وتديره يقبل
الامتزاج ، وتجري عليه أحكام التربية ، لذلك فإن رسالات
المرسلين ودعوات المصلحين والمرشدين ، إنما جاءت لتنمية هذا
الاستعداد وتوجيهه ، وإلا كان إرسالهم عبثاً " (١٢). ولذا أطلق على
حملة التوعية السياسية التي كان يقودها اسم (التربية السياسية) التي
هي تنمية لاستعدادات الأفراد والمجتمعات على حد سواء . فالتربية
إذا تعني تغيير الواقع السيئ : " وهكذا زال الاستعداد لما حدث في
الأمة استعداد جديد لمقاومته ، وسرت روح مقاومته من رأس إلى
رأس " (١٣) فالتربية السياسية إلى جانب كونها قادرة على شحن
الإنسان بروح الكرامة والمقاومة والنضال والتمسك بالمبدأ ، تعلمه
التعاون والتكامل مع الآخرين لأن السياسة " من أعظم ما احتاج إليه
هؤلاء البشر في أدوار أطوارهم ، وأطوار أدوارهم ، فلما كما نرى
للتآلف أسباباً وآثاراً طبيعية ، نرى للتنافر أسباباً وآثاراً طبيعية
أيضاً . فالإنسان مضطر بين هذه وتلك إلى مدافعة أسباب التنافر
وآثاره بين المتنافرين ، والأخذ بيد التآلف بين المتنافرين وهذا هو

أصل السياسة . . . فالسياسة تعلم أسباب التعاون ووسائله إذا جهلت ، وهي التي تذكر بها إذا نسيت ، وهي التي تثير طريقها إذا عميت ، وهي التي تنعش الآمال ، وهي التي تطيب الضعيف ، وتتعهد مغارس القسوة " (١٤) . ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن (الزهرابي) يربط السياسة بالاجتماع ربطاً عضوياً ، ففكره في هذا المجال أقرب إلى مانسميه (السوسيولوجيا السياسية) فالسياسة عنده ظاهرة فاعلة من الظواهر الاجتماعية ، وجزء من مقومات الفرد والجماعة على حد سواء . فعلى الصعيد الاجتماعي هي التي تخلق ما كان يسمى (الروح العمومية) أي الرأي العام المستنير ، وهي التي تخلق كذلك العقيدة السياسية (الايدولوجية) للمجتمع أو ما كان يسميه (سياسة السياسات) .

ولقيادة العمل السياسي لابد من وجود رجال أكفاء يمتلكون صفات خاصة ، أولئك هم زعماء الشعب . . . ومتى دبت (الروح العمومية) ولو ديباً خفيفاً ألفتها تلمس الزعماء وتلمسهم . والزعماء هم نبات الأسباب والسنن الكونية " (١٥) . وهؤلاء الزعماء هم الذين يقودون شعوبهم ، ويتحكمون بمفاصل القرار فيها ، ويعملون على خلق (الروح العمومية) ، وتوحيد فعاليات وطاقت وجهود الأفراد والفئات المختلفة ، وخلق الكيان المتماسك والقوي . ذلك لأن " الجماعات (الأمم) لا تكون جماعات على وجه التمام ، ولا تكون لها سياسة مخصصة ، إلا إذا كان لها زعماء . والزعماء هم الذين يديرون سياستها وإدارتهم هي إدارتها " (١٦) .

ومن الطبيعي أن تكون العلاقة بين الزعماء وشعوبهم علاقة جدلية تفاعلية ، فلنجاح الزعيم في مساعيه لابد أن يكون الشعب قد وصل إلى درجة من الاستعداد تؤهله للتفاعل مع زعيمه ، والسير معاً إلى معارج التقدم والفلاح . فكأن هناك علاقة دقيقة

جداً بين وجود الزعيم ، وبين تهيئة الناس لذلك ، واستعدادهم لاستقباله " فبين وجودهم (الزعماء) ووجود الروح العمومية علاقة دقيقة ، لذلك يقول فريق من المفكرين : هي تظهرهم ، ويقول آخرون : هم يظهرونها " (١٧) . وبرأي (الزهرابي) أن للزعيم صفات وإمكانات واستعدادات تجعل من المستحيل على من لا يملكها أن يغدو زعيماً ، كما لا تستطيع الظروف مهما كانت صعبة أن تمنع من يملكها من أن يكون زعيماً .

ولذلك فإن وسائل الإعلام تخطئ كثيراً حين تحاول خلق زعماء وهميين ، لاتساعدهم استعداداتهم على تحمل أعباء الزعامة ، ولا يملكون مقوماتها . . . " قد يذهل أحدها من مقدار ما يرفع الأمة من رفع شخص في نظرها هو أهل للرفعة ، أو خفض شخص هو أهل للخفض . وعن مقدار ما يضر الأمة إذا انعكس لها الأمر ، لم يرفع في نظرها من هو أهل للخفض ، وخفض من هو أهل للرفعة . فليتنى الصحافي (وسائل الاعلام) منقلب الجماعة التي يريد تغييرها ، فإن بين براعته ومدارك الناس علاقة بينة " (١٨) .

" فالصحافي الماهر يستطيع أن ينصر الزعيم وأن يخلده ، ولذلك أوصي نفسي ، وأخواني الصحافيين بشيء من الإخلاص في المهارة ، لنضع نصرنا ونخذلنا في مواضعها ، مما هو أنفع للأمة ، بعد أن نبذل الوسع بالاستطلاع والتفحص ، لاعلى حسب ما يبدو لأحدنا " (١٩) .

ويعتقد بأن للزعامة شروطاً واستعدادات وإمكانات ، وأن هذه الاستعدادات من القوة والطاقة والقدرة بحيث تستطيع أن تقاوم الظروف ، وأن تنصر على الإحباطات . ذلك أنه " إذا كانت الاستعدادات الشخصية هي المساعد الأعظم على صيرورة الشخص زعيماً ، وعلى نجاحه في الزعامة ، ولكم أرانا التاريخ ويرينا الحاضر أيضاً كثيراً من الأشخاص الذين طاروا إلى الزعامات على كثرة

ماقص الدهر أجنحتهم ، وعلى كثرة مآقصاهم منبتهم عن مثل ذلك الطيران " (٢٠) . فهذه الاستعدادات الشخصية لاتعرف اليأس ، ولاتعترف بالفوارق الاجتماعية (المنبت) ، فقد يخرج الزعيم من أي فئة كانت . بل إنه يرى أن لكل فئة زعمائها من جهة ، وكل فئة قادرة على إنبات الزعماء من جهة ثانية .

وببحثه عن صفات الزعيم ومقومات وجوده ، يدل على فهم عميق لهذه القضية ، ويريد من كل أبناء وطنه أن يشاركوه فهمه لها ، حتى لا يحسبون من الزعماء كل من تصدر المجالس ، أو احتفلت به وسائل الإعلام ، أو أوصلته (الانتخابات) إلى المناصب . لأن الانتخابات قد توصل إلى تلك المناصب من لا كفاءة لهم ، ولا استعداد لديهم : " فقد تكون الاستعدادات سبباً للانتخابات ، وقد تأتي الانتخابات من غير طرقها . فالمنتخبون الذين فقدوا أجنحة من تلك الاستعدادات ، تكون سقطاتهم كثيرة ، ولاخير في زعامتهم غالباً . . . لذلك فإن هذه الاستعدادات الشخصية قد تكون بحيث يراها أكثر الناس ، وقد تسترّها بعض الحوادث وبنات الحوادث ، فتصبح لا يراها إلا القليل . ولهذا ولأسباب أخرى تكثر الاختلافات والاضطرابات في الانتخابات فقد توصل الانتخابات الزعماء إلى المناصب ، وقد توصل بعضهم ، وقد توصل سواهم . . . لأن زعماء الجماعة ليسوا هم المنتخبين وحدهم (من جهة) ، بل قد يكون المنتخب غير زعيم (من جهة ثانية) ، إذا كان محروماً من الاستعدادات الشخصية كثيراً " (٢١) . يمثل هذا البحث المفصل تناول (الزهرراوي) موضوع العمل السياسي ، والتوعية السياسية ، ودور الزعماء ، ودور وسائل الإعلام . (وكانت تتمثل أكثر ماتتمثل في الصحافة) . وهو في عمله السياسي ، وفي مهمته الصحفية ، يعتمد على النقاش الهادئ ، والمنطق العقلي الواضح ، ويحاول أن يتعد عن المهاترات ، وأن يفصح الأساليب

(الديماغوجية) التي كان يلجأ إليها البعض للإيهام والتدجيل . وكان هدوءه ورسائله في مناقشة خصومه ، وفي عرض آرائه ، أهم سمة من سمات شخصيته الفذة . وإن كان هذا لا يعني أبداً أنه كان يرضى بأنصاف الحلول ، إنما الذي نريد قوله بأنه كان إنساناً مؤمناً بفكره ، متمسكاً بآرائه ، لا يتراجع عنها قيد أنملة مهما كانت الظروف ، وإن كان من الملاحظ أن آراءه وأفكاره مبنية على أسس عقلية ، وحجج منطقية ، ولم يكن يطلقها على عواهنها . ونادراً ما نجد له كتابات أو خطابات تغلب عليها الأساليب الخطابية والعاطفية ، وإن اضطر لذلك أحياناً فإنه سرعان ما يعتذر لقراءه ويوضح لهم أن الظروف العامة أملت عليه مثل هذا الأسلوب كما حدث قبيل حرب (البلقان) مثلاً : " وكأين من قارئ يقول : ما بالكَ قد جفنتنا بأساليب خطابية فأجيبه : ذلك لأن من جملة حقوق القراء علينا أن نوافيهم بمثل هذا في بعض الأحيان " (٢٢) . ومن خلال معارضته للسلطة الاتحادية التي استبدت بالأمر ، أراد أن يكشف الزيف الذي تحاول أن تختبئ وراءه . وبين أن هؤلاء قد استمروا في سياسة الاستبداد ، وأن إعلان الدستور لم يكن سوى تغيير صوري في شكل السلطة . وأراد أن يدرك المواطنون بعض أسباب الاستبداد الذي كان يوقعه الأتراك بأبناء الشعوب الأخرى . هذه الأسباب التي تعود برأيه لعوامل عنصرية موروثية لدى هؤلاء الأتراك ، ولعوامل بيئية . لذلك فهو لا يستغرب أن يتواتر الاستبداد بعد سقوط العهد الحميدي : " لقد نسينا ناموس الإرث ، وغفلنا عن تأثير المحيط ، وذهلنا عن أن جمهور العاملين لذلك الاستبداد (الحميدي) سيظلون عامرين ، لاستبداد جديد " (٢٣) .

وقد أزعج عناد (الزهرراوي) الاتحاديين ، فأوعزوا إلى الصحف الناطقة باسمهم في العاصمة وفي سواها من ولايات الدولة

وأمرها بالتصدي للحملة (الزهرابية) ، التي لم تكن تعرف الكلل أو الملل . ولم يكن يرد على مهارات تلك الصحف إلا بأسلوبه الهادئ الرصين ، وإن كان لا يخلو من حدة أحياناً . ولم تكتف السلطة الاتحادية بحملات الصحف في العاصمة والأقاليم ، بل أوعزت إلى بعض الصحف التي كانت تمولها في (القاهرة) (*) ، وقد هاجمت بعض صحف القاهرة (الزهرابي) هجوماً عنيفاً ، شائمة إياه ، ومطلقة عليه النعوت المختلفة ، وقد كان بعض هؤلاء ومنهم (عبد العزيز الجاويش) ينطلقون في هجومهم من معاداتهم للاحتلال الإنكليزي واعتقادهم بأن الدولة العثمانية هي عدو الإنكليز ، وأن كل من يعاديها إنما ينتصر للإنكليز . فكانوا يؤيدون الدولة (العلية) ، متناسين أو جاهلين الأخطاء الفادحة ، والسيئات العظيمة ، والظلم الفاشم ، الذي يوقعه الاتحاديون بالعرب خاصة . وقد رد (الزهرابي) على هؤلاء الذين يريدون تسويد سمعته وتبييض وجوه (آباء المملكة) كما كان يحب الاتحاديون أن يسموا أنفسهم قائلين : " واعتقادي بأن أكثر مصائبنا الحاضرة ، هي نتيجة التدجيل في السياسة والصحافة . وهو الذي أوجب أن أقول هذه الكلمات المرة ، فإن استباحوا أن يشتموني لقاء هذه الكلمات ، فإنني بما أرجوه فيها من حسن ثواب الحق ، وحسن تأثيرها في يقظة أخواني المصريين وغيرهم ، سأستعذب ذلك الشتم ، إن هم تابوا إلى الرشد ، وعلموا من شخ في هذه الدولة ؟ وماهي القلوب التي تحملها ؟ وينبع منها كلامنا ؟ وماهي عواقب الإيهام ؟

* كانت القاهرة في ذلك الحين مركزاً مهماً للصحافة ومنيراً يعبر فيه كل مهتم بأمور المنطقة عن وجهة نظره وكان من بين هؤلاء بطبيعة الحال الاتحاديون الذين استبدوا بالسلطة في الدولة العلية .

وما يرجى من الاعتصام بالحقائق ؟ والسعي على نواحيها ؟
وما حقائق أولئك الذين مجدوهم ؟ وماتتائج سياستهم ؟ " (٢٤) ،
وهو في سعيه الدائم لتوعية المواطنين بالحقائق ، لا يكتفي
بانتقاد الاتحاديين ، وسياستهم العنصرية الخرقاء ، ولا يكتفي كذلك
بالرد على أساليب الدجل السياسي الذي كانوا يتبعونه ، ويدفعون
إليه أدواتهم وعملاءهم في القاهرة وغير القاهرة ، بل إنه يهاجم
كذلك أولئك الذين يريدون أن يخدموا مصالح الدول الأوربية ،
تحت ستائر الوطنية ، وبدعوى المطالبة بالحقوق ، فيتبعون أيضاً بما
ينشرونه في الصحف التي تصدر في أوروبا أساليب الإيهام والدجل .
خاصة حين ينصبون أنفسهم ممثلين للأمة ، ويدعون التعبير عن
آمالها ومطالبها ، فيستخرج من أساليبهم ، ويفند ادعاءاتهم : " معرفة
رأي الفرد في كل مسألة من المسائل سهل أما معرفة رأي
الجماعات (الشعوب) فانها متعسرة بل متعذرة . . . ولذلك نعد
من الكذبة الجناة من كل أمة أولئك الذين يكثرون أن ينسبوا إلى
أهمهم فكراً ، أو رأياً في كل مسألة ، فيقولون مثلاً : تريد الأمة
هذا ، والأمة لا تريد ذاك ، والشعب يود ذلك ، والشعب يكره
ما هنالك . . . فالذين يسمعون بعض أقوال الخادعين أو
المخدوعين في أوروبا وغيرها ، أن للعرب مقصد كذا وكذا يحذر
بهم أن يعرفوا أنه من خرق الرأي تصديق غار أو مغرور . . . " (٢٥)
ولمعرفة رأي الأمة فلا بد من الرجوع إلى التنظيمات والأحزاب
والجمعيات التي تمثل رأي الأمة ، وتقود نضالها إذ لا يكفي أن
تعتمد على آراء الأفراد ، أيا كان هؤلاء الأفراد . فالعمل السياسي
يحتاج حتماً إلى الجهود المنظمة ، وللابتعاد عن الجهود الفردية ،
لأنها تبقى جهوداً ضائعة لافائدة ترجى منها . فقيام الأحزاب
والجمعيات هو الذي يبشر بالخير ، ذلك أن " التعاضد من غير نظام
يبقى أبتر وأنه لا بد لتكامل التعاضد من تأليف حزب نظامي " (٢٦) .

ونحن حين نود مناقشة الفكر السياسي للزهراري ، والذي أراد نشره بين مواطنيه ، فإننا سنجد متتلماً على الفكر السياسي الأوربي عموماً ، وأراد أن ينقله بحذافيره تقريباً لو استطاع . لذلك سنرى كيف أنه يأخذ بمقولات ذلك الفكر في مجالات العمل السياسي كافة ويمكننا أن نلخص معالم الفكر السياسي عنده وفق مايلي :

١ - الحرص على أن تكون الحكومة (منصوبة) من قبل الأمة ، مقيدة بدستور محدد ، مما يسد منافذ الاستبداد . إذ يصبح كل شخص مهما علا شأنه خاضعاً للمحاسبة وللمساءلة عن سلوكه وتصرفاته " فالوقوف أمام منافذ الاستبداد أعظم الأعمال وتأييد الذين يقفون هذا الموقف أكرم الخلال " (٢٧) وبالنسبة لنصب الحكومة فإن (الزهراري) يعتبر اللامبالاة من قبل الأمة تجاه هذه الناحية ، من جملة عوامل الضعف والتفكك في الأمة . ويعتبر هذه اللامبالاة نكوصاً وتراجعاً عن أمر وضع السلف " أصوله بالسيف والقلم أحسن موضع ، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا كل مقومات الأمة حتى صاروا خولا وعبيداً " (٢٨) وهو يعني بذلك أن أمر تقييد الحكومة بدستور ليس جديداً على العرب ، وليس بضاعة مستوردة من الغرب إلا من حيث الصورة والشكل والترتيب ، " فمن عرف هذا يعرف أننا إنما اقتبسنا من أوربا طريقة من طرق ترتيب الاستشارة (الشورى) ولم نقبس أساس الاستشارة على أننا لانعني بهذا أن الذي اقتبسناه من أوربة شيء هين وإنما قصدنا به إثبات عراقتنا بما هو روح القوانين الأساسية (الدساتير) " (٢٩) .

٢ - الإيمان بالديمقراطية البرلمانية ، وضرورة (البرلمان) منتخب

من قبل الأمة ، دون أي ضغط أو إكراه ، مع إعطاء هذا المجلس السلطة الكاملة لمحاسبة ومساءلة الحكومة ، وإعطاء الثقة (لِلنظار) أو حجبها عنهم ، وفق مقتضيات المصلحة العامة والعمل على توعية الشعب لخلق رأي عام مستنير قادر على انتخاب الأشخاص الأكفاء لتمثيل الأمة والدفاع عن مصالحها وإذا كان لاحظ التلاعب في الانتخابات بأساليب مختلفة فإنه يحذر من تكرار ذلك " إني لعمر الحق يجب أن تتقوا الله في أوطانكم إن كنتم مؤمنين وإن كنتم لتسلط الأجانب كارهين فإنه ليس بينكم وبين ذلك التسلط إلا أن تخان الأمة في الانتخابات مرة أخرى والعياذ بالله " ، وربما يكون من المناسب أن نشير هنا إلى كيفية مناقشته للانتخابات التي لم ينل فيها العضوية لمنصب الأعيان وفي هذه المناقشة تبدو مرة أخرى السمة الموضوعية والمنطقية الهادئة في معالجته للقضايا : " فمن كان عارفاً كيف كانت حكاية الانتخابات في البلاد كلها فحسبنا وحسبه ما يعرفه ، ومن كان لا يعرف فليس بمهم لدينا إن ظن ماشاء : فمن يظن أن الناس (المواطنين) كان لهم الخيرة واختاروا من هو خير منا فإن ظنه يسرنا . . . ومن يظن أن الناس (المواطنين) هناك غلبوا على أمرهم ، أو أخطؤوا فانا نقول بأن لهم مالمسائر الناس من المعاذير " (٣٠) وهو يدعو لأن تحمل الانتخابات إلى مجلس (المبعوثان) الأشخاص ذوي الاستعدادات والكفاءات من (الزعماء) الذين يستطيعون القيام بأعباء النيابة خير قيام .

٣ - الإيمان بضرورة وجود الأحزاب السياسية ويبدو واضحاً أن ذلك يتمشى مع الإيمان بالديمقراطية البرلمانية وبرأيه أن الأعمال الخيرية لا تقوم إلا بالجمعيات (الأحزاب) والأعمال الأدبية لا تقوم إلا بالجمعيات والأعمال السياسية لا تقوم إلا

بالجمعيات . . . " (٣١) . لأن التنظيم الحزبي يجعل أعمال
الشعوب أكثر فعالية وأكثر تأثيراً " إن التعاضد من غير نظام
يبقى أبتر وأنه لابد لتكامل التعاضد من تأليف حزب نظامي " (٣٢)
. وهو يرى أن من واجب الأحزاب محاولة استقطاب
جهود الجماهير وعدم اقتصرها على أفراد قليلين من
المنتفعين: " ماذا تأمل الجامعة (الأمة) العثمانية من أفراد قليلين
يدخلون في غمار الجمعيات التي تنادي وتدعو للاتحاد إذا
كان أكثر الأفراد في أمهم يغلب عليهم الإهمال وعدم
المبالاة " (٣٣) . وحين يحاول حزب (الاتحاد والترقي) الادعاء
بأنه يستقطب الملايين في صفوفه يسخر (الزهراري) من هذا
الادعاء مبيناً أنه لا قيمة لحشد الجموع غير الواعية وغير
الفعالة: " إننا إنما نعتد في هذا المقام بأنصار الأحزاب الذين
هم من الأمة ، أي من عقلائها المفكرين ، ومن أولي العلم ،
وذوي التجارات والزراعات . فهؤلاء هم الذين نقول أن
عددهم في كل حزب ليس بكثير كثرة تذكر في يومنا
هذا " (٣٤) أي أنه يعطي للفعاليات المؤثرة والنشطة أهمية
خاصة دون بقية المواطنين ؟ و (الزهراري) يدعو إلى تعدد
الأحزاب ، ويرفض رفضاً مطلقاً استبداد حزب واحد بالأمر ،
مهما كانت الشعارات التي يرفعها: " لا يقتضي هذا الاتحاد
(الجميل) --- وهو الشعار الذي حاول من خلاله حزب
الاتحاد والترقي مصادرة الآراء - أن يكون أعضاء مجلس
المبعوثان كلهم على فكر واحد تديرهم سياسة حزب
واحد " (٣٥) . وقد مرت معنا مناقشة هذه المقولة عند
(الزهراري) هذه عند بحث الحرية في فكره السياسي .

٤ - إيمانه الراسخ بحرية الصحافة ، وحققها في ممارسته الزمنية ،
ومحاسبة المقصرين ، أو بالأحرى كشف المقصرين . . . كان

يرفض أن تكون هناك أية رقابة على الصحفي سوى رقابة وجدانه ، لذلك فهو يدعو زملاءه الصحفيين لوضع نصرهم وخطهم في الموضع المناسب ، حتى لا يرفعوا في أعين الأمة من هو أهل للخفض ، ولا يخفضوا من هو أحق بالرفعة . وقد مرت معنا مناقشة ذلك عند بحث دور وسائل الإعلام في صنع الزعماء . . . ومن الطبيعي أن فكرة (الزهرراوي) عن حرية وسائل الإعلام تتمشى مع منطق فكره السياسي (الليبرالي) :

د - وهو وتمشياً مع فكره السياسي المشتق أصلاً من الفكر (الليبرالي) الأوربي يرفض انخراط الجيش في العمل السياسي ، لذلك فهو يعتقد أن مهمة الجيش الأساسية هي الدفاع عن الأمة ، وحماية الوطن ، والخضوع لتوجيهات السلطة السياسية . أي أنه مع فكرة الجيش (المحترف) . وهو يدافع عن وجهة نظره هذه في أماكن كثيرة من كتاباته فهو يقول مثلاً : " الظواهر الخفيفة ، لأن الضباط لا يمكن أن يكون اتفاقهم في السياسة إلا مؤقتاً ، فإذا ظلوا على عملهم في هذه المهنة التي لا تناسب روح الوظيفة الواجبة عليهم فإنهم سيختلفون ، وعواقب اختلافهم أسوأ من عواقب اختلاف غيرهم من أفراد الأمة . . . " (٣٦) ويقول في مكان آخر : " فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك (السياسة) البتة والأولى عدم دخولهم فيها . . . " (٣٧) .

٦ - يدعو (الزهرراوي) لإقامة علاقات وثيقة مع الدول الأوربية للاستفادة من تقدمها وخبرتها في كافة المجالات . وهو يرفض فكرة مقاطعة الدول الأوربية : " قد يظن بعض الناس أنه لو تركتنا أوربا وشأننا لكأنت حالنا أحسن وكنا نصلح أنفسنا بأنفسنا . . . من يتحقق ويدقق فهو يعلم جيداً أن أوربا

كما ضررنا كثيراً قد نفعتنا كثيراً ايضاً" (٣٨) و (الزهرراوي)
حين يدعو لإقامة علاقات مع أوروبا فهذا لا يعني أنه كان غير
واع. عطامع الأوربيين ببلادنا ولكن لإدراكه بأنه لابد من
وجود تحالفات وبرأيه أن على شعوب الدولة العثمانية لاسيما
العرب اتباع سياسة (تكتيكية) تقوم على :

أ - أن لا نجعل بيدنا كل شعوب أوروبا خصوصاً لنا دفعة
واحدة .

ب - أن يشتغل كل شعب منا بتقوية نفسه ولا يتلهى أحد منا
بتأميل غيره .

ج - أن نبقي متذكرين خير أوروبا وشرها ومتيقظين لهما ،
ومتذكرين وجوب التعاطف الحقيقي فيما بيننا ، وعاملين
له بالحكمة ، من غير أن نزعج الدنيا بكلام أكثره
فارغ .

د - على المسيحيين (منا) رد دعوى (الحماية) الأوربية (٣٩) .

وإذا كان يؤمن بضرورة الاستفادة من علوم وتقدم الأوربيين،
فانه يدعو إلى التعاون مع (الإنكليز) خاصة ويظهر ذلك من تأييده
لمطالب (ناظر الداخلية) بأن يكون الخبراء الذين تستعين بهم الدولة
من الإنكليز . . . " ليقبل غيرنا ماشاء أن يقول ، أما نحن فلم يتبدل
رأينا منذ سنين في أمرين يقترن أحدهما بالآخر : الأول : أن دولتنا
لا تستغني عن دولة تأخذ بيدها ، وتكون ذائدة عنها شيئاً من طغيان
تلك السياسات (الأوربية) المعهودة .

والثاني : أنه عند التأمل بالمنافع (المصالح) المتقابلة التي هي
أساس السياسات كلها نجد أن انكلترا أجدر الدول أن تصدقها
دولتنا بصداقتها ، وربما اعترض على هذا الرأي بعض إخواننا

المشتغلين بالسياسة وقالوا : إن تمكين الصداقة بيننا وبين انكلترة قد يخشى منه أن تندرج انكلترة بتمكين قدمها في مصر والكويت .
والجواب على هذا في غاية السهولة وهو أن إمعان النظر في مجموع الأحوال الحاضرة يرشد إلى أن عدم تمكين الصداقة لا يرجحى منه أن يدفع المحذور ، بل قد يرجحى بتمكين هذه الصداقة دفع ذلك الأمر المعروف " (٤٠) .

ومن الجدير بالتنويه أن موقف (الزهرابي) هذا كان في الحقيقة يمثل موقف أقطاب حركة التحرر الوطني في بلاد الشام من المسلمين أمثال (الزهرابي) ورفيق العظم ورشيد رضا) وسواهم وقد كان موقفهم هذا يمثل سياسة (تكتيكية) واجهوا بها السياسة الفرنسية التي كانت لاتكاد تخفي مطامعها في سورية وموقف هؤلاء من (الإنكليز) هو الذي أثار عليهم غضب وحنق رجال الحركة الوطنية في مصر ، على اعتبار أن مصر كانت واقعة تحت حكم الإنكليز .

لذلك فقد سعى الوطنيون المصريون إلى مقاومة السياسة الإنكليزية ، بتكتيك آخر يقوم على الدعوة إلى إعادة مصر إلى حظيرة الدولة (العلية) بالتعاون مع (فرنسا) . وصلات (مصطفى كامل) مع الفرنسيين معروفة على اعتبار أن (فرنسا) هي العدو اللدود لانكلترة . فموقف كل من الحركة الوطنية في مصر وفي سورية وإن كان يبدو مناقضاً للآخر ، إلا أنهما في الحقيقة ينطلقان من سياسة (تكتيكية) واحدة . وقد وقعت مشادات صحفية عنيفة من جراء اتباع السياسات المتناقضة بجهاه (الانكليز) وقد رد (الزهرابي) أكثر من مرة على بعض تلك الحملات ، وقد أشرنا من قبل إلى رده على إحدى الحملات ومن المناسب أن نشير هنا إلى رده على مقال نشر في مجلة (الهلال العثماني) حول العلاقة مع الإنكليز حيث يقول : " مع احتراسنا لرأي الرصفاء كما هو معلوم

من مشربنا نود أن يتذكر رصيفنا أن السياسة المخوفة ليست في إنكلترة وحدها ، بل في أوربا كلها . وأن التفكير لمصلحة الدولة من حيث هي من مقتضاه النظر في كل مسألة من مسائلها من جهات متعددة لا من جهة واحدة " ^(٤١) وإذا كنا قد فهمنا دوافع (الزهرراوي) وزملائه لاتباع السياسة (التكتيكية) المرحلية التي تدعو للتعاون مع الإنكليز ، وذلك بسبب التنافس بين فرنسا الطامعة في سورية وبين (إنكلترة) ، فإننا نظن بأن ذلك التعاون كان باهظ النتائج ، لأنه كان يقوم بين طرفين غير متكافئين . مما أدى إلى وقوع الحركة العربية في نهاية المطاف تحت رحمة المطامع المشتركة لأعداء الأمس حلفاء اليوم . والحركة العربية وإن كانت مضطرة للتحالف مع قوة خارجية ، إلا أن ضعفها ، والجشع الرأسمالي في أملاك الدولة (العلية) ، جعلها (الحركة العربية) كمن (يجعل الضرغام في الصيد بازه) ويجب إلا يخطر ببالنا ولو للحظة أن رجالات الحركة الوطنية العربية كانوا عملاء للإنكليز أوسواهم فقد كان (الزهرراوي) مثلاً يقول عند ذكر مطعم دولة من الدول في أملاك الدولة العثمانية : إن هذا ينال منا بعد أن تزهق أرواحنا ^(٤٢) .

هوامش الفصل الخامس :

- ١ - محمد عبده : الإسلام بين العلم والمدينة ، (القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٦٠) ، ص ١٦٥ .
- ٢ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية - ٩ - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٣ ، ٢٢ حزيران ١٩١١ .
- ٣ - محمد عبده ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
- ٤ - عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق .
- ٥ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .
- ٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " رسالة سرية مرسله من الزهراوي لمحمد رشيد رضا ، نشرت بمجلة المنار ، بعيد استشهاد الزهراوي كما نشرت في مجلة الحرب العظمى .
- ٧ - عبد الحميد الزهراوي ، " الأفراد والجماعات " ، مجلة الانسانية ، الجزء الثاني ، السنة ٢ ، ١٤ / ٥ / ١٩١٤ ، ص ٤١ .
- ٨ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " مصدر سابق .
- ٩ - المصدر السابق .
- ١٠ - المصدر السابق .
- ١١ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية ١ " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٣ ، ١٢ نيسان ١٩١١ .
- ١٢ - المصدر السابق .
- ١٣ - المصدر السابق .
- ١٤ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية - ٩ - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ١٣ ، ٢١ حزيران ١٩١١ .

١٥ - عبد الحسيد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٧- " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٥٩ ، ٢٥ مايس ١٩١١ .

١٦ - المصدر السابق .

١٧ - المصدر السابق .

١٨ - المصدر السابق .

١٩ - المصدر السابق .

٢٠ - المصدر السابق .

٢١ - المصدر السابق .

٢٢ - المصدر السابق .

٢٣ - عبد الحسيد الزهراوي ، " حروبنا الداخلية " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ،
العدد ١١٨ ، ١١ تموز ١٩١٢ .

٢٤ - عبد الحسيد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ،
العدد ٨٠ ، ١٩ تشرين الأول ١٩١١ .

٢٥ - عبد الحسيد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٢- " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٥٤ ، ٢٠ نيسان ١٩١١ .

٢٦ - عبد الحسيد الزهراوي ، " خواطر السياحة -٥- " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٧٩ ، ١٢ تشرين الأول ١٩١١ .

٢٧ - عبد الحسيد الزهراوي ، " النظار -٣- " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ،
العدد ٦٨ ، ٢٧ تموز ١٩١١ .

٢٨ - عبد الحسيد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٢- " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٥٤ ، ٢٠ نيسان ١٩١١ .

٢٩ - عبد الحسيد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٣ ، العدد ١٢٣ ، ١٥ أغسطس ١٩١٢ .

٣٠ - عبد الحسيد الزهراوي ، " إلى قرائنا الأعزاء " جريدة الحضارة ، السنة ٣ ،
العدد ١١١ ، ٢٣ مايس ١٩١٢ .

- ٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، " الأفراد والجماعات " ، مجلة الانسانية ، مصدر سبق ذكره .
- ٣٢ - عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة - ٥ - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٧٩ ، ١٢ تشرين أول ١٩١١ .
- ٣٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " قريتنا السياسية - ٣ - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٥ ، ٢٧ نيسان ١٩١١ .
- ٣٤ - عبد الحميد الزهراوي ، " النظر - ٣ - " . جريدة الحضارة ، مصدر سبق ذكره .
- ٣٥ - عبد الحميد الزهراوي ، " قريتنا السياسية " ، جريدة الحضارة ، مصدر سبق ذكره .
- ٣٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " لاخوف اليوم " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١٢١ ، ٢ اغسطس ١٩١٢ .
- ٣٧ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية لمحمد رشيد رضا ، مصدر سبق ذكره .
- ٣٨ - عبد الحميد الزهراوي ، " بعض أحوالنا الحاضرة ، لانياس وان كانت دواعي الياس كثيرة " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٧ ، ٤ تموز ١٩١٢ .
- ٣٩ - عبد الحميد الزهراوي ، " بعد أربع سنين . سقوط استبداد ثان - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١٢٠ ، ٢٥ تموز ١٩١٢ .
- ٤٠ - عبد الحميد الزهراوي ، " أشياء جديدة - تزيد التكاليف - المفتشون الأجانب - التقرب من الانكليز - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٦ ، ٢٧ حزيران ١٩١٢ .
- ٤١ - المصدر السابق .
- ٤٢ - انظر ، محمد رشيد رضا ، " مصابنا بالزهراوي " ، مجلة المنار ، ج ٣ ، ١٩٦ ، ص ١٨٦ .

الفصل السادس

مقاومة التعصب

التعصب فرع شيطاني من شجرة العنصرية المقيتة ، وتعبير فج عن فكر متخلف وبدائي ، وبقية من الجاهلية الأولى ، أيما كان الوثن الذي يطوف حوله ، أو يتعلق بأستاره . وقد عرفت الإنسانية وما تزال ، نوبات من (هيستريا) التعصب ، هذه الظاهرة التي تشكل حاجزاً يعوق التواصل بين أركان البناء الاجتماعي ، ويمنع الاتصال الفعال والمنتج بين أعضاء المجتمع الواحد .

والتعصب ، وكما هو واضح ، نوع من الخيل النفسية والاجتماعية الفاشلة ، التي لاتستند إلى مبادئ إنسانية من العدالة والحرية والمحبة

و (الزهرابي) بما عرف عنه من حرص على العدل في التعامل مع الآخرين ، ومن تقديمه للعقل والمنطق في تناوله لكل الأمور ، لايمكن إلا أن يكون في الطرف المناقض للتعصب ، طالما أن التعصب يدفع صاحبه إلى إقتراف أعمال هي أبعد مما تكون عن المنطق والعدل والعقل والصواب ، وطالما أن التعصب نوع من التطول على حقوق الآخرين ، وعدوان على حريتهم ، واستلاب

لكرامتهم الإنسانية . و (الزهرراوي) عاش حياته مناضلاً في سبيل
العدالة والكرامة ، ومات شهيداً فداء لها .

والتعصب الذي كان يحاربه يشمل :

- ١ - التعصب الجنسي (العنصرية العرقية) .
- ٢ - التعصب الفكري (الجمود على أفكار معينة) .
- ٣ - التعصب الديني (النعرات الطائفية) .

أولاً - محاربة العنصرية العرقية :

لعل التعصب العرقي ، والعنصرية العرقية ، من أقبح أنواع
التعصب " وأقبح من تلك التعصبات الباطلة الفخر بالأنساب ،
وتخيل الشرف والمجد بالتولد من ذلك الوالد ، وذلك الجلد ، وإن
تلك لأوهام باطلة لاتزوج إلا على العقول العاطلة " (١) .

وتمثل هذا النوع من التعصب بظن قوم أنهم يمتلكون من
الصفات والمزايا والقدرات ما لا يملكه غيرهم فيرتبون لأنفسهم من
دون الآخرين حقوقاً ، ويعتقدون بأنهم الأحق بالقيادة والزعامة .
وقد كان الأتراك عموماً ، وجماعة الاتحاد والترقي خصوصاً ، من
هذا الصنف من الناس ، حين جعلوا من جنسهم الطوراني جنساً
متميزاً ، يمتلك - برأيهم . أنبل الفضائل ، وأزكى الخصال . وقد
كان لاتباعهم العنصري هذا ، أكبر الأثر في إنزال الكوارث
بالشعوب التي كانت منضوية تحت لواء الدولة العثمانية . وكان
للعنصرية الطورانية البغيضة أكبر الأثر كذلك في التعجيل بتفكيك
الدولة العثمانية ، وفصم عرى الترابط - الضعيفة أصلاً - بين
شعوبها .

وقد حاول (الاتحاديون) في سبيل تزيين دعواهم العنصرية ، وترويجها ، أن يزوروا التاريخ ، وينسبوا للأتراك مالميل لهم من المفخر ، ويضموا إلى صفوفهم علماء وقادة ومشهورين لم يجر في عروقهم الدماء التركية من جهة ، ولم تكن ثقافتهم . إن كانوا أتراكا . ثقافة تمت إلى الأتراك بصلة من جهة ثانية . وقد نعى (الزهرراوي) على هؤلاء تدليسهم ، وتزويرهم للتاريخ ، وادعاء مالميل لهم بحق . ودعا قومه العرب للانتباه واليقظة " لا يؤخذ على من يحتفظ بآثار قومه ، وينشر محاسنهم ، ويستنهض همم أبنائهم للاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ، ولا ينكر عليه أن يبذل أقصى ما في وسعه لتخليد ذكرهم ، لأن ذلك من مقتضى طبيعة النوع ، ومن أشد عوامل الإرشاد تأثيراً كما قلنا . وإنما يؤخذ عليه إسرافه في ذلك ، وتبجحہ بالباطل ، وتزيينه بمالميل عنده . ثم يتضاعف عليه النكير ، إذا انتحل حق الغير ، وأغار على مفخر الأقسام (إذا أعوزته المفخر) ، فنسبها إلى قومه ، وعدى على آثارهم فحاول طمسها ، ليتسنى له إضافتها إلى ذويه " (٢) .

فالزهرراوي إذاً ضد الادعاء ، وضد المبالغة في المبالاة الباطلة بأبجاء الأجداد ، لأنه يعتبر ذلك عدواناً وظلماً لأنه : " من العدوان المبين الذي مضى على إنكاره الشرع والعقل ، ونبت عنه طبائع الناس وتقاليدهم ، واشتأزت منه نفوس الذين يتذوقون معنى المناقب الموروثة والمفخر الماثورة " (٣) وقد كان الزهرراوي بكلماته السابقة يعلق على محاولة الاتحاديين تزوير التاريخ ، ونسبة الكثير من المفخر والأبجاء للأتراك بالباطل ، وذلك حين أقاموا مهرجاناً خطايا في أحد مسارح (استانبول) خصصوه للتأكيد على أن التتار والأتراك جنس واحد ، وأنهم من أصحاب الحضارات والمدنيات . بل وقد ذهب بأحدهم الخيال إلى حد الادعاء بأن الأتراك هم مؤسسو مدينة بابل ، وأن الأتراك والمصريين - بالتالي - هم أساتذة الدنيا .

وقد تهكم الزهراوي على الكثير من الدعاوي التي قيلت في هذا المهرجان ، وسخر من سعي الاتحاديين الجنوني لصنع ماضٍ مجيد للأتراك ، بأي ثمن كان . وتهكم على زعم أحد الخطباء بأن الأتراك سعوا في ترقية المدنية الإسلامية ، وادعائه بأن الكثير من أعلام الفكر العربي الإسلامي هم من أصل تركي ، من أمثال (الفارابي وابن سينا والبخاري) والخوارزمي وسواهم . وزعم أن هؤلاء لم يعدوا عرباً إلا أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، وكأن الإنسان يحتاج إلى شيء آخر حتى يكون عربياً سوى المشاعر والإرادة ، وما نظن أولئك الأعلام الأفذاذ كانت لديهم الرغبة في أن يكونوا اتحاديين طورانيين .

والاتحاديون ، إلى جانب دعواهم بأن الطورانيين جنس متفوق ، له أن يقود ، وماعلى الآخرين إلا السمع والطاعة ، حاولوا طمس مقومات القوميات الأخرى في الدولة ، وهدم حقوقها ، وإرجاعها كلها إلى إرادة ورغبة الاتحاديين ، الذين جعلوا من الخوف من وقوع الفرقة بين عناصر الدولة " ذريعة لهدم حقوق العناصر (القوميات) والقضاء على مميزاتها ، ومقومات حياتها ، وتحويلها إلى عنصر مخصوص (الترك) ، تفنى إرادتها في إرادته ، وتخفى أشخاصها في شخصه ، وتسخر قواها لخدمة منافعه . هذا إلى ما أهرقته من الدماء البريئة ، واجترأته من الإرهاب والتعذيب والحرمان والتذليل لمن خالف مبادئها واستنكف عن خدمة غاياتها" (٤) بل لقد ذهبت العنجهية بالاتحاديين إلى حد ترويج أفكار خاطئة في أذهان بسطاء الأتراك ، بغية نفخ أوداجهم بروح التعصب المقيت ، حتى أصبح الأتراك " يظنون أن كل هذه الملايين (العرب) تعيش تحت الخيام ، ولاقوت لها سوى لحوم الإبل وألبانها ، وللباس لهم إلا النسيج من أوبارها " وكلمة (عرب) ترادف في لغتهم الدارجة (الأسود) وليس هذا من أصل لغتهم وإنما هذا مما طرأ على الدارجة عندهم " (٥) .

والزهرراوي ، مع كل ما كان يعرفه ويلمسه ويعانيه من
العنصرية التركية على يد جماعة (الاتحاد والترقي) ، ومع اشمئزازه
من دعايرهم ، وتهكمه من مقولاتهم ، لم يكن ليسمح لنفسه
بارتكاب الخطيئة نفسها ، واللجوء من ثم إلى ردود الفعل ، ليعلن
مثلاً بأن العرب من أذكى الشعوب وأعرقها وأكفئها ، فهو مع
اعتزازه بالعرب ، وفخره بانتسابه إليهم ، إلا أنه ينطلق دائماً من
منطلقات العقل والمنطق والعلم : " فإنه لا معنى عند أهل العلم (علم
النفس وما يصلحها وعلم الأخلاق) لتعصب كل قوم على آخرين
بغير الحق إلا الإثم والعدوان والبغض والطغيان " (٦) . وهو حين
يدعو قومه العرب إلى الاهتمام بتاريخهم وأجدادهم وحين يث فيهم
روح التجدد ليعملوا على النهوض ، وتكثير العلماء بينهم ، فإنه
يدعو لمثل ذلك لكل شعوب الدولة العثمانية ، ويرفض أن تصدر
أجداد أي شعب ، وحقه في الاهتمام بخصوصيته ، بدعوى الحفاظ
على الاتحاد (العثماني) " فمن لا قومية له لا يأمنه على الوطن إلا
حائن " .

ثانياً - مقاومة الجمود ورفض التعصب الفكري :

ونعني بالجمود الفكري الاقتناع الأعمى بما نقل عن
المشهورين الأقدمين والمحدثين من الآراء والأفكار ، فالجامدون
أولئك الذين تخلوا عن عقولهم لحساب عقول الآخرين . . . " أما
استحسان كل المعقولات ، فمن أهل الفكر نتيجة نظر وتأمل ،
ومن أهل التقليد نتيجة ثقة بالمقلدين ، والأولى أن لا يعد استحسان
هؤلاء استحساناً ، لأننا إذا أدخلناهم في صف من لا فكر لهم من
المخلوقات لم يكن عملنا غير الصواب ، لأنه هو المطابق لروح
الواقع . . . " (٧) وهذا التقليد الأعمى للمشهورين من القدماء ، هو

الذي حمد العقول ، وأدى إلى تراجع الأمة " ولأنظر ماذا يقول الذين غلوا في حسن الظن بعقول من تقدمهم ولو بنزر قليل من السنين ، ذلك الظن هو الذي عظم شأن تلك السيطرة التي قيدت الأبواب ، وأغلقت الأبواب ، وقطعت الأسباب ، وقام مقام سلطة الأرباب " ^(٨) فهو يعتبر الجمود عند أقوال الآخرين ، خاصة المشهورين من القدماء ، نوعاً من العبودية التي يجب التحرر منها ، لذلك نحده يقسو كثيراً على المقلدين ، ويشور عليهم ، ويدعو إلى تحطيم كل القيود التي تكبل العقل دون أن يعبأ بما يجره عليه ذلك . " ولعل فريقاً من الذين يقدسون الأزمنة بقدمها يلوموننا على هذا الكلام " ^(٩) وقرر أن يمضي بهذه الطريق حتى النهاية ، لأنه اعتقد أن الكثير من المشكلات التي تواجهها الأمة ، إنما نجمت عن تمسك الجامدين بأقوال مشهورة ، والوقوف عند ظاهرها ، دون محاولة عرضها على محك العقل والمنطق . وسوف نعود للتفصيل في قضية التجديد والتقليد ووجهة نظر الزهراوي في الموضوع في مكان آخر من البحث .

ثالثاً - مقاومة التعصب الديني :

اللعب على الوتر الديني والطائفي ، نشاط أتقنه الاستعمار، إذ وجد فيه الفرصة التي نفذ منها إلى الدولة العثمانية ، المشكلة أساساً من فسيفساء كبير من الليل والنحل والطوائف والأديان . وكم كان الأمر محزناً وفظيعاً ، حين نجح الاستعمار في لعبته الدنيئة، ووجد من يتفاعل معها إلى درجة القطع التام مع أبناء وطنه وجيرانه . فشهدت المنطقة العربية لأول مرة ، ماصار يعرف بالطائفية . وصدق بعض المخدوعين والمضللين ، مأوحاه لهم الاستعمار ، فتحولوا دون أن يدروا ، إلى وقود لهذه الطائفية ، التي

كانت بمثابة حصان طروادة الذي حمل الاستعمار إلى عمق الوطن .
وقد ذكرنا من قبل كيف أدى التجار والسماسرة والمبشرون هذا
الدور بإتقان .

وقد حاول قناصل الدول الأوربية غرس الفتنة ، ليس بين
المسلمين والمسيحيين فقط ، إنما بين الطوائف المسيحية المتعددة . إذ
احتضنت كل دولة فئة من المواطنين وأغدقت عليهم ، أو بالأحرى
على زعمائها النعم والمزايا المختلفة : والمخدوعون فقط هم الذين
صدقوا ومازالوا ، أن الاستعمار كان مخلصاً في احتضانه لفئات من
المواطنين وادعائه أنه حاميه ومنقذها . . . والمضللون فقط ، هم
الذين انطلت عليهم هذه الحيلة ، فاندفعوا وراء المخططات الخبيثة
للدول الأوربية ، وأقدموا على اجتراح أعمال كانت السبب في
إحداث شرخ هائل في البنيان الاجتماعي الذي ظل متماسكاً قروناً
عديدة .

وقد تفنن المبشرون والقناصل في إثارة الروح الطائفية ،
وروح العداوة والكراهية ، بين أبناء الوطن الواحد ، والأمة
الواحدة . كما تفننوا في إغراء شعوبهم الأوربية لتأييد مخططاتهم
ومشاريعهم ، تحت ستار الدين تارة ، والمصالح الاقتصادية تارة
أخرى . فكانت رسائلهم وخطاباتهم إلى دولهم ، وإلى الجهات
المهتمة بنشاطاتهم ، تضحج بالتحريض . ففي الرسالة التي بعث بها
القنصل الفرنسي بدمشق إلى المكلف بأعمال القنصلية الفرنسية في
(استانبول) بتاريخ ١٩١٤/٢/١٩ نستطيع أن نجد هذه الروح
العدائية تجاه العرب وتجاه الحضارات الأخرى . فهو يدعي بهذه
الرسالة بأن الدين هو المحرك الرئيسي للأحداث في الشرق ويشير
إلى أن الرجعي المتخلف ، والتقدمي الثوري ، والذي درس في
معاهد أوربا ، كل من هؤلاء يعمل في النهاية وفق معتقده الديني ،
ووفق الكتب المنزلة . لذلك فهو (القنصل الفرنسي في دمشق)

ينصح برعاية الطوائف الصغيرة ؟ وتشجيع الطوائف غير الإسلامية ضد الحركة الإسلامية . وهو يفسر الحركة الوطنية العربية التي كانت تسعى للتحرر من العثمانيين ، وبناء النهضة العربية ، تفسيراً دينياً ، حين يدعي بأن الأحزاب التي شكلت في دمشق (المحمدي - الائتلافي - الإصلاحية) لم توجد إلا لنصرة الدين العربي ؟ وإن المشاعر التي سعت لتحريكها هي مشاعر تجديد الخلافة العربية ، ونصرة دين محمد والعرق العربي . ويؤكد على وجهة نظره القائلة بأن الدين هو المحرك الأول والفعال لكل الأنشطة السياسية والاجتماعية والوطنية مسقطاً كل الأسباب الموضوعية : " لا تجد أحداً أكثر لامبالاة من شعوب هذه البلدان عندما لا يكون الدين معنياً ، وعندما لا يوقظ تعصبهم الديني من قبل القادة الذين يوجهونهم ويضبطونهم حسب الرغبة " . ويمضي في التهجيم على الشعب العربي فيصف السوريين بأنهم " قشة تجمعهم والعصا تفرقهم . . . والقادة لا يخضعون إلا للمصلحة الشخصية وإلا للمشاعر غير المستوحاة طبعاً من الحب . وهنا لا يعتبر وطنياً ونشيطاً ذلك الذي يحب بلده أكثر ، إنما ذاك الذي يتقن بغض المسيحيين ؟ والتسامح فضيلة قليلة الشيوع في سورية ؟ والإخلاص الصادق للصالح العام أكثر ندرة " (١٠) إن مثل هذه الدعاوي التي كانت تشغل القناصل الأوربيين (الفرنسيين - الانكليز - الألمان) لم تكن بطبيعة الحال غيرة على الدين المسيحي ، أو حرصاً على مصلحة المسيحيين ، الذين هم في الحقيقة أولاً وآخرأ مواطنين عرب ، في منطقة عربية ، بغض النظر عن معتقدتهم . إنما كان بقصد خلق التربة الصالحة لنمو الجرثومة الاستعمارية ، وبقصد خلق البلبل في الصغوف ، وبقصد خلق نقاط ارتكاز للوثوب منها على المنطقة ، باتباع سياسة فرق تسد . فاحتضنت كل دولة أوربية طامعة في المنطقة فئة من دون الآخرين ، وحاولت أن توحى

اليها بأنها حاميتها ، وبأن بينهما من العلائق التي تقوم بينهم وبين مواطنيهم وجيرانهم الأقربين . وقد نجحت هذه السياسة الشيطانية إلى الدرجة التي دفعت بعض المغرورين للدعاء بأنهم جزء من أوربا، وأن حضارتهم (كفئة متميزة) جزء من الحضارة الأوربية . أو لقلب هذه المقولة ، في محاولة لدغدغة المشاعر ، والقول : بأن حضارة أوربا جزء من صنيع أجدادهم .

وبدأ زعماء كل فئة يوجهون البسطاء والعامية باتجاه الجهة التي تمولهم (الزعماء) . لذلك كان حرص القنصليات على اصطيد بعض الأفراد المتنفيين بطوائفهم واحتضانهم والإغداق عليهم بسخاء ، نشيطاً وقريباً .

فإلى جانب إتاحة فرص التعليم لأبنائهم وأقاربهم ، جعلت منهم وكلاء لمصالحها المختلفة ثم عمدت إلى تسريهم لصفوف الحركة العربية في محاولة لإحتوائها وتوجيهها . وقد كتب القنصل الفرنسي في دمشق إلى وزير خارجية بلاده " . . . وصرح المسيحيون الذين اتصلت بهم أنهم لا يرجون نفعاً من انضمامهم لجمعية الإصلاح مع المسلمين سوى تدخل فرنسا وهم يعتقدون أن سورية لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها وإن كانوا لا يصرحون للمسلمين بذلك " (١١) ، والمسيحيون الذين يعنيههم (سعادة القنصل) هنا لا يشملون بطبيعة الحال المخلصين لعروبتهم ، إنما يشملون أفراداً رباهم المبشرون والقناصل والجواسيس . فهذا (خليل زينية) صاحب جريدة (الثبات) البيروتية ينضم إلى حركة الإصلاح وهو يحمل بين جنبيه فكراً مشبعاً بما كانت البعثات الفرنسية - على أنواعها - تحقنه في العقول وفي النفوس . نقول هذا (خليل زينية) يحمل رسالة إلى القنصل الفرنسي في بيروت يضمونها مطالب المسيحيين - على زعمه - وقد جاء في هذه الرسالة " . . . وتصل عقلية المسلمين في الواقع إلى اعتبار

المسيحيين المسؤولين الفعليين عن المصائب التي تحمل بالامبراطورية إلى حد اعتبارهم الأعداء الحقيقيين وسيكون المسيحيون موضوعاً لكل أنواع الابتزاز ولكل أنواع الاستبداد ٠٠٠ (وبعد أن يبين رأيه بأن لا أمل في الإصلاحات يتابع) ٠٠٠ وحتى في حال الافتراض بأن الإصلاحات ممكنة التطبيق - مع أو بدون موازنة أوروبا - فإن هذا الحل لا يمكن أبداً أن يستجيب لأمني مسيحي سورية الحقيقية ؟ فهؤلاء مرتبطون بفرنسا ارتباطاً نهائياً ٠٠ إن الأمانة الكبرى لمسيحي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية " (١٢) .

وتجدر الإشارة هنا أن (خليل زينية) هذا وأمثاله كانوا مكشوفين من قبل حركة الإصلاح (البيروتية) ومن قبل (الزهرراوي) . لذلك تؤكد مرة أخرى أن كلام (د. وجيه كوثراني) ليس دقيقاً فيما يتعلق (بالزهرراوي) وأعمال المؤتمر العربي في باريس حيث نجد في الرسالة السرية التي أرسلها (الزهرراوي) (محمد رشيد رضا) شيئاً يتعلق (بخليل زينية) ومن لف لفه فبعد أن يصف كيف كانت أعمال المؤتمر ملفقة وكيف بذل الوسع لإخراجه (مزونقا) يقول : " وبقيت - يا عزيزي - وحدي أمثل الفكرة (العربية) من وجهة نظر اللامركزيين " وبقي (خليل زينية) وأيوب ثابت) وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية (الأمة العربية) ولاقطرة واحدة حتى ولا من الجامعة السورية وإنما همهما بيروت وحدهما لا شريك لها ولكن لأنهما متعلمان سايراني وسايرتهما ٠٠٠٠ ولم يكن مثل هذا التواد ولاربعه بينهما وبين رفقتهم من البيروتين المسلمين " (١٣) .

وهذا (شكري غانم) يقول في رسالة له إلى (مسيو بيشون) وزير خارجية فرنسا آنذاك "إننا نعمل من أجلها (فرنسا) ومن أجل بلدنا"*(١٤) .

ودفعاً لأي التباس لابد أن نذكر هنا بأن الذين ساروا في طريق العمالة للمخططات الأوربية عامة ، والفرنسية خاصة ، هم أفراد وليسوا طوائف ، إذ كان من بين المسيحيين زعماء للحرية العربية ، وسيظل هؤلاء أعلام نضال تذهبي بأعمالهم صفحات التاريخ العربي الحديث ، كما إن بعض أفراد من طوائف أخرى (غير مسيحية) كانوا من جملة العملاء دخلوا صفوف الحركة العربية سعياً وراء المكاسب الشخصية .

ونود أن نؤكد مرة أخرى أن بذور الطائفية الحثيثة إنما تعود إلى السياسات والأطماع الأوربية في الوطن العربي ، ولا تعود لأي سبب عقائدي - عند كل الأطراف المحليين - والدليل على ذلك أن الوطن العربي لم يعرف مثل هذه الاصطدامات . وإن حدث وجرت بعض الأحداث المتفرقة ، فهي حوادث فردية منعزلة ولا يستطيع أحد أن يربط بينها بسلك (ايدولوجي) مهما حاول . أما ماسمعنا عنه من فتن طائفية في القرن الماضي ومازلنا نتوجس من شبحه المخيف فإن أسبابه الحقيقية أسباب خارجية استفادت منها بعض الفئات المرتبطة بالمخططات الأوربية . وعندما نقول فئات فلا نقصد أتباع دين معين ، إنما نقصد أفراداً استفادوا من الصيد في هذه البركة الآسنة ، فجروا وجروا وراءهم بعض المضللين من أبناء طبائفتهم ، أياً كانت هذه الطائفة . وإلا كيف نستطيع فهم

* نجد في كتاب د . ذوقان قرقوط - المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ، قراءة في تاريخ سورية المعاصر - عدة رسائل أرسلها (شكري غانم) بعد الانتداب إلى المسؤولين الفرنسيين يبارك خطواتهم ومخططاتهم تجاه سورية .

الأحداث الرهيبة التي أنزلتها بعض الطوائف بالطوائف الأخرى " فالاصطدامات مع النصارى لم تكن في الغالب إلا للاحتجاج على تعاون المتنفذين من هؤلاء مع أعداء العامة ومهددي مصالحها وإلا للاحتجاج كذلك على المزايا التي حصل هؤلاء عليها من دون الآخرين والدليل على ذلك أن النصارى لم يكونوا ليؤذوا حتى في أحلك الظروف عندما كانوا بعيدين عن جو الامتيازات... وعلى الرغم من انعدام السلطة الرسمية ، واستفحال أمر الفوضى في أحداث أيلول عام ١٨٣١ فان العامة الثائرة لم يبد منها أي أثر للتعصب ضد النصارى ... " (١٥) فالأحداث والفتن التي حدثت تعود إذا لأسباب اقتصادية والاستعمار هو الذي وضع مصالحه وجعل وكلاءه من أفراد فئات معينة - عن قصد بالطبع - وهذه الفئات التي صارت وكيلة للشركات الأوربية الرأسمالية هددت بالتالي مصالح شرائح واسعة من الحرفيين والعامة وسببت الكثير من الأزمات ، فكان لابد من معاداتها ، انطلاقاً من المصلحة الاقتصادية ، والدفاع عن الذات وعن الوجود ، وليس انطلاقاً من أسباب دينية أو طائفية . وإذا كان " المسيحيون قد ربطوا أنفسهم بعملاء القوى الغربية الذين كان نفوذهم يتزايد في المنطقة ، ومن الواضح أن المسيحيين قد دفعوا إلى هذا التصرف بأنانيتهم الطائفية دون أدنى اهتمام بمشاعر جيرانهم المسلمين ولم يكن من المحتمل أن يسر مثل هذا السلوك الطريق إلى نظام اجتماعي يتجاوز الطوائف الدينية بل على العكس خلق توتراً داخلياً بين الطوائف وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى القلاقل عام ١٨٦٠ بيد أنه كان هناك مسيحيون آخرون استطاعوا أن يروا الأخطار التي ينطوي عليها مثل هذا السلوك " (١٦) .

فجرثومة الطائفية ، والتعصب الديني ، مستوردة وغريبة عن مشرقنا الذي عرف دائماً التعددية المذهبية ، والذي تعايشت على

أرضه الآراء والعقائد المختلفة . فلم يشهد الشرق حتى في أحلك أيامه الفتن الطائفية والدينية . حتى عصر الشهداء ، الذي لاقى فيه المسيحيون المؤمنون ملاقوه من الأذى والعذاب والتنكيل مما اضطرهم إلى الالتجاء إلى رؤوس الجبال ، وإلى أعماق الصحراء حيث كان المؤمن منهم يحمل صليبه ، ويتوقع أن يقوده إيمانه إلى حتفه في كل لحظة ، فان ما كان يلاقيه هؤلاء المؤمنون لم يكن على يد جيرانهم ومواطنيهم ، إنما كان على يد الرومانيين (الأوربيين) الذين لم يكن أفقهم يتسع لاحتمال مثل هذه (المرطقة)

والذي قصدنا إليه من كل ما ذكرناه أن المنطقة كانت مسرحاً للعبة استعمارية كريمة ، تهدف إلى فصم عرى الجوار والمصلحة والمحبة بين أفراد المجتمع الواحد ، وذلك بقصد خلق الظروف المواتية لتسلسل البضائع والمصالح والمخططات الأوربية . ولم يكن يهم مدبري تلك اللعبة مدى قذارة الوسائل التي استخدموها . وإن كان ليحزننا أن يقع البعض - من كل الفئات والجهات - ضحايا لهذه الوسائل الخبيثة . ويحزننا أكثر أن هذه السياسة قد أدت إلى وقوع الكثير من المآسي والفظائع التي ارتكبت - ظلاماً - باسم الدين . ويحزننا ويخيفنا أكثر أن تجد هذه السياسة القدرة من يتبناها ويتخذها عقيدة ومنهاجاً ، ويعمل بهديها ، فيعزل نفسه عن محيطه ، ويلتحق بفكره وتفكيره ، بالمشروع (الامبريالي) وينطلق بخطابه السياسي والأيديولوجي من منطلقاته .

ولكن كيف حاول المتشورون من مفكري عصر النهضة مواجهة هذا المخطط الرهيب ؟ إننا سندرك ذلك من خلال ما فعله (الزهرابي) في مواجهة هذه المؤامرة الخسيسة ، والتي كانت قد بدأت تأخذ أبعاداً وأنماطاً متعددة المظاهر تهدف إلى تفكيك الدولة العثمانية واقتسامها أكثر من أي شيء آخر وقد انطلق (الزهرابي) في تصديه لهذا المخطط من منطلقات عقلية ومنطقية

كعاداته دائماً ، فهو في البداية حاول أن يؤكد على أن الدين كله لله ، وإن اختلفت الأساليب والشرائع في عبادته والتقرب إليه » دين الرسل كلهم واحد في الحقيقة ، وإنما تختلف نشأة الأديان ، وفروع تعاليمها ، وسرعة نشرها ، ومنهاج إقامتها ، باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص . لذلك ترى الذين سلمت فهمهم من غوائل التقليد ، لا يفرقون بين أحد من رسل الحق " (١٧) فالأديان " تختلف صورها ، وجوهرها واحد » (١٨) ويؤيد مذهبه في وحدة الدين - في جوهره - بأدلة من القرآن الكريم ومن الإنجيل فمن القرآن " قل يا أهل الكتاب (علم على اليهود والنصارى) تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (هي) أن لا نعبد (أي) لانرجوا ولا نخاف شيئاً من الأشياء رجاءً يقارنه حب واحترام وشوق وهيام وخوفاً يقارنه هيبة وإعظام وخنوع واهتمام) إلا الله (الصانع المدبر من به قوام الكوائن وإليه يعود نظامها) ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً (أي بمقام الأرباب من السلطة المطلقة) من دون الله (بل لله وحده السلطة المطلقة والكمال المطلق والقدس المطلق) ، أفلم تروا أن قوله (سواء بيننا وبينكم) يفيد مانحن بصدده من وحدة جوهر الدين " (١٩) وقد أورد بعد ذلك جملة من الآيات لتأييد ما يذهب إليه ثم أورد شواهد من الإنجيل منها : " سئل السيد المسيح : يا معلم أي وصية هي العظمى في الناموس فقال له يسوع : تحب الرب من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، هذه هي الوصية الأولى والعظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء " *

ألم تروا كمال المطابقة بين ما عبرنا عنه هنالك وبين ما عبرنا عنه هنا " (٢٠) وبعد ذلك يحاول أن يبرهن على وحدة جوهر

* إنجيل متى - سفر الأنبياء . ص ٦٦ .

الأديان بطريق العقل والمنطق " إن فروع كل قانون من قوانين العالم في الأخلاق وفي نظام الاجتماع تكون بحسب الجليل والقييل ، وقد يحدث في فهم المخاطبين بها تفاوت فيكون البون بين قانون وقانون، وهذه أمثلة من ذلك :

١ - في بعض الأجيال سن عمل شيء لتأليف القلوب وفي أجيال أخرى كان ذلك العمل من مفرقاتها ،

٢ - في بعض الأجيال شرع عمل لضرورة وفي أخرى لم تكن الضرورة تلك ،

٣ - خطب قوم برموز فأخذها آخرون على ظاهرها وخطب قوم بصريح فقالوا هذه رموز ،

٤ - رغب قوم بسعادة الحس وأرهبوا من شقائه ، وآخرون رغبوا بسعادة الغيب وأرهبوا من شقائه ، وشوق آخرون للأمم ، وهام السالون بفهم الأولون بوسائل الملك والغلبة على الأمم ، وهام السالون برفض النعيم في هذا العالم وعدم المبالاة بمحيمه ، واعتدل الآخرون فطلبوا نصيباً من ههنا وههنا ، واشتغلوا بكلتا الوسيطتين ، فكيف تتساوى الفروع ههنا فأنتم ترون من هذه الأمثلة وماستقيسون عليها أن الوسائل ضروري فيها التغيير وما كان التغيير فهل يكون الروح واللهب " (٢١) ،

وبعد أن يؤكد أن الدين واحد ، وأن المناهج والشرائع هي التي تختلف وتتبدل بتبدل الأقوام والأزمان ، وبعد أن يؤكد على الفرق الكبير بين الدين (الجوهر) وبين الشرعة (المنهاج والوسيلة) يقول بصراحة مدهشة : " وأنا لسائلوهم هل لب الدين تلك المسائل التاريخية ، التي وقعت كما وقعت ثم اختلف التعبير عن كيفية وقوعها . . . وسائلوهم هل منتهى الدين أمور تتعلق بالعادات البشرية ، من قيام وقعود ؟ وسهر وجوع ؟ وشبع وجوع ؟ وذهاب

ورجوع؟ وإقامة ورحيل؟ وإعلاء وتنزيل؟ وأمور أخرى تتعلق بالأبدان؟ من لحم وشعر وظفر وأسنان . أو هذا هو الدين ؟ أو هذا كل الدين ؟ . وسألوهم هل مبلغ زلف المتدينين أن يفني بعضهم بعضاً إن استطاعوا ؟ أو يقبل ما قبل الغالب ؟ إذن أين حرية التفكير ؟ إذن أين الفضيلة للمكره فيما يأتيه بظاهره وينكره بباطنه؟^(٢٢) . وبعد أن يفطن إلى أن كلامه قد يفهم منه أنه متحرر من تلك العادات والأعمال البشرية (العبادات) يسارع إلى الإجابة عن ذلك بأنه يباشر العبادات الإسلامية لكن دون أن ينسى أن دافعه لذلك ليس بمجرد التقليد وإنما يرجع لأسباب عقلية : " أمّا نحن فيسألنا سائل من أهل الملل قائلًا : هل أنت تنكر الوسائل مطلقاً ؟ وهل الوصول إلى دينك الركنين يكون بلا وسائل ؟ وهل أنت غير معتبر لوسائل دين من الأديان ؟ وبهذا الاعتبار ألا ترد غيرها ؟ وحينئذ فما ثمرة تطويلك هذا الذي لا يغنيك مثل غيرك عن تفنيد الذاهبين إلى وسائل شرعة أخرى ؟ فنقول لهؤلاء : إنه من المؤكد أننا نقبل الوسائل التي في دين محمد (عليه السلام) لأنها قسمان :

١ - قواعد عامة شرعية يمكن البناء عليها في كل زمان ومكان ،

٢ - قواعد عامة أدبية معينة ومساعدة للقواعد الشرعية ،

ومن شاء أن يسألنا من قاعدة منها لا يقبلها العقل فليفعل .

ولكن قولنا ذلك هل يمنعنا من تذكر القاعدة العظمى التي يبنى عليها الإخاء الكبير ؟ وإني لما رأيت الناس (منهم) من نسوا الجوهر الذي منه وإليه كل الأديان ، ومنه وإليه صلاح الإنسان ، وظنوا أن الخير كله والدين في مخالفة غيرهم في كل شيء . ومنهم من فهم وسائلهم فانقسموا على أنفسهم ، ومنهم من أقاموا ناساً منهم مقام المرشدين الذين يعتقدون عصمتهم ،

فعبثوا بالمقاصد والوسائل عمداً أو خطأ ، ومنهم من ليس له من الأديان إلا النسبة التي أصبحت بمقام النسبة للقوم " (٢٣) . وبعد أن يرد قول من يقول بأن الأديان كانت دائماً سبباً للتقاتل والتذابح يقول : " فيا لله العجب ، هل حدث هذا التذابح يوم حدثت الديانات ؟ أم هي سنة البشر من قبل ؟ ألم يكن من ثمرات الأديان تخفيف ذلك التذابح القديم ؟ ألم تحشر الشعوب الكثيرة المتغايرة . . . تحت رايات قليلة هي رايات الأديان ؟ " (٢٤) .

وبعد هذا الحديث المدهش عن وحدة الأديان ، وكيف أنها انطلقت من منبع واحد وأن الاختلاف بينها في التفاصيل والوسائل لا بالجواهر بجده يستغرب أن يكون الدين سبباً من أسباب الفرقة والاختلاف بين أبناء الوطن الواحد . ويشمئز من استغلال الدين لإثارة النعرات " مأسبق الناس كلما حدثت حادثة لتحريك سلاسل الدين ، وما أكثر نسيان الناس للتجارب . ينسى الناس سيئات أنفسهم ، وخطيئات حكوماتهم ، ويعمدون إلى ادعاء أن عدوهم لم يتهجم عليهم إلا لأنهم مخالفوه في الدين وينسى الناس أن وطننا مؤلف من أقوام دياناتهم متخالفة ، وأنه ليس من الحكمة ولا من اللباقة الفرع إلى النعرة الدينية " (٢٥) .

وقد كان (الزهرراوي) واعياً تماماً لمخاطر إثارة النعرات الدينية والطائفية ، وما يترتب عليها من تفتيت الوطن الواحد . وبرأيه وكما يبدو واضحاً من كلامه السابق ومما سيلي بأن الوطنية أقوى الروابط وأسمها ، لأنها رابطة توحد وتصهر كل الطوائف . وهو مع انتباهه لدسائس الأوربيين ، وإثارتهم للنعرات الدينية ، فإنه يرفض القول بأن أوروبا في هجومها على الشرق إنما تفعل ذلك بدافع ديني : " اللهم هل هذا كاف في تذكير الناس أن هجوم الغرب على الشرق ، ليس هو هجوم دين على دين ، إنما هو هجوم قوة على ضعف ، وعلم على جهل ، وغنى على فقر ،

فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء " (٢٦) . فهو لا ينحدر
بالمظاهر، ولا تفرت عليه لعبة حماية الطوائف في الدولة العثمانية ،
ويدرك أن ذلك مجرد وسيلة للحصول على الامتيازات المادية، ويبين
أن قواعد الإسلام أبر منهم بأبناء أمتهم ووطنهم : ويسفه الرأي
الذي يقول بتعصب المسلمين وظلمهم للمسيحيين . - هي نعمة
كان يرددها الأوربيون كثيرا - متذرعين بما كان يقع على يد
الجهلة في مكان ما وزمان ما . فيقول : " كيف ننسب تعدي
بعض المسلمين على بعض المسيحيين إلى الدين ، وننسى الذي يقع
مثله ألف مرة من تعدي المسلمين ؟ لعمرك نحن أكثر إنصافا إذ
لا ننسب ما نعرفه من أحوال هؤلاء الأوربيين إلى دينهم كما
ينسبون أحوال بعض أفراد أوطائف منا إلى ديننا . نحن نعرف
والحمد لله تعالى ماهي التعاليم الشريفة التي جاء بها السيد المسيح
(عليه السلام) ونعرف ما عليه هؤلاء الأوربيون ، ولذلك نقول : إن
أوروبا لا تنهجم على الشرق بسائق تعاليم دينية بل بسائق مناهج
رومانية ، ورثوها مع ماورثوا من الرومان . ومعلوم أن مقتضى
تلك المناهج الرومانية التغلب على الأمم لاستثمار تعبها ،
وتسخيرها للأهواء . وهل ينتظر غير هذا من حكومات لم يقم
أصلها الأصيل على أساس من شأنه أن لا يحمل قوما على مبادأة
آخرين بالشر لأغراض ومآرب شخصية " (٢٧) .

ثم إنه يعود فيرد على اتهام الدول الأوربية للمسلمين بأنهم
يوقعون الأذى بالمسيحيين وأن المسيحيين بالتالي بحاجة إلى حماية
فيقول إن ملاقاة المسيحيون على يد المسيحيين أنفسهم في أوروبا
وسواها يفوق كل وصف ويتساءل : هل المسيحية التي أصبحت
تعلم وتتلئ تحت المصاييح الذهبية هي عين تلك التي لم يكن أهلها
المساكين متباغضين إذ كانت تعلم وتتلئ في الخلوات . . . ثم
يتساءل عن مصير المخالفين من المسيحيين وماذا كان حكم المجامع

التي دعا إلى عقدها ملوك أوروبا وماقلل عددهم هل هو تحول الفكر
أم قللهم السيف ثم إن ملاقاه مسيحيو الشرق على يد
الأوربيين كبير فقد جاء الإسلام محرراً لهؤلاء :

" ألا إن الإسلام جاء والسيف مصلت ، قد سله الرومانيون
المسيحيون على المصريين المسيحيين ، والسوريين المسيحيين ، وقد
اتخذوهم بذلك السيف عبيداً وخولا ولم يتخذوهم أخوة . . .
فالإسلام إن كان قد رفع سيفاً حين ظهر وقوي فهو إنما رفعه
ليسقط ذلك السيف (الروماني) الجائر . ويؤيد قاعدة (لا إكراه في
الدين) تلك القاعدة العظيمة التي كانت تهددها طبيعة الحكومة
الرومانية التي لم يقمها دين بل أقامها الشره البشري . ولم يرفع
الإسلام سيفاً ليجعل المغلوب مسلماً أو عبداً ، بل ليوجد حكومة ،
من رضي بها ، وتوطن في بلادها ، كان له مالمسلمين وعليه
ماعليهم . . . والشيء الذي ينكره المسلم كل الإنكار هو أن
يكون المسلمون قد استعملوا السيف للإكراه على قبول الإسلام ،
والشيء الذي لا ينكره هو استعمال السيف لإقامة حكومة إسلامية .
إقامة الحكومة شيء ونشر الدين بالسيف شيء آخر " (٢٨) .

ويرفض أن تكون الحروب المستمرة بين أوروبا والشرق حروباً
دينية ، كما يرفض أن يكون المسيحيون قد تعرضوا في وطنهم
لاضطهاد ديني " لأننا إذا استثنينا عمل بعض الذين خالفوا منا روح
الإسلام . وهو قليل ، نجد المسيحيين في بلاد الإسلام لم يروا من
المسلمين إلا ما يراه الأخ من أخيه من الحرص على صون روحه
وماله وعرضه وسائر حقوقه " (٢٩) .

وبعد أن يعود ليرفض ويفند دعوى الأوربيين في حماية
المسيحيين يقول : " لانستطيع أن ندعي أن أظلم حكوماتنا
(الإسلامية) لا يخشى منها على غير المسلم أكثر مما يخشى على
المسلم . وأظلم تلك الحكومات عاشت معها المسيحية واليهودية

ولم نحتاجا إلى شيء من هذه الحماية التي تريد التوسل بها إلى
المآرب حكومات يجهر بعضها اليوم أن لادين لها " (٣٠) فهو يسخر
هنا من دول تدعي العلمانية في داخل بلادها وتدعي حماية
المسيحيين خارج الحدود ، ويبين كيف أن هذا (الفصام) في
الشخصية - ليس لله - ، وليس غيرة على الدين ، فدعوى
الحماية مجرد ستارة تخفي وراءها ما تخفيه كل دعوى كاذبة .

لذلك فالزهراري يريد من أبناء وطنه على اختلاف عقائدهم
أن ينتبهوا لهذه المؤامرة وأن يعوا أنهم (جماعة واحدة) - أمة واحدة
- بغض النظر عن الدين الذي يتقربون بواسطته إلى الله " إن
المواطنين في البلد الواحد من سائر الأديان هم من جماعتنا (أمتنا) ،
لأن الجوار يضمنا وإياهم . . . فالإقليم الواحد يكون جماعة
متضامنة في الغالب بسبب اللغة ، أو بسبب الاشتراك بالمصالح
وأضدادها " (٣١) وحتى لا يقع بعض الأغرار والجهلة بالفخ
الاستعماري ويقومون بردود فعل ضد أخوانهم في الوطن نتيجة ما
يغذقه عليهم الأوربيون من امتيازات يقول موجهها : "إن دولتنا
متدينة بالإسلام ، فعلى المسلم أن يعرف أن هذا الدين دين تسامح
وتساهل ، أوصى بالجوار وحفظ العهد ، وهو الدين الذي سمح
لأحد أبناء الخلفاء (الشريف الرضي) أن يرثي صديقا صابيا " (٣٢) .
ثم توجه إلى المخلصين من أبناء الوطن :

" فياليت شعري ، ألا يقوم في شرقنا المبارك من أبناء وطننا
من المسيحيين ، من يردون دعوى هذه الحماية في وجوه الأوربيين ،
ويقولون لهم : إن بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرنا ، دليل
على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين إلى من يحيمهم ، ثم ياليت
شعري ألا يقوم في هذا الشرق المبارك من المسلمين ، من يزيحون
مانسجته عناكب الإهمال على هذه القاعدة التي يحق لنا أن نفاخر
بها كل القواعد الأساسية (الدساتير) التي عند الأمم ، ونعني بها

القاعدة التي تجعل لغير المسلمين ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين " لهم مالنا وعليهم ما علينا " (٣٣) وقد كانت حياة (الزهرراوي) وأعماله تريد دائما صدق ماذهب إليه أقواله ، فهو ضد التعصب لأنه كما قلنا فرع شيطاني ينبت على شجرة الجهل والتخلف من جهة ، ولأنه لعبة استعمارية هدفها جرّ البلاد إلى مناطق النفوذ الأوربي من جهة ثانية . وقد أخافه لجوء الاتحاديين إلى اللعبة ذاتها ، حين سعت إلى إذكاء روح العداء والتعصب عن طريق تأييد بعض الفئات والطوائف ضد بعضها الآخر ، بغض النظر عن الدين أو الطائفة - فهي مثلاً كانت تشجع أحياناً بعض الطوائف المسيحية على حساب طوائف أخرى (ناصرت طائفة الأرواح ضد مخالفيهم) . وهي في أحيان أخرى تناصر طوائف مسيحية ضد طوائف اسلامية كما فعلت في بلاد (الأرناؤوط) ، وهي تغري الأشقياء على إيتان أعمال إرهابية ضد مواطنيهم ، ولا يهمها الجهة التي يقع عليها عبء ذلك ، إنما المهم أن تسود روح الفرقة والكرهية بين المواطنين . ويذكر (الزهرراوي) وصفاً دقيقاً لما حدث في منطقة (اشتيب) (*) وكان أحد أعضاء لجنة التحقيق في الأحداث (الطائفية) التي وقعت في تلك المنطقة ، ويصف في أحد مقالاته بنزاهة ودقة ما حدث ويحلل الأحداث على ضوء العقل والمنطق - فهو - يستنتج مثلاً أن هناك يداً خفية تحرك الأحداث وتحاول أن تضخمها . وبين كيف أن الحادثة مؤامرة شيطانية تشترك بها جهات متعددة ، ولا يمكن إرجاعها إلى الشقاق العقائدي أو التعصب الديني . ويبين كيف أن الكثير من الجرحى المسيحيين أبلغوا اللجنة بأنهم احتموا أثناء اندلاع الأحداث بحجرانهم المسلمين ،

* وهي قرية تقع على الحدود بين يوغسلافيا وبلغاريا واليونان حالياً ، كما يفهم من وصف الزهرراوي .

الذين أحسنوا الدفاع عنهم . فالقضية ليست قضية نزاع ديني أو طائفي ، وإنما هي قضية بذور الفتنة والتفرقة . لذلك فقد علق على الأحداث تعليقاً ذا دلالة بالغة حين أورد شطر البيت المشهور:

" أرى خلل الرماد وميض نار "

ولا يفوتنا أن ننوه بأن (الزهرراوي) الذي كان يرتدي زي رجال الدين ، والذي تزود بثقافة دينية ، قد ذهب بتفكيره إلى أبعد بكثير مما كان المرء يتوقع من أمثاله ، خاصة حين دعا إلى (وحدة الأديان) لأنها برأيه واحدة بالأساس والجوهر . واختلاف وسائلها ومنهجها يجب ألا يحجب وحدتها كما أن ثقافته وعلمه الديني لم يمنعه من مقت التعصب ، ومحاربة الطائفية لأنها برأيه ظلم يوقعه الإنسان بأخيه الإنسان فالفكر المتحرر يصدر عن الإنسان الواعي بغض النظر عن الزي الذي يرتديه . و (الزهرراوي) نفسه سخر من تأفف البعض من وجود أعضاء معتمدين في مجلس المبعوثان ، على أساس أن هؤلاء المعتمدين سيحملون تحت عمائمهم التخلف والتعصب ، وعدم القدرة على فهم الأمور والأحداث بروح عصرية، " لأن العمامة على رأيهم عنوان التعصب ، وهؤلاء يحسبون أن كل الطرايش من غير عمامة ليس تحتها حجة زائدة للدين ، أو للمآرب باسم الدين ، وأن هذه الحجة الزائدة انحصرت بالطرايش التي فوقها قليل من الشاش الأبيض . وآخرون يحسبون أن العمامة لا يكون تحتها أدمغة تفهم الدنيا كما تفهم الدين ، وأن فهم الدنيا منحصر بالأدمغة التي تحت الطرايش بغير عمامة " (٣٤) .

ولعل من المهم أن نختم الحديث عن موقف (الزهرراوي) من التعصب الديني بالإشارة إلى موقفه من مسألة (الجامعة الإسلامية) التي روج لها الأفغاني ومحمد عبده ومن تحا نحوها ، وتبناها السلطان (عبد الحميد الثاني) . (فالأفغاني ومحمد عبده) اتخذها وسيلة

لتكتيل جهود (الشرق) في وجه الغرب الطامع ، و(عبد الحميد) من أجل ضخ دماء جديدة في جسم الدولة العثمانية المنهار . ولكن (الزهرائي) ، وقف موقفاً يعد في قمة (الجرأة) الأدبية والسياسية حين أعلن رفضه لفكرة الجامعة الإسلامية ، لأنها برأيه تقوم على أسس غير موضوعية ، وغير عقلية . ويمكننا أن نحدد أسباب رفض (الزهرائي) لفكرة (الجامعة الإسلامية) على النحو التالي :

١ - الفكرة الأساسية التي تقوم عليها فكرة (الجامعة الإسلامية) هي أن الإسلام يشكل رابطة توحد شمل المسلمين ، ولكن (الزهرائي) يفند هذا الزعم لأن الإسلام برأيه لم يكن في يوم سبياً للوحدة والتآلف ابتداء من عهد الخليفة الثالث (عثمان بن عفان)

٢ - ثم إن رابطة الدين - بصورة عامة - لا يمكن الركون إليها كرابطة توحيد فهذه الرابطة لم تمنع أن تقوم الحروب بين دول تدين بدين واحد .

٣ - الدولة - المنطقة العربية - تجمع أتباعاً لأديان مختلفة والجامعة الإسلامية ستكون مدعاة للتفرقة بين أبناء الوطن الواحد .

٤ - و (الزهرائي) يعتقد أن رابطة الدين قد تم تجاوزها حضارياً ، إذ أن ثمة روابط أكثر تقدمية منها مثل رابطة المصالح المشتركة ، أو مايسميه رابطة المدنية ، ويرتب (الزهرائي) في رسالة (نظام الحُب والبغض) الروابط الانسانية حسب درجة تطورها على الشكل التالي :

- رابطة العصبية القبلية .

- رابطة الدين .

- رابطة المدنية .

ويعتبر أن رابطة المدينة وحدها الجديرة بحمل اسم (رابطة) لأنها تجمع بين الناس بغض النظر عن أصلهم ودينهم^(٣٥) .

هوامش الفصل السادس :

- ١ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .
- ٢ - عبد الحميد الزهراوي ، " شعور الأمم بتماضيها وجمعية التتار في الأستانة " جريدة الحضارة السنة الثانية ، العدد ٥٥ ، ٢٧ نيسان ١٩١١ .
- ٣ - المصدر السابق .
- ٤ - عبد الحميد الزهراوي ، " الجسيعات السياسية وكيفية تكوينها " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد (٨٨) ، ١٤ كانون الأول ١٩١١ .
- ٥ - المصدر السابق .
- ٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .
- ٧ - المصدر السابق .
- ٨ - عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، (القاهرة ، المطبعة العسومية ، ١٩٠١) ، ص ٣٧ .
- ٩ - المصدر السابق ، ص ٥٣ .
- ١٠ - انظر : د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام . التاريخ والاقتصاد والسياسة الفرنسية . مصدر سابق ذكره .
- ١١ - المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ١٢ - انظر : للمصدر السابق .
- ١٣ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية لمحمد رشيد رضا
- ١٤ - د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام ، ص ٢٨٤ .
- ١٥ - د. عبدالله حنا ، تحركات العامة ، ص ٠٠٠ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٣١ .
- ١٦ - فريتز شستيد ، يغفل انماهيم السياسية الإجتتماعية الزمنية في القرن

التاسع عشر ، إسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد الشام ، بحث مقدم
للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (دمشق ، وزارة التعليم العالي ،
١٩٧٨) الجزء الثاني ص ٦٠٧ .

١٧ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ١٠٠٠ . مصدر سابق
ذكره .

١٨ - المصدر السابق .

١٩ - المصدر السابق .

٢٠ - المصدر السابق .

٢١ - المصدر السابق .

٢٢ - المصدر السابق .

٢٣ - المصدر السابق .

٢٤ - المصدر السابق .

٢٥ - عبد الحميد الزهراوي ، " طائفة صغيرة من الخطيئات التي لا تخص في أقل
من سنة " جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١٢٩ ، ٢٦ أيلول ١٩١٢ .

٢٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم - ١ - " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٨٠ ، ١٩ تشرين الأول ١٩١١ .

٢٧ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم - ٦ - " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٨٥ ، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١ .

٢٨ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم - ٥ - " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٨٤ ، ١٧ تشرين الثاني ١٩١١ .

٢٩ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم - ٥ - " ، العدد ٨٤ ، ١٧
تشرين الثاني ١٩١١ .

٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، " الأفراد والجماعات " ، مجلة الإنسانيّة ،
مصدر سابق .

٣٢ - المصدر السابق .

٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، العدد ٨٤ . مصدر سابق ذكره .

- ٣٤ - عبد الحميد الزهراوي ، " رجال اليوم - المبعوثان - " ، جريدة
الحضارة، السنة ٢ ، العدد ٦٤ ، ٢٩ حزيران ١٩١١ .
- ٣٥ - لمعرفة المزيد من موقف الزهراوي من الجامعة الإسلامية انظر :
- مقال عن السنوسية في مجلة المنار (سلسلة مقالات نشرت عام ١٩٠٢) .
- رسالة في الحب والبغض .
- رسالة في الفقه والتصوف طبعت مستقلة عام ١٩٠١ .
- المقابلة الصحفية التي أجريت معه في باريس بمناسبة انعقاد المؤتمر العربي الأول
في باريس عام ١٩١٢ . . .



الفصل السابع

العروبة

قلنا مرة :إن " الزهراوي " مسكون بالسياسة ونستطيع أن نضيف بأنه مسكون بحب الإصلاح أو على حد تعبيره " مبتلى بعشق الإصلاح " . هذا العشق الذي ملك عليه حياته ونشاطه ، وقلبه وفكره . فهو منذ بدأ يمسك القلم ليعبر عما تجيش به نفسه ، كان يعرف هدفه تماما ، وظل يسعى نحو هذا الهدف بدأب وعناد وإصرار ، رغم كل العقبات . وما كان هدفه سوى تحرير الوطن ، وتحرير المواطن من التسلط والقهر والاستبداد والتخلف . فقد كان تحرير الوطن والمواطن بمثابة هاجس يلزمه باستمرار ، ويطبع كل نشاط أو عمل يقوم به ، فما من مرة أمسك فيها القلم ليكتب في أي موضوع حتى يتعرض بشكل أو بآخر لقضية تحرير الوطن والمواطن من برائن الجهل والتسلط والتخلف . فكان يتخذ من الموضوع الذي يعالجه أداة ووسيلة لعرض أفكاره الإصلاحية ، والتي كانت تصب في النهاية في خانة التحرر والتحرير وهو وعلى الرغم من دعوى الاعتدال التي كان يحاول وصف نفسه وفكره بها ، كان حاد المزاج ، قاسيا وعنيفا في مقاومة القهر والظلم والخطأ ، لا يثنى في ذلك شيئا على الإطلاق . وربما جرت عليه جراءته الكثير من

العنت ، سواء من جهة السلطة المستبدة الغاشمة أو جهة زبائيتها وأزلامها والمتنفعين منها ، أو من جهة بعض الجهلة الذين تربوا على الخنوع والخضوع لكل مشهور ، فاستغنوا بذلك عن عقولهم واستعداداتهم الآدمية ، وألقوها بين " أقدام القدماء " على حد قوله.

وإذا كان هذا الباب مخصصاً أصلاً لإلقاء الضوء على الفكر القومي العربي عند هذا الفكر المتنور من رجالات عصر النهضة ، فإننا هدفنا مما ذكرناه سابقاً أن نؤكد على أن الفكر القومي عند الزهراوي يتلاحم وبشكل عضوي مع بنية أفكاره الإصلاحية ويشكل أحد أغصان تلك البنية .

ومادنا بصدد الحديث عن " العروبة " في فكر " الزهراوي " فلا بد أن نؤكد ومنذ البداية أنه عربي جهير الصوت بعروبه ، شديد الافتخار بانتمائه لهذه الأمة المحيدة ، يشعر دائماً بأن هذه الأمة تمتاز بصفات فذة عن بقية شعوب الدولة العثمانية . وكان يعمل مابوسعه لإيقاظ الشعور القومي العربي في قلوب أبناء أمته ، وجعلهم يعتلون عزة وإباء وفخراً بماثر هذه الأمة ، وبماقدمته عبر الأجيال ، لكن دون تعصب ، ودون ادعاء ، ودون أن ينسى لحظة منهج العقل والمنطق الذي التزم به دائماً .

ولقد أدرك بأن على الذي يريد إيقاظ الشعور القومي عند العرب ، لا بد له أن يؤكد نبيل معدنهم ، وسمو أخلاقهم - كأمة - بغض النظر عن الإسلام ، أو الدين الذي يتعبدون به ربهم .

وإن كان سمو الدين ونقاؤه دليلاً على سمو المتدينين به . لذلك فهو يرفض ادعاء من يقول بأن العرب قبل الإسلام كانوا كما مهملات " فان قال قائل كيف عرف هذا عن العرب ؟ وهم أهل بادية ، متشتتون ، متفرقون ، متقاتلون ، متذابحون ، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع ، ولا يد لهم في الأعمال

الاجتماعية، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية ، وليس لهم قبل الإسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم ، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينتقل ويحكى عنهم ، ولسنا نعرفهم إلا بالإسلام ، فالإسلام قد جمع الأوزاع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ... فنقول لصاحب هذا القول: إن العرب لم يكونوا بمجهولين ولا بمجهولة أخبارهم، فإذا قلت إنهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ ، فأشعارهم المحفوظة المنقولة ، هي ديوان سيرهم . وإذا لم تثق بنقل أشعارهم ، استطعت أن تعرف العرب من تاريخ الأمم المجاورة لهم ، فالفرس قد سبروهم لأن من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم ، لأن في مملكتهم ملوكا وقوادا وولاة من العرب . والديانة المجوسية تعرفهم ، لأن منهم من كان على دين ملوك الفرس ، والكنائس تعرفت بهم لأن منهم نصارى بل قسيسين وراهبانا ، وبيع اليهود ما جهلتهم ، والفلسفة ما أنكرتهم ، والحضارة قد أملت بمساكنهم " اليمن والعراق والشام " ومخالطة الأمم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم ، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟ إن العرب كانوا معروفين ، ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصية عند التناصر ^(١) .

بهذا الأسلوب المنطقي والعقلي ، الذي لا يخلو أحيانا من الحماس والعاطفة المنتشبة والمتشعبة بحب العرب والافتخار بهم ، يعرض " الزهرائي " أفكاره في كتاب " خديجة أم المؤمنين " ، وهو كتاب وإن أشار عنوانه إلى أن " الزهرائي " يريد أن يؤرخ لهذه المرأة العربية العظيمة ، وليشيد بها ومن خلالها بالمرأة عامة والمرأة العربية خاصة - وهو قد فعل ذلك على أكمل وجه - إلا أننا نستطيع أن نؤكد وباطمئنان أن كتاب خديجة كان مناسبة فذة

ليعرض فيها " الزهراوي " أفكاره " العروية " ، لذلك فإن هذا الكتاب يعتبر بحق كتابا قوميا عربيا - مبكرا - ديجّه " الزهراوي " في شبابه ، وعرض من خلاله وتحت أنف وبصر السلطة الحميدية الغاشمة ، موقفه القومي العربي ، بل إنه استخدم - ربما لأول مرة في قاموس السياسة العربية - مصطلحات مثل : " الوحدة القومية - أمة واحدة - وحدة اللغة - وحدة المصالح - اتصال الديار " .

وهي عبارات من النصور والوضوح بحيث لا يحتاج المرء معها لمزيد من الكلمات للتأكيد على الهدف الذي كان يسعى إليه هذا الرجل : " كان الزهراوي " فيما كتبه في " خديجة " صاحب رسالة جليلة ، وهدف بين ، وكانت شخصية الزعيم المصلح فيه تطالع القارئ قوية ظاهرة خلال الصفحات والسطور^(٢) .

ويستمر " الزهراوي " في التأكيد على عظمة الأمة العربية ورسوخها في الحضارة " التي تمتد لأكثر من سبعة آلاف سنة " ويرد على الذين يشككون بتاريخ العرب " قبل الإسلام " - تاريخ الجزيرة العربية - خاصة - على أساس أن كل ماورد عنهم إنما انتقل عن طريق السماع ولم ينتقل عن طريق الكتب المدونة ، وكان في رده واثقا مطمئنا : " لا يستبعد من أمة محتاجة إلى التناصر وليس لها كسائر الأمم كتاب يجمع أخبار وسير أبطالها أن يعنى كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم ، وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم وقد كان الرجل من العرب إذا عظم أمره وكثر ماله انفرد بأهله .. من غير أن يضيعوا حقهم من الارتباط بالنسبة الأولى^(٣) . وعودة " الزهراوي " إلى تاريخ العرب القديم لها ما يبررها باعتبارات كثيرة منها :

١ - أن الأتراك كانوا يروجون فكرة أن الإسلام هو الذي صنع من العرب أمة واحدة ، وإن كانوا من قبله لفي جاهلية . هــ .

ليسهل عليهم " الأتراك " القول بأنهم وإن كانوا قبائل متنافرة غير ذات حضارة فإنهم بالإسلام قد توحّدوا ، وخرجوا من جاهليتهم إلى أنوار الحضارة تماما كما خرج العرب من قبل . و " الزهراوي " يرفض هذا الادعاء رفضا مطلقا " قد غلط من ظنوا أن العرب لم يكن لهم حضارة ، ولم يكونوا على شيء مما عليه الأمم من الروابط ، بل كان لهم حضارات ، وملوكهم التابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ وملوك الحيرة : " في العراق " مشهورون من عرف تاريخ الفرس عرفهم وإن جهل تاريخ العرب .. . والملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضا لايجهلهم من عرف تاريخ الرومان إذا جهل تاريخ العرب .. ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم " امرؤ القيس " ... فبالله كيف تكون مجهولة الأمة التي فيها الملوك والأقبال ؟ وقد وقفت أمام الأمم والأجيال ؟ سنين من الدهر ، لايعرف لها حصر ، لعمرك إن القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين وأنهم كانوا متشتتين من غير ملك جامع ، ولاشرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير أن يكلف نفسه بحثا ، وهو لما يحط به خبرا .. ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد - كانوا هم أحق بمعرفة أنفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم .. " (٤)

وبعد أن يبرهن على أن عدم معرفة العرب بالكتابة ، وعدم وجود كتاب يؤرخ لأيامهم . لايقدم ولايؤخر في أمر كونهم أمة ذات حضارة " فإذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الأخبار ، لم يكن غيرها أحق بالثقة . لعمر الحق . فإن تزوير الأساطير لايستبعد وقوعه في كل أمة من الأمم ذوات الزبر والأسفار ، وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة ، والنظائر الناطقة .. أن العرب تجوز الثقة ببعض ماينقل عنهم

كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم ...^(٥)

٢- وإلى جانب الأتراك كان هناك بعض العرب الذين يروجون لفكرة أن العرب قبل الإسلام كانوا خلواً من أية حضارة أو مدنية ، وذلك بقصد إضفاء المزيد من العظمة على الإسلام - بزعمهم - وقد قدم هؤلاء دون أن يدروا بحسن نية - غالباً - خير عون لأعداء الأمة العربية ، الذين يريدون اتخاذ الدين الإسلامي ستاراً لمطامعهم . ذلك أن المروجين لفكرة أن كل مجد وكل حضارة حققها العرب فبفضل الإسلام . وأنه لم يكن للعرب قبل الإسلام إلا الجهل والانحطاط والتخلف ، إن هؤلاء يقدمون بعملهم الذي لا يقوم على أسس ثابتة ، شهادة حسن سلوك وبراءة ذمة للقبائل التترية والتركية التي عاثت في بلاد العرب فساداً وخراباً ودماراً ، قبل أن يعتنق أفرادها الإسلام ، على اعتبار أن الإسلام يجب ما قبله ، وعلى اعتبار أن القوم عندما أقدموا على ما أقدموا عليه من الفظائع بحق العرب ، إنما كانوا في جاهليتهم ، وقبل أن يهديهم الله إلى سواء السبيل ، وينسى هؤلاء الذين يريدون أن ينسبوا كل الرذائل للجاهلية أنهم بعملهم هذا يتناسون ما أنزله الأتراك بحق العرب والمسلمين بعد اعتناقهم الإسلام ، كما أنهم يعاندون المنطق والعقل والحس السليم ، بل ويعاندون الحكمة الربانية .

إذ هل يعقل أن يلقي الله سبحانه وتعالى على قوم هذه حالتهم عبء النهوض بالدعوة والله أعلم حيث يضع رسالته؟! لولا أنه أنس فيهم الخصال الحميدة ، والصفات الملائمة " فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم يزيههم ويعلمهم الكتاب والحكمة " فكانت بذرة الإيمان التي أقيت في أرض مستعدة لاحتضانها وإنباتها النبات الحسن .. كانت هذه البلدة المشرفة

" مكة " تضم بين تلك الجبال المهيبة ، أمة صالحة الاستعداد للرقى متى أريت طريقه ، كما تضم الصدفه جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزول عنها القشور" (٦) .

وإذا سئل عن هذا الاستعداد للرقى وكيف يراه ؟ يسارع إلى القول من وجهة نظر السياسي والاجتماعي والمصلح الذي لا يترك مناسبة إلا ويستغلها لبذر بذور الإصلاح - كما سبق وذكرنا -

يقول وفي ذهنه أن قارئيه " العرب " سيقيسون واقعهم وحالة وطنهم بما يذكره : " وكان من جيد أمر أهلها " مكة " في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الأمور العمومية فيما بينهم ، فكأنهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام . وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائرا على منتهى النظام . ولكن لم يكن هذا النظام لسر في ترتيب الجمهورية لأنها لا يؤمل منها في حد ذاتها أن تثمر نظاما بالغاً منتهى الجودة والقوة وإنما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية . فالأخبار كلها دالة على أن القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام ، فلذلك كان ذلك الاجتماع الذي لانعرف له نظيرا ، أن كل فرد من أفرادها تام الحرية ، لا يشعر بقهر حاكم ، ولا يخشى سطوة جبار ، وكل منهم آمن من فوات الحقوق ، واعتداء الحدود . الجنایات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة" (٧)

وقد أراد " الزهراوي " أن يقول من خلال العبارات السابقة شيئين في وقت واحد :

- فهو أولاً أراد أن يقول بأن العرب في جاهليتهم كانوا في حال أحسن من تلك التي يعيشونها تحت نير الحكم التركي ، حيث

لا يتمتع الإنسان بحريته ، ويشعر بتسلط وقهر الحاكم ، ويتحكم به الجبابة ، وهو غير آمن علي حقوقه وكرامته ..
- وأراد أن يقول ثانياً بأن مجتمعا يسوده القهر والتسلط ،
وتنعدم فيه الحرية ، لا يمكن أن ينتج رقياً ولاتقدماً . وأن الله حين
بعث رسوله بالهدى ودين الحق ، فإنما بعثه من وإلى أمة كل فرد
فيها حر وآمن .

ويتحدث بمزيد من الإعجاب عن " الجمهورية المكية "
ونظامها الشوري ويعلل سبب عدم وجود رئيس دائم فيها بعدم
جدوى هذا الرئيس لأنهم خافوا من تحكم حب الرئاسة في أحدهم
مما يؤدي إلى النزاعات . ولأنهم كانوا يأنفون من الخضوع لأحد
أياً كان ، فكل واحد منهم يحمل بين جنبيه روح الرئيس ..^(٨)
فالحرية والأنفة والشورى صفات لا بد من توفرها في المجتمع الذي
يستعد لاستقبال الأفكار الجديدة ، والعروج معها وبها إلى مراقبي
الفلاح . إلى جانب صفات أخرى تساعد المجتمعات المجتابة لأداء
الرسالات .. ومن ذلك تحرر العقول ، وتخليها بالتفكير السليم " إذا
صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزعات الوثنية . لانبعد بعدها هذه
العقول مظلمة ، وهي التي أضاعت لهم فعرفوا بها الأخلاق الصالحة
والفاسدة ولم يكن يعوزهم إلا أن يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي
أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته .. ولولا أن للقوم عقولا
صافية ، لما رجي لمحيء المرشد من فائدة ، لأنه لا يظهر نور الإرشاد
إلا في اللوح النقي . ولكن الرجاء بالقوم في محله ، فإنه لما جاء
المرشد لقي أراضى في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار .

فالعرب - إذا - كانوا من الرقي والحضارة والاستعداد على
درجة تؤهلهم لحمل الرسالة الخالدة ، إلى العالمين . و " الزهراوي "
يعتبر الإسلام رسالة العرب . وثورتهم الخالدة ، وأن الفضل يعود
إليهم في حمله إلى العالمين ، وإيصاله إلى كل فج عميق ، بسرعة

مذهلة ، رغم أنوف الأباطرة والقيصرة والطواغيت : " قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً ، لم يحدث بعد مثله إلى الآن .. خلفه انقلاب عظيم في ممالك الأرض ، وتغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة ، وانضمامهم جميعاً إلى كلمة النبي الذي قام فيهم منهم .. هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكير ، وكأنه معناه الحدوث كثيراً فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ((انتشاره السريع)) ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكير بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيته أولئك القوم بسرعة جديدة أن نشبهها بلمح البصر .. ولدى التأمل نجد هناك جزأين تم بهما هذا الحادث العظيم .

- الأول : النبي محمد عليه الصلاة والسلام .
- الثاني : الذين آمنوا به ونصروه من العرب^(١٠) .

أي أن العرب قبل الرسالة لم يكونوا متخلفين حضارياً عن جيرانهم ، إنما كانوا متفرقين سياسياً " إن العرب يوم ظهور النبي فيهم .. كانوا متفرقين .. ومنقسمين وقبائل .. " (١٠)

ولأن " الزهراوي " إنما يعرض من خلال دفاعه عن قومه العرب ، فكره السياسي والاجتماعي ويريد أن يجد لهذا الفكر الأرض الصالحة بين بني قومه ، يؤكد المرة بعد المرة على أهمية الحرية ، ويبيدي سخطه ومقاومته للقمع والتسلط والاستبداد ، الذي يعتبره من أكثر الأمور شراً :

" ومما هو جدير بالذكر - في هذا الصدد - حريتهم " العرب التي كانوا عليها فانهم لما خلصوا من تمليك أحد عليهم ، خلصوا من شرور كثيرة تتبع التمليك . فكانت معاشراتهم ساذجة " بسيطة

" نخالية من عبارات الملق والخنوع . وكانت مكاسبهم لأنفسهم ، لا يشاركونهم بها مشاركون ، ولا يعرفون المغارم ، والأثارات المضروبة .

وهم في أمن من حيف القضاة ، لأنهم يتحاكمون يوم يشاؤون إلى من يرضونه من كبرائهم .. وكان جائزا لأحدهم أن يتدين كما يريد ، بشرط ألا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو إلى إبطاله وكان لبعضهم فلسفة في النشور والجزاء الأخروي.. " (١١)

أي إنه يدعو من خلال إسهابه في وصف ما كان يتمتع به المجتمع المكي من الحرية إلى أن ينال المواطن الحرية بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية وإلى عدم مصادرة هذه الحرية تحت أي اسم من الأسماء ، وإلى عدم فرض الغرامات والأثارات وإلى نزاهة القضاء ، وإلى التمتع بحرية العقيدة ، وهي كما لا يخفى أهم المطالب التي تمحورت حولها أهداف النضال العربي في تلك الفترة ، وبصفته مصلحاً واعياً ، ورائداً صادقاً لا ينسى أن يشير إلى مكانه المرأة في المجتمع المكي وما كانت تتمتع به من الحقوق والمكانة " ويمكن أن يقال بالإجمال إن حرية الرجال والنساء كانت تامة " (١٢) ، لينطلق من ثمة إلى تأييد حق المرأة المستلب من جهات متعددة وسنعود للبحث في أمر المرأة في مكان آخر من البحث .

ولم يفت " الزهراوي " أن يوجه الانتقادات لبعض المظاهر السلبية التي وقع فيها العرب ، ولا سيما تلك التي تتنافى مع حقوق الإنسان من حيث هو إنسان ، فكان ظلمهم للرقيق وسلبهم الكرامة من مقومات الإنسانية " نعجب من قوم هذا شأنهم - من الحضارة - إذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ، ولم يذكروا أنه يستحق الرحمة لأنه مسلوب أفضل كساء كساهموه ، ربهم الأعلى الذي خلق

فسوى" (١٣) فالحرية برأيه أفضل كساء يلبسه الله للبشر جميعاً فلا سادة ولا عبيد ، والكل سواء .

فكتاب " خديجة أم المؤمنين " يعتبر كما سبق وذكرنا كتاب " الزهراوي " العروبي الأول والمبكر ، فهو قد أراد من خلال سرد سيرة هذه السيدة المجادة ، أن يقدم للقراء أخلاق العرب ، وصفات العرب ، وحضارة العرب وأخبار العرب الاجتماعية والسياسية ، عله بذلك يضع " مداماكا " أساساً في البناء القومي العربي الذي كان يؤسس على استحياء .

وبعد كتاب خديجة بدأ يكتب المقالات والدراسات ذات المسحة العلمية " نظام الحب والبغض - الإمامة وشروطها - الفقه والتصوف .. " والتي كان يتخذها ذريعة لعرض أفكاره السياسية والاجتماعية والقومية ونظراته إلى المستقبل ورأيه في كيفية تحقيق التقدم والرفق " التحسين والتكامل " بصورة غير مباشرة حيناً وبشكل واضح بين حين وآخر . ثم وبعد الانقلاب العثماني وإعلان الدستور وانتقاله إلى العاصمة بدأ يعرض أفكاره القومية العربية بشكل أكثر نصوحاً ووضوحاً من خلال خطبه في مجلس " المبعوثان " ، ومن خلال مقالاته في جريدة " الحضارة " وكان يؤكد في تلك المقالات والخطب على خصوصية العرب ، وأنهم جماعة (أمة) لها صفاتها وخصائصها المميزة ، ولغتها الشريفة ، وأن لها الحق كل الحق في العمل على زيادة المتعلمين والثقافيين بين أبنائها ، كما أن من حقها أن تفخر وتفاخر بأبجاذها وبحضارتها التليدة دون أن يسيء أحد الظن بها إن أرادت أن تفعل ذلك " فليس شيء في نظر العاقل بأسمج من صد رجل أقمته الأنانية رجلاً آخر يجب أن يتغذى بقليل من حب نفسه وقومه (١٤) . لذلك هو يدعو قومه العرب للوقوف بوجه هؤلاء الأنانيين العنصريين ، ومقاومتهم بكل أساليب المقاومة " أحب أن أذكرك بأن الإنسان

لا يلقى به أن يقدم على عزه نفسه وقومه شيئاً " . لقد كان الزهراوي " - شأنه شأن زعماء ورجالات عصر النهضة يعمل على تنمية الحس القومي العربي وتحسين أوضاع العرب ، وزيادة أعداد المتعلمين " النبهاء " بينهم . ولكن ضمن إطار الدولة العثمانية : " ذلك لأن التطور الفكري الطبيعي كان إلى قبيل الحرب العالمية الأولى ، يقوم على مفهوم عام شامل بالنسبة للدولة العثمانية باعتبارها الإطار الذي يربط المنطقة كلها . فلم يكن هناك - حسب التطور الطبيعي للفكر السياسي - أي اتجاه للانفصال عنها وإنما بدأ التفكير في صورة الأمة أو الوطن في مصر مثلاً دون أن يعني ذلك أي انفصال عن الكيان الذي تمثله الدولة العثمانية وفي الشام - وقد بدأت فيها حركة قيام كيان الأمة والوطن - كانت المرحلة الأولى التي وصل إليها هذا التطور حتى عام " ١٩١٤ " هي ما أطلق عليه في قرارات المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس قيام الحكومة اللامركزية التي تعطي للوطن " السوري " مقدراته السياسية من غير انفصال عن الكيان العام الذي تمثله الدولة العثمانية " (١٥) .

وقد اعتبر كل زعماء الإصلاح العرب ، الدولة العثمانية دولتهم ، وأنهم شركاء فيها ، وأن حركة الإصلاح التي يقودونها إنما تهدف إلى زيادة قوة هذه الدولة في وجه المطامع الأوروبية ، وذلك عن طريق تحسين نظام الحكم ، ورفع الظلم والاستبداد عن المواطنين ومنح هؤلاء المواطنين كامل حقوقهم السياسية والاجتماعية ، بحيث يكونون متساوين أمام القانون . أما الانفصال عن الدولة فهو أمر لم يكن يخطر ببال أحد " إن جميع من يعتد بهم من العاملين في سبيل القومية العربية في تلك الأيام ، ما أرادوا قط الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، خشية الوقوع في براثن الدول الاستعمارية ... " (١٦) .

فالمفكرون العرب إنما نظروا إلى قومهم " العرب " على أنهم شركاء أساسيون في حكم الدولة العثمانية ، ولم يتزعزع عندهم هذا الشعور إلا بعد أن أظهر " آباء " جمعية الاتحاد والترقي حقدهم العنصري الأرعن ، واندفعوا في حملة غيبة " لتزيك الدولة " وطمس كل خصوصية عند شعوبها .. فالعرب في بداية الأمر لم يفكروا في الانفصال عن الدولة وإنما كانوا يطالبون بالإصلاح الداخلي ضمن لامركزية تتسع لطموحات وأمني شعوب الدولة " إنني أقرر بكل صدق وإخلاص بأنني أنا وجميع من استعنت بهم وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبانهم لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية .. " (١٧).

ولكن هذه الدولة " العلية " التي حاول المصلحون إخراجها من هوة التخلف والاستبداد التي تتردى فيها كانت من الضعف والتفسخ بحيث لم تكن نداءات أولئك المصلحين لتستطيع شيئا حيال ذلك الواقع المخزي والمخزن . وحيال أطماع الدول الأوربية ورغبتها الجارحة في تفكيك تلك الدولة فقد كانت الدولة مهددة فعلا بالسقوط بسبب الانقسامات الداخلية ، والمخاطر الخارجية ، ولم يكن أمام المفكرين أو رجال السياسة المنصرفين إلى " إصلاح الأحوال " إلا أحد موقفين . إما الوقوف خلف السلطان ومساندته بكل قوة الجماعة حتى ولو كان ظالما مستبدا وإما الوقوف أمام السلطان وتنبهه إلى ضرورة الإصلاح العام الشامل وتحذيره من مغبة الاستمرار في الاستبداد والحكم الفردي المطلق . وقد اختار " أبو الهدى الصيادي " الموقف الأول بينما اختار رجال من أمثال الكواكبي والزهراوي الموقف الثاني (١٨) .

وقد عمل " الزهراوي " - منذ شبابه - على نشر الوعي ، وتحرير العقول من كل برائن التخلف ليكون المجتمع على استعداد لما ينقي فيه من بذور الإصلاح ، وعلى استعداد لاحتضانها وإنباتها

النبات الحسن . وفيما يخص الجانب " العربي " من نشاطه فإنه قد عمل على تنمية الحس القومي العربي وإعلاء شأن العرب " كجماعة " متميزة ضمن كيان الدولة ، وإزالة الحيف والظلم الذي نزل بهم سواء كان من الدولة مباشرة على يد السلطان والولاة والزبانية أو على يد عامة الأتراك الذين زين لهم جهلهم وتعصبهم ماكانوا يؤمنون به من أفكار فظنوا أن العرب قبائل متخلفة تحسن الدولة العلية حين تنزل بهم المصائب .

وقد سبق وذكرنا كيف أن كلمة " عرب " في لغتهم الدارجة تعني الأسود وأن بلاد عربستان تعني " موطن السود " ، وغشي عن القول بأن كلمة أسود تعني من جملة ماتعني " العبد الرقيق " . وكما سبق وذكرنا فقد كان كتاب " خديجة أم المؤمنين " بمثابة تذكير للعرب بأصولهم الطيبة ، وتعريف الآخرين بهم كأمة بحيدة نبيلة المتمد . قدمت للبشرية حضارة راسخة . ففي عهد السلطان " عبد الحميد " عمل (الزهراوي) على محاربة الفساد والظلم وكل مظاهر القهر والتسلط ، وشارك بفعالية في عملية القضاء على ما كان يمثل (عبد الحميد) من ظلم واستبداد ، كما عمل على بث روح الوعي القومي العربي في النفوس ، ولما نجحت الانتفاضة ضد السلطان الطاغية ، وأعلن الدستور ، كان " الزهراوي " من ألمع الشخصيات العربية التي ساهمت بتحقيق هذا الإنجاز . لذلك استدعي من أهل مدينته وانتخب عضواً في مجلس " المبعوثان " . وكان ذلك بداية لحقبة عارمة بالنشاط والتحضر فقد كان " الزهراوي " بحق بطل هذه المرحلة ورجل المقاومة والحرية الأول . فهو ما ان لمس التقصير في أعمال رجال جمعية " الاتحاد والترقي " حتى بدأ يهاجمهم ويكشف نياتهم بصلاية مدهشة ، وجرأة فذة ، ودأب لا يعرف المهادنة من خلال مقالات ملتهبة ومتأججة ، وبأس في تأججها تبقى تلتزم أشد الالتزام بالمنطق

والعقل . وبرأينا أن هذه المقالات ، والتي بدأت بعيد إعلان الدستور وبعد انتخابه لمجلس " المبعوثان " واستمرت إلى ما بعد عقد المؤتمر العربي الأول هي التي قادته في النهاية إلى مصيره المحتوم . وكل من يقرأ تلك المقالات يدرك مباشرة أن منية هذا الرجل ، كانت تدفعه دفعا لمزيد من الدأب على مهاجمة الاتحاديين .. وهو - والحق يقال - كان على وعي تام بما ينتظره .. فهو ومنذ البداية يأخذ على الاتحاديين ادعاءهم بأن القانون الأساسي " الدستور " منحة منحها بعض شعوب الدولة " الأتراك " للشعوب الأخرى . فيعلن بأن الدستور إنما كان حصيلة كفاح مرير ، خاضه أبطال الجيشين " السيفي والقلبي " . وأن من بين هؤلاء الترك وغيرهم ، والعرب وسواهم . لذلك فهو يدعو قومه العرب للتمسك بالخصوصية العربية ، ويدعو إلى إعطاء اللغة العربية حقتها من الاحترام ، وفسح المجال أمام العرب لتسلم مناصب مهمة في الدولة تتناسب مع عددهم وأهميتهم . وينعى على الذين يقولون بأنه ليس في العرب متعلمون بأن الحرية حرية أولئك الظالمين " ياقزمي قد ظهر قوم " الأتراك " بمظهر حب الوطن فأما ، ولكن رأيانهم قد حصروا حبه في أنفسهم ، ثم جعلوا حبه كناية عن تكليف الناس بتناسي أنفسهم ، وعدّوا من لم ينس نفسه خائنا للوطن ، إلا أن الخائنين هم الذين يسوقون الوطن إلى فوضى ينابيع قوته . ألا فاعرفوهم وعالجوا آلام مخالفتهم بتذكركم أنه لا يضركم شيء . بإذن الله تعالى - مادتمم ذاكرين أن الله سبحانه هو واهب القوى . ومودعها في النفوس والأقوام التي تقدر قدر الحق ... " (١٩)

فهو وإن كان كغيره من رجالات عصر النهضة مع الاتحاد ، ومع العثمانية إلى أنه لا يفهم من هذا الاتحاد تسلط شعب على شعب ، أو أمة على أمة ، إنما يجب أن يحتفظ كل شعب وكل أمة بالخصوصية المميزة كاللغة والتاريخ .. " يقتضى هذا الاتحاد "

الجميل " أن يكون أعضاء مجلس " المبعوثان " كلهم على فكر واحد تديرهم سياسة حزب واحد... " (٢٠) .. ويسخر من دعاوي الاتحاديين ويهاجم تسلطهم على الشعوب الأخرى ، ورفعهم سيف الإرهاب في وجه كل مناضل يريد إعلاء شأن قومه ، واتهامه بالخيانة .. " بحق عظيم أقول .. أنني منذ ولجت هذه الابواب " السياسة " أسعى للاتحاد معروفاً فيه ، ولأزال أسعى له مادام في رأسي العقل الذي يفهم الاتحاد قوة للعثمانية وأن تقوية العثمانية هو الذي يسر أرواح الأسلاف ، ونفوس المعاصرين والأخلاف ، وهؤلاء هم الذين بيني وبينهم الحساب . " (٢١)

وفي دفاعه عن العثمانية كرابطة ، أو كإطار عام ، لم ينطلق من منطلقات تمت من قريب أو بعيد إلى التعصب الديني ، أو الجمود الفكري . فهو يرفض فكرة " الجامعة الإسلامية " رفضاً صريحاً وحاسماً وبعبارات حادة ولأسباب عقلية ومنطقية .

وهو مع إيمانه " بالوطن العثماني " العام ، لا ينسى وطنه الخاص . لذلك فهو يدعو إلى إعطاء كل شعب من شعوب الدولة حقه كاملاً في المشاركة الفعالة في تسيير أمور الدولة كما يعمل على رفع شأن كل شعب وفق خصوصيته المميزة ويدعو لأن تزول فكرة العنصر الحاكم من الأفكار وليس من قاموس السياسة فحسب " (٢٢) . ويتهم على أسلوب الاتحاديين المتمثل باستقطاب بعض الأفراد " الرصوليين " وإدخالهم في حزبهم ، ليكونوا أدواتهم في استلاب شعوبهم ، وزبانية لهم في قمعها : " ماذا تأمل الجامعة العثمانية من أفراد قليلين يدخلون في غمار الجمعيات (الأحزاب) التي تنادي وتدعو للاتحاد إذا كان أكثر الأفراد في أمهم يغلب عليهم الإهمال ... " (٢٣) أي - وبعبارات أخرى - يدعو إلى العناية بال جماهير وتوعيتها وإلى عدم الاكتفاء بالنخب صاحبة المصلحة الضيقة .

وخلاصة القول في هذه المسألة أن الزهراوي " في دفاعه عن الجامعة العثمانية " إنما كان ينطلق من منطلقات اجتماعية وأخلاقية وحضارية " مدنية " لأنه كان يدرك أن لانجاح الا للكيانات الكبيرة والقومية أمام تسلط القوى الأوربية الطامعة . ويستشف من كتاباته ومن خطاباتاته .. أنه كان يرى " العثمانية " كإطار واسع وفضفاض يتسع في ثناياه للخصوصيات القومية تماما كما تحاول أن تفعل الآن (الجامعة الأوربية) مثله بل نكاد نزعم أنه كان يفهم هذه " العثمانية " كإطار أقل شدة وصرامة مما تفرضه بعض الدولة الكبيرة المعاصرة على شعوبها ذات الحضارات واللغات المختلفة .. فهو مثلا لا يحرص على الحفاظ على (العثمانية) مجرد أن تبقى الدولة موحدة ، ذلك أنه لاخير في كيان تكون فيه الشعوب ، ويكون فيه الأفراد مجرد أرقام مجموعة إلى بعضها . بل كان يريد من العرب الموحدين ضمن الدولة العثمانية أن يكونوا عنصرا فاعلا وفعالا ، متحررين من كل القيود والأغلال العقيمة . وكانت رؤيته (للعثمانية) متناقضة تماما مع رؤية الاتحاديين لها ففي حين كان الاتحاديون يرونها على أنها الوسيلة لتسلط العنصر التركي على الدولة ، وعلى بقية العناصر والشعوب . التي كانوا يعتبرونها مجرد أتباع ورعايا يدورون في فلكهم . فإن " الزهراوي " يرى في (العثمانية) كيانا كبيرا تترابط فيه عضويا شعوب الدولة العثمانية وتعمل معا على رفع شأنها الخاصة ، مما ينتج عنه - تلقائيا - الارتقاء بالدولة.

وقد أدرك (الزهراوي) أن « الوحدة السياسية التي كونها الحكم التركي العثماني في الأقطار العربية التي خضعت له وحدة سكونية صورية عاطلة - إلى حد بعيد - عن الديناميكية السياسية والاجتماعية والثقافية التي تفرضها كل وحدة حقيقية .. والوجود العربي في إطار هذه الوحدة (الامبراطورية) قد انسحب من مركز القيادة والتوجيه ليتسبح تابعا محدود الأثر باهت التأثير فاقد الروح إلى حد بعيد»^(٢٤) .

لذلك أراد أن يخرج العرب من لامبالاتهم ، وأراد أن يكون لهم الحق ، ليس في إدارة بلادهم العربية (وطنهم الخاص) فقط - وهذا حق من أقدس حقوقهم - وإنما أراد أن يكون لهم الحق كذلك في المشاركة الفعالة والمؤثرة في قيادة الدولة (وطنهم العام) بما يتناسب مع أعدادهم وكفاءاتهم وحضاراتهم .

لذلك كان كثير التشكيك بالإحصاءات الرسمية عن عدد العرب، ويدعو إلى القيام بإحصاءات جديدة وموضوعية تشمل المنطقة العربية (المشرق والمغرب) ثم تقاسم المناصب على ضوء هذه الإحصاءات .

والذي لابد من الإشارة إليه هنا أن الزهراوي كان يدرك أن صلاح أمور الدولة وأخذها بأساليب التقدم والعلم كفيل بإيصال العرب ، ليس فقط للتحرر من قهر وظلم الاتحاديين وإنما إلى امتلاك زمام الدولة - ولو بعد حين - وعند ذلك لن تبقى وحدة العرب سكونية بل تتحول إلى وحدة تمور بالإنجازات الرائعة على كل الصعد .

وكان للحرب الاستعمارية التي شنتها إيطاليا على (طرابلس الغرب) انعكاسات حادة على أوضاع الدولة العثمانية عامة ، وعلى الشعور القومي العربي بشكل خاص . فقد أدرك العرب أن الدولة العثمانية بأوضاعها المتخلفة عاجزة عن حمايتهم من الهجمة الاستعمارية، وعاجزة عن مجابهة الدول الأوروبية الطامعة، ولا يبدو أن عندها الرغبة في هذه المجابهة ، لذلك فقد تنادى الشباب العربي من كافة أقطار العروبة في المشرق والمغرب للدفاع عن ليبيا (طرابلس الغرب) . وخوض حرب مقاومة رائعة في الويت الذي أبدت فيه الحامية التركية والدولة العثمانية عجزاً مطلقاً وتخاذلاً مهيناً .

وعندما تحدث (الزهرابي) في مجلس (المبعوثان) عن ثغافل الحامية التركية أجهش بالبكاء فقال له بعض زملائه في المجلس لا تبك فاننا سنستعيدھا (طرابلس الغرب) التنت إليهم قائلاً أنا لأبكي على طرابلس الغرب إنما أبكي على سورية والعراق ر (الروم ايلي) . . لأنه أدرك أن المقدمات التي يراها ستؤدي إلى تلك النتيجة . وقد أثبتت الأحداث بعدئذ صدق نظرتة وشفافية تفكيره . وقد كتب سلسلة مقالات انتقد فيها تصرفات الدولة تجاه (طرابلس الغرب) في نفس الوقت الذي أيد فيه بقوة المقاومة القومية العربية التي خاضها الشباب العربي واعتبر أن طريق المقاومة والفداء هي الطريق السليمة والوحيدة لاسترداد الحقوق . . ((إن طرابلس الغرب ، إنما يحارب فيها اليوم - في الحقيقة - أولئك الأسود من أهل جبرتها (العرب) وأنه لولا قوتهم تلك، لكان الأمر في هذه المسألة أكثر إشكالاً ، وأدعى إلى زيادة الأسف . فبأولئك العرب الكرام (المقاومين) يجب أن يقتدي سائر العرب ، ويحسبوا حساب الغد ، ولا يقولوا ورائنا فلان وفلان (من الدول الأجنبية) فإن لفلان وفلان هموماً أخرى ومصالح أخرى وليس لهم (العرب) من خل وفي إلا أعضادهم ، وما قبضت عليه أكفهم (من الأسلحة) ، إن كان تحت أكفهم بواتر . ومن أراد تجريدهم من تلك البواتر - بأية وسيلة وأي أسلوب كان - فليعلموا أنه خائن لدولتهم ولوطنهم العام ولوطنهم الخاص ولا يلوموا إلا أنفسهم إن سكتوا أمام تدابير الخائنين)) (٢٥) .

بهذه الكلمات الرائعة والناضجة والملتزمة ، يؤكد أهمية المقاومة المسلحة ، ويحذر من المؤامرات التي تهدف إلى تجريد المقاومين من أسلحتهم ، تحت أي ادعاء كان ، كما يحذر المقاومين من الانخداع بشعارات وادعاءات يطلقها الخونة، ويؤكد لهم أن قوتهم وسلاحهم وحده ، هو السند وهو الضمانة ونور الحرية وعنوان

الوجود وطريق النصر . ومما يلفت الانتباه حديث (الزهرراوي) عن
(جيرة) طرابلس الغرب من العرب واشتراكهم جميعاً من المشرق
والمغرب - في دفع ضريبة الدم أي أنه وبكلمات أخرى يؤمن
بوحدة الوطن العربي . مشرقاً ومغرباً - والوطن الخاص الذي
تحدث عنه يشمل المنطقة العربية كلها .

ويمكننا أن نلخص الفكر العربي عند (الزهرراوي) على
الشكل التالي :

- إيمان عميق بأن العرب أمة مجيدة ، تمتد جذور عراقتها إلى أعماق
التاريخ ، وأن هذه الأمة تبني لنفسها منذ أقدم العصور معالم راسخة
من الحضارة في مختلف الميادين . وأن الإسلام كان الرسالة العظيمة
والخالدة التي جعلتها أمة مستعدة لتلقي الأمانة فخرج العرب فاتحين
محررين ونظراً لسمو معدنهم ، وعظمة رسالتهم ، استطاعوا أن يحققوا
إنجازاً تاريخياً عظيماً يستحق الوقوف عنده ، لأنه ليس من الأمور
الطبيعية التي (تتكرر كل يوم) على حد تعبيره .

- وبعد أن يؤكد على نبل المعدن العربي وأصالة العرب في صنع الكثير
من الإنجاز ، يدعو العرب لأن ينفضوا مناراً على وطنهم ونفوسهم
من غبار التخلف ، ويدعوهم لأن يتخلصوا من برائن الجهل ، وإلى
الانطلاق إلى ميادين الفعل الإيجابي والمقاومة لكل أشكال الاستبداد
والاستقلال الداخلي والخارجي .

- وحين دعا إلى تحقيق الطموحات العربية والانتقال إلى التقدم
والإصلاح وانتقال الأفراد من خيانة الرعايا إلى خيانة المواطنين بكل
ما تعنيه كلمة المواطن من معنى ومن التزامات وواجبات وحقوق ضمن
الدولة العثمانية ، فإنه إنما فهم (العثمانية) على أنها إطار واسع
تضيق عن طموحات الشعوب المنضوية تحت راية العثمانية
وتعاون هذه الشعوب على بناء مصالحها ومستقبلها .

وقد فهم معظم رجالات العرب في تلك الفترة الأمور على هذا النحو . وعندما أرسل حزب (اللامركزية العثمانية) مندوبيه إلى مؤتمر باريس العربي - الذي كان عملاً جبهوياً عربياً - إنما فهم قضية الكفاح والنضال العربي على هذا النحو كذلك ، مثله مثل معظم (الجمعيات) العربية . ولم يكن يخطر ببال أحد من مندوبي المؤتمر البارزين الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، باستثناء بعض عملاء المخابرات والقنصليات الفرنسية ، الذين كانوا يمهّدون للاستعمار الفرنسي ، والذين كانوا يهدفون من عقد المؤتمر - أساساً - إلى توريث حركة الإصلاح العربي للدخول في عملية (طلاق نهائي) مع الدولة العثمانية . ولما انكشف أمر هؤلاء أوفد المؤتمر إلى وزارة الخارجية الفرنسية من يبلغها . بعد الشكر على استضافة المؤتمر . أن الحركة العربية إنما تهدف إلى تحقيق الإصلاحات التي تمخض عنها المؤتمر ضمن إطار الدولة العثمانية . وقد استاءت فرنسا من هذه النتيجة وأرسلت وزارة الخارجية الفرنسية إلى ممثليها وقنصلياتها مامعناه بأن الحركة العربية (قد انقلبت علينا) .

فقد كان الداعون إلى عقد مؤتمر باريس مختلفين من حيث المنطلق والمبدأ ، فمنهم من كان يهدف من عقد المؤتمر إلى تكتيل الجهود العربية المبعثرة ، وجعل الجمعيات (الأحزاب) العربية تتفاعل ضمن عمل (جبهوي) ومن هؤلاء (عبد الغني العريسي) ومنهم من كان يريد تفكيك الدولة لصالح الدول الأوربية (فرنسا خاصة) ، وليس من أجل قيام الدولة العربية المستقلة ، لأن هؤلاء كانوا يحرصون همهم في نطاق (بيروت وماحولها) ولم يشربوا ومن مشرب الجامعة العربية ولاقطرة على تحذير (الزهرراوي) - وكانوا يعلنون صراحة بأنهم لا يستطيعون حكم أنفسهم ، وأنهم يدعون للدخول فرنسا لحكمهم ، وأنهم يعتبرون فرنسا وطنهم

بالتبني . . . (٢٦) وعندما ظهر هذا الأمر جلياً (للزهرابي) وغيره ، عمل جاهداً على إقناع الاتحاديين بخطورة الوضع ، ودعاهم إلى تلبية المطالب العربية الحققة ، والتي من شأنها إذا طبقت أن تحقق القوة والمنعة للدولة ككل . وعمل على إقناع حزب اللامركزية بضرورة فتح صفحة جديدة مع الاتحاديين ، الذين لا بد وأنهم قد أدركوا مدى الخطر الذي يحيق بالدولة كما أنهم قد أدركوا أيضاً أهمية التعاون مع العرب للوقوف في وجه ذلك الخطر ، الذي تحدث عنه (الزهرابي) بوضوح " لقد كشفت أوربا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة العثمانية وقررت التداخل في سائر شؤونها ، وإنما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم . وليس في أوربا اليوم موضوع مقدم عن هذا الموضوع ، ولا يمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه " (٢٧) . وعندما تظاهر الاتحاديون عبر وفدهم إلى باريس بالرغبة بالاستجابة للمطالب التي أسفر عنها (مؤتمر باريس) ، مقسمين على ذلك أغلظ الأيمان . اتفق بعض رجالات العرب معهم ، ومن بين هؤلاء (الزهرابي) و (عبد الكريم الخليل) بعد أن أبدى الاتحاديون رغبة واستعداداً لتنفيذ بعض الإصلاحات في الولايات العربية . وكان قبول (الزهرابي) وزملائه المناصب سبباً في إثارة نقمة عارمة ضدهم ، لا سيما ضد (الزهرابي) أشهرهم - ومما يثير الدهشة والانتباه - لأول وهلة أن يساهم في إثارة هذه النقمة الفرنسيون المرتبطون بمشروعهم من جهة ، والاتحاديون وزبائنتهم من جهة ثانية ، كل حسب مصالحه . ففي حين صور البعض قبول المنصب على أنه خيانة للقضية العربية ، صوره آخرون على أنه استسلام رخيص ، وسقوط ذليل أمام الأنانية والمسالخ الشخصية . ففي حين كان (حقي العظم) يثير عاصفة (غوغائية) ضد (الزهرابي)

ويرسل الرسائل التحريضية إلى بعض رجالات سوربة هذه الرسائل التي جرتهم . فيما بعد إلى مشائق (جمال باشا السفاح) دون أن يكون لها أي أثر إيجابي على مسيرة الكفاح العربي . . . ولم يكن (حقي العظم) في عمله (الغوغائي) متهوراً فقط^(٢٨) إنما كان يعمل بوحى من مصالحه الشخصية المرتبطة بالمشروع الفرنسي المرسوم ، وقد دلت الأحداث بعد ذلك على مدى صدق (العظم) في مهاجمته للزهرراوي وغيره ١١٢.

وفما كان (حقي العظم) منهمكاً في إرسال رسائل التحريض ضد (الزهرراوي) وبينما كان المرتبطون بالمشروع الفرنسي يصبون الزيت على النار في هذه الحملة المجنونة كان الاتحاديون وزبانياتهم يتهمون (الزهرراوي) ورجالات العرب من خلاله بأنهم ماطالبوا بالإصلاحات إلا للوصول إلى المناصب .^(٢٩) ومن العجيب حقاً أن يتلقف بعض الدارسين لهذه المرحلة ، ولهذا القضية بالذات من أمثال ((سهيلة الريمراوي - ود. عبد الله حنا ١٠)) هذا الاتهام ويننون آراءهم على أساسه ، متكرين لكل القرائن الدالة على أن (الزهرراوي) في قبوله لمنصب (الأعيان) - إن كان مخطئاً أو مصيباً - لا يمكن أن يكون منطلقاً من مصلحة شخصية لأسباب كثيرة يجب أخذها بعين الاعتبار منها :

- أنه ما عرف عنه أنه اشتغل بمصلحته الشخصية في يوم من الأيام، ومنها أنه في نضاله السياسي والإصلاحي الذي استغرق عمره وجهده كان دائماً في المعارضة ، والساعي للمناصب يدرك أن الوصول إليها يكون (بمماشاة آباء المملكة وليس بمعارضتهم) . ومنها أن (الزهرراوي) لم يكن مغموراً ، ولم يكن بحاجة لمنصب ليظل منه على دنيا الشهرة والزعامة .

ومنها تهجمه (الصادق) على أدعياء الإصلاح الذين يفهمون الإصلاح على أنه طريق لتسلم المناصب (إن جاءت فقد جاء

(الإصلاح) "أما طلاب المأموريات (الوظائف) فجياع مساكين لا يفهمون من الإصلاح إلا المأمورية ان جاءت فقد جاء الإصلاح وإن لم تجيء فقد منع الإصلاح" (٣٠) فلا يعقل لمن كان هذا رأيه وديدنه في حياته كلها أن يقع في فخ طالما حذر منه . ثم إن (الزهرراوي) ما قبل المنصب . إلا بعد رجوعه إلى (حزب اللامركزية) وبغض النظر عن التحفظات التي أبداهها الحزب تجاه هذا الموضوع والتي نشرت بعد استشهاد (الزهرراوي) إلا أن الحزب وافقه على (المضي بتجربته) وبرقية الحزب التي تأذن له بقبول المنصب اعتبرها (جمال باشا السناح) بعد ذلك دليلا على خيانة (الزهرراوي) ومبررا كافيا لإعدامه .

ويدور أن الحرب الصحفية والإعلامية التي شنها المرتبطون بالمشروع الفرنسي وزبانية الاتحاديين قد نجحت في تأليب الرأي العام وتصوير الأمر على أن السلطة قد اشترت رجال المعارضة . . . مما دفع بعض الشخصيات العربية البارزة إلى الوقوف في وجه تلك الحملة الظالمة فهذا (سليم الجزائري) يذكر في رسالة له إلى أحد أصدقائه : . . . ((إن الاتفاق الذي أبرموه (الاتحاديون) مع (الزهرراوي وعبد الكريم) ولا يسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج إليه ولكن ما العمل أيجوز لنا أن نخطئ (الزهرراوي) وننتقده على هذا الاتفاق ؟ أنا لست على هذا الرأي لأن (الزهرراوي) لو لم يتفق مع الحكومة ، فكنا الآن في أشد المآزق حرجا . فإما أن نقوم بعمل يهدد استقلال الدولة العلية ، ويؤدي إلى عكس الغاية التي نرمي إليها ، وهي نيل حقوقنا من (إخواننا) الترك ، ومشاركتهم في كل مايؤدي إلى تقوية الدولة ، وإسعاد سكانها أو أن نخلد إلى السكينة ، بعد كل هذه (القرعة) فيهزأ العالم بنا ، ويحتقرنا الاتحاديون أنفسهم ونصير مثالا للناس (٣١) . وهذا (محمد رشيد رضا) بعد أن يشير إلى (اللغظ والقليل والقال) الذي دار حول

قبول (الزهرراوي) لمنصب الأعيان يقول : ((٠٠٠٠٠)) إن أول نتائج الطعن في مثله - وقل أن يوجد مثله في طهارة سيرته الشخصية والسياسية - هي زوال ثقة الأمة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين ٠٠٠ وما أولئك الطاعنون إلا حاسد يذم من (الزهرراوي) ما يمتنى مثله لنفسه ، أو نفعي ساء ظنه لسوء نيته وفعله ، أو غيور شديد العصبية قليل الروية يبادر إلى ارضاء حميته ولا يحسب حساباً لعاقبة قوله أو فعله ٠٠٠ ولم يكن (الزهرراوي) من أهل الأهواء الذين يجعلون مصلحة الأمة والدولة تبعاً للأغراض، وعرضة للعواطف والأحقاد . بل كان يحب العمل المبني على القواعد المعقولة والرغائب المأمولة " (٣٢) (فالزهرراوي) في قبوله للمنصب : إنما أراد أن يكون للعرب رجال قرييون من مواقع اتخاذ القرار لأنه مهما عرف عن الاتحاديين من تعصب وعنيت ، لا يجوز اليأس من إرجاعهم إلى حظيرة الصواب (إن اليأس لا يجوز في حال من الأحوال، ولكن الأمة في كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها في شيء ، وإنه مع هذا لا يجوز إهمالها . ولذا لا يجوز إهمال من يدهم أمر المملكة ، وتركهم وحدهم . وإنه لا بد لنا ههنا من رجال . وإن أكثر ما يتصرف به الرواة غير صحيح وإنني منتظر أمركم بسرعة (أي الأذن بقبول المنصب) (٣٣) وخلاصة القول فيما يتعلق بأمر قبول (الزهرراوي) لمنصب الأعيان أنه بقبوله هذا المنصب لم يتحول عن سيرته ، ولم يصبح أحد أزلام السلطة وشريكاً لها في استلاب الأمة كما أحب البعض أن يقولوا * بل أراد أن يكون الشريك الممثل للقضية العربية ولكن يبدو أن منطق الأحداث مضافاً إلى عنصرية الأتراك ، أقوى مما كان يظهر إلى

* انظر ٥٠ . عبد الله حنا " أضواء على الاتجاهات العربية في سورية - برامج الجمعيات والأحزاب السياسية (١٩٠٨-١٩١٤) - حزب اللامركزية الادارية العثمانية " جريدة الثورة العدد ٦٩١٥ تاريخ ٢٣ / ١٠ / ١٩٨٥

الدرجة التي تبدو فيها آراؤه بهذا الخصوص . - بعد أن حدث
ماحدث - ساذجة (طوباوية)

ولكن (الزهرابي) كان صادقا ونزيها وبعيداً عن كل مآلهم
به نتيجة قبوله هذا المنصب . ولم يكن رفضه للمنصب ليقدم أو
يؤخر شيئاً في وجه الأحداث العاصفة التي كانت تهب على المنطقة
من كل جهة ، بينما كان قبوله للمنصب متمشياً مع منطق تفكيره ،
ومع مذهبه السياسي . ولكن الاتحاديين كانوا بعنصريتهم المقيتة
أبلد من أن يدركوا المهاري التي يسوقون إليها الوطن ، أو ربما
كانوا متأمرين على سوق الوطن إلى تلك المهاري . وقد أدرك
(الزهرابي) - بعد خراب البصرة - خيانة الأتراك فقال وهو على
منصة الإعدام : ((إن العناية ترعى وطننا الحبيب وإننا سوف نصل
إلى الحصول على استقلالنا كاملاً بعد أن نتقم من الخونة
الأتراك))^(٣٤)

وعلى العموم :

فقد كان (الزهرابي) عربياً فخوراً بعرويته ولم يكن تمسكه
بالعثمانية على حساب عرويته فنظرته إلى (العثمانية) كأطار سياسي
فضفاض يتسع لطموحات شعوب الدولة جميعاً أشبه بما نراه اليوم
من تكتلات إقليمية تقوم على المصالح المشتركة لاعلى هيمنة قومية
على أخرى .

وربما يكون (الزهرابي) أول من حدد الوطن العربي بمحدوده
التي نعرفها الآن وهو من أوائل القائلين بعروبة الشعوب التي
سكنت هذه المنطقة ومن أوائل القائلين بأن الحضارات التي أنتجتها
تلك الشعوب هي حضارات عربية . وهو حين رفض (الجامعة
الإسلامية) فإنما رفضها عن تبصر وعن وعي سياسي ومن منطلق

مؤداه : أن الرابطة المدنية من أقوى الروابط في حياة المجتمعات .
والطريف أن يصدر هذا الموقف عن رجل يصنف عادة في زمرة
المصلحين من رجال الدين كما فعل ذلك (د . منير مشابك
موسى) .



هوامش الفصل السابع :

- ١ - عبد الحميد الزهرراوي ، خديجة أم المؤمنين ، (القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٣٢٨ هجري) الصفحة ١٤ - ١٥
- ٢ - د. نجاح العطار ، ((الزهرراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين)) ، كلمة ألفت في مهرجان الفكر والعقيدة المنعقد في حمص ١٩٦٠ (دمشق ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية ، ١٩٦٢) .
- ٣ - عبد الحميد الزهرراوي ، خديجة أم المؤمنين ، صفحة ٢٥
- ٤ - المصدر السابق .
- ٥ - المصدر السابق .
- ٦ - المصدر السابق .
- ٧ - انظر : المصدر السابق .
- ٨ - انظر : المصدر السابق .
- ٩ - المصدر السابق صفحة ٩ - ١٠ .
- ١٠ - المصدر السابق ، صفحة ١٣ - ١٤ .
- ١١ - المصدر السابق ، صفحة ٣٩ - ٤٠ .
- ١٢ - المصدر السابق ، صفحة ٤٠ .
- ١٣ - المصدر السابق ، صفحة ٤٠ .
- ١٤ -
- ١٥ - أنور الجندي ، عبد العزيز الجاويش ، من رواد التربية والصحافة والاجتماع . (القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٥) ، صفحة ٢٤ - ٢٥ .
- ١٦ - مصطفى الشهابي ، محاضرات في الاستعمار ، مصدر سبق ذكره ، صفحة ٥٠ .

- ١٧ - د. سليمان موسى ، ((محب الدين الخطيب)) ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٩) ، الجزء الثاني صفحة ١١٥ - ١١٦ .
- ١٨ - د. فهد جديعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، مصدر سبق ذكره صفحة ٢٥٨ .
- ١٩ - عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، أحد أعداد السنة الأولى نقلا عن مجلة الإنسانية الحموية .
- ٢٠ - عبد الحميد الزهراوي ، " تريتنا السياسية - ٢ - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ العدد ٥٤ ، ٢٠ نيسان ١٩١١ .
- ٢١ - المصدر السابق .
- ٢٢ - المصدر السابق .
- ٢٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " تريتنا السياسية - ٣ - " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية العدد ٥٥ ، ٢٧ نيسان ١٩١١ .
- ٢٤ - د. فهد جديعان ، أسس التقدم عند مفكر الإسلام ، صفحة ٩٥ - ٩٦ .
- ٢٥ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم - ٦ - " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية العدد ٨٥ ، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١ .
- ٢٦ - انظر : د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام السياسة والاقتصاد والسياسة الفرنسية قراءة في الوثائق ، مصدر سبق ذكره .
- ٢٧ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية إلى محمد رشيد رضا ، مصدر سبق ذكره .
- ٢٨ - انظر ، د. سليمان موسى ، " محب الدين الخطيب " ، مصدر سبق ذكره .
- ٢٩ - انظر : د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام ... مصدر سبق ذكره .
- ٣٠ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية إلى محمد رشيد رضا .
- ٣١ - سليم الجزائري ، رسالة لأحد أصدقائه مؤرخة في عام ١٩١٤/١/١٥ ، "

الرسالة في أحد أعداد مجلة الحرب العظمى .

٣٢ - محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، ج ٣ / ١٩٠م ، ١٧٢ .

٣٣ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية إلى محمد رشيد رضا .

٣٤ - جهاد نجيب محي الدين ، " المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا

٩١٥ - ٩١٦ : " المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ،

وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٩) ، صفحة ٣٨٦ .



الفصل الثامن

التجديد

من أبرز صفات هذا المفكر العبقري ، أنه يضع آماله أمامه ، ويرى النموذج الذي يسعى لتحقيقه في الغد ، الذي يرجو أن يكون أكثر إشراقاً ، وهذه هي ميزة المفكر التقدمي . (فالزهرراوي) لم يكن كغيره يعود إلى الوراء ليستمد من ثمة الشرعية لما يدعو إليه ويبشر به . فلم يؤثر عنه أنه دعا في يوم من الأيام إلى استعادة /ألق الماضي/ ، أو إلى أحياء أبحاد العصور الذهبية الخوالي ، أو إلى النسج على منوال الأسلاف، انطلاقاً من مقولة (أن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله) بل وعلى النقيض تماماً ، يعتبر ((العناية بالمستقبل ، والعمل له صفة من صفات الإنسان الراسخة ، وأخلاقه الثابتة ، وغريزة من الغرائز المميزة له عن سائر الحيوانات... بهذه الغريزة بلغ الإنسان ما بلغ من الرقي المادي والمعنوي وبها حدثت المزاحمة بين الأعمال ، والمنافسة في العروج إلى الكمال وبها ارتقت علوم البشر ، وتفرعت معارفهم وتقدمت الصناعات والفنون))^(١) .

ونظراً لفهمه العميق لأهمية العمل للمستقبل ، كان همه بناء مستقبل الأمة (العربية) على أسس علمية وموضوعية ، وكان في

خطابه الفكري ، دائم التهكم والسخرية من مقولة (العودة إلى الماضي المجيد) ، بقصد تحطيمها ، وانتزاع القداسة التي يحاول البعض إلصاقها بتلك الأزمنة ((٠٠٠ ولوع الناس بالقديم ونسبة البركة والتفديس إلى الأقدم فالأقدم هذه المسألة التي أضلت الأمة وأنزلتها عن معارج الارتقاء . ولولا هذه المسألة لما كان علينا من سبيل إذا قلنا الحق في شيء يظهر فيه كذب بعض وخطأ بعض من الذين خلوا من قبلنا)) (٣)

فتفديس الأزمنة بقديمها ، يحمل في طياته سوء فهم لحقيقة ماحدث في التاريخ فالأزمنة القديمة لم تكن أكثر صلاحاً ، لاعلى المستوى الإنساني العام : " إن العهد بالفتن والشرور البشرية قديم جداً وإن وجه الأرض ماتطهر قط من رذائل التدليس وفضائع الأعمال في عصر من العصور . . . هذا آدم قتل أحد ابنيه الآخر فممن تعلم القاتل ذلك الشر ونوح . . . ولوط . . . متى صلح الزمان ؟) (٣) ولاعلى المستوى القومي (العربي) ((٠٠٠ فلم يعض الثلث الأول من القرن الأول على المسلمين حتى كفر بعضهم بعضاً ، فتحاربوا وتحاربوا وتخاذلوا إلى أن انقسموا إلى ثلاث : فئتان تشايح كل منهما رئيساً كبيراً ، وأخرى خارجة عن دائريتهما ، ناقمة عليهما حالتهما . ولم يعض الثلث الثاني حتى انقلبت دعوتهم إلى الدين وتهذيب النفوس ، دعوة إلى الملك والاستئثار ، وتوسيع الأبهة ، وجعله منحصرأ في أسرة يحدث أفرادها ماشاؤوا أن يحدثوا . ولم يعض الثلث الثالث حتى تكاملت أصول الشيع ، وأحدث في الدين من أحدث ، واخترع من اخترع . . . أفليس هذا هو أمرنا في القرن الأول الذي عليه مدار فخرنا ، وإليه يرد أصل مجدنا ، وفيه اتسع سلطان حكمنا ، وعلا منار ديننا)) (٤) وحتى لا يخطر ببال أحد أن (الزهرأوي) يحاول أن يهرب من جلده ، أو أن يتهرب ، من تاريخه ، نذكر بما كان يكتبه ويخطب به ،

مفتخراً بأجداد أمته العربية وبإنجازاتها الحضارية الرائعة على كل الصعد . كما نود أن نؤكد اعتداده الشديد بتعاليم الدين الإسلامي، وما أنتجته من قيم واتجاهات . . . ((فهو (الإسلام) الذي غرس في نفوسنا حب الحقائق ، وقوى عزائمنا على قول الحق، وهو الذي نهانا أن نتخذ المشهورين أرباباً . . . وهو الذي عرفنا قيمة العقل ، وهدانا إلى نقد النقل ، وهو الذي حذرنا من التمويه والموهين . . . وبين لنا الذين يكتبون الكتب بأيديهم ثم يقولون هذا -حكم الله ، ألا إن الله بريء من لا يصلحون))^(٥) .

ولكن (الزهرراوي) أراد أن يؤكد أنه ضد تقديس كل ماجاء عن الأجداد لالشيء إلا لأنه جاء عنهم . وبعبارات أخرى إن (الزهرراوي) في دعوته الملحة للاهتمام بالمستقبل والتحرر من مقولة الماضي الذهبي للأمة لم يكن يتنكر للتاريخ ، ولم يكن يدعو الناس لنسيان مآثر أجدادهم ، ولكنه كان ضد الاستلاب والتراكل ، والاتكاء على أجداد مضت . ثم هو يمتق المبالغات في نسبة المآثر للأجداد وادعاء ما لم يكن لهم . . . " لا يؤخذ على من يحتفظ بآثار قومه وينشر محاسنهم ويستنهض همم الأبناء إلى الاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ولا ينكر عليه أن يبذل أقصى ما في وسعه لتخليد ذكركم لأن ذلك من مقتضى طبيعة النوع من أشد عوامل الإرشاد تأثيراً . . . إنما يؤخذ عليه إسرافه في ذلك وتبجحـه بالباطل وتزيينه بمـاليس عنده . . . " ^(٦) .

فالإيمان بالمستقبل ، والعمل له ، صفة للإنسان وميزة من ميزاته الرئيسية والإنسان لا يعرف الوقوف عند حد ، ولا يقتنع بأي إنجاز ، فالإنسان ((بفضل قدرته على الصنع ، يصبح سيداً على الأرض . وقد أورثت النفس الإنسانية خصلة مهمة هي عدم الوقوف عند حد وغاية وبقار . ما يصسر الوقوف على طبيعة هذه النفس يسهل تبين (هذا الابتلاء) . . . وبفضل عام قناعة الإنسان

بالوقوف عند حد و غاية استيقظ من سباته وراح يتطلع إلى الأرض من حوله . . . ماذا يبصره إلى الأكوان الأخرى يستقصي حقائقها و يبحث عن أسرارها . . . ^(٧) وهذا المستقبل الذي يرسمه الأمل ، إنما هو نتيجة للخبرات البشرية ومحصلة للإنجازات الإنسانية . وهو يعتقد أن التنافس لبناء المستقبل الأفضل هو الدافع والمحرك للنشاط البشري ((لولا حب الزينة لما كان من حاجة إلى الصنائع ، ولولا كثرة الصنائع لما توفرت أسباب الاجتماع ، ولولا الاجتماع لما تبودلت الأفكار ، ولولا تبادل الأفكار لما حصلت المعارف الإنسانية، ولولا المعارف الإنسانية لكانت حياة الإنسان كحياة البهائم)) ^(٨)

وكما كان متوقفاً من إنسان يجعل أهدافه أمامه دائماً ويسعى إلى بناء المستقبل الأفضل على (الأسس المعقولة) ، فقد عمل على تحطيم كل الأغلال والقيود التي تكبل الإنسان ، وتشده إلى الوراء وتمنعه من المبادرة والمبادرة كما عمل على تحطيم الأوثان الفكرية التي سيطرت على العقول والنفوس ومنعتها من الإبداع (والرقي) وكبلتها بمقولات حاولت أن تضي عليها براقع من القداسة .

و(الزهرراوي) حين بدأ بتحطيم تلك المقولات منذ وقت مبكر من نضاله الفكري والسياسي إنما حاول - كما سبق وذكرنا - تحرير الإنسان - المواطن - من كل أشكال القهر والتسلط . وإذا كان قد بدأ بتحرير العقول والنفوس من أوثان التقليد الأعمى فلأنه يعرف أن هذا هو المقدمة الحقيقية والطبيعية للتحرر من طواغيت (الاستانة) وزبانيته وأزلامها واللائذين بها .

وإذا كان (الزهرراوي) قد قسا في مهاجمة العرف الشائع ، والأنظمة السائدة والمذاهب المهيمنة . فلأنه يدرك تماماً أن هذه الأعراف والتقاليد الموروثة هي الدعامة الحقيقية للنظام المستبد.

القائم، فالسلطة واحدة ولكنها تتنوع في الظاهر، أو لها سلطة الموروث القديم المتمثل في العقائد والعرف والتقاليد والأفكار الشائعة، وما ألفه الناس . هذا الموروث تتمثله القوى الاجتماعية فيتحول إلى سلطة سياسية هدفها استتباب الأمن والمحافظة على الوضع القائم . وتتمثلها السلطة الدينية فيتحول إلى مقياس للعقائد ومعايير للصواب والخطأ وهكذا لما خرج (الزهرراوي) عن الناس (برسالة عن الفقه والتصوف) ونحا فيها منحى التجديد (ثار عليه حملة العمامم وسكنة الأثواب العباءب . . .) من الخشوية والجامدين، وأثاروا ضده العامة، واستعدوا عليه السلطة العثمانية وكان ماكان من أمر اعتقاله ونفيه . . .

وقد وعى (الزهرراوي) هذا التعاون بين السلطة السياسية المستبدة وبين المنتفعين من أدعياء العلم، الذين ينكمشون حول مذاهب معينة، ويتفوقون ضمنها، مغلقين كل الأبواب والمنافذ (فجاءت المذاهب على كثرتها وتعارضها مضاهية لأديان مختلفة حتى ألغى أكثرها الزمان الذي جاء فيه حكومات أخذت مادونه قوم وأعرضت عن الآخرين . فالحكومات هي بالفعل حصرت الميدان، وأغلقت الأبواب . والمتمذهبون اتبعوا فعل الحكومات بالقول بأن باب الاجتهاد مسدود . . . وكل مطالع في تاريخ الإسلام يعلم أن كل طائفة من بلادهم شاع فيها المذهب الذي هو يته نفوس حكامهم الأول))^(٩)

فالحكام هم الذين تبنا مذاهب معينة، والمنتفعون من المتاجرين بالعلم طلباً للمناصب والمنافع وجدوا أن من مصلحتهم القول بإغلاق باب الاجتهاد امتثالاً لمصلحة أولئك الحكام . . . ((أم تقولون أن الاجتهاد انقطع منذ قرون، فمن ذلكم الذي قطعه يأيها المصدقون، ماقطعه إلا الحاكمون، وما أضل الناس إلا المسيطرون))^(١٠)

وإذا كان (الزهرراوي) قد انطلق في نضاله (التعروبي) من كتابه المبكر (خديجة أم المؤمنين) ، فإنه قد انطلق في نضاله التحريري من كتابه المبكر الآخر (رسالة في الفقه والتصوف) الذي نشر في البداية متفرقاً في (المنار) ، إلى جانب كتابه الآخر (نظام الحب والبغض) والذي ظل متفرقاً على صفحات (المنار) دون أن تتاح فرصة طبعه في كتاب مستقل .

والزهرراوي بهذه الكتب المبكرة أراد أن يضع المهاد ، ويهيء الأذهان والنفوس لتقبل الأفكار والأحداث ، والمبادئ المتحررة التي كان مع غيره من متنوري الأمة يعملون على غرسها . ويعتبر كتاب (رسالة في الفقه والتصوف) ثورياً بكل ماتعنيه الكلمة . ويبدو واضحاً أن " الزهرراوي " أراد لكتابه أن يكون زلزلاً يززع الأعراف والتقاليد والعادات غير السوية وغير المنطقية وغير المستندة إلى أساس من العقل أو الدين السليم والصحيح .

ويبدو واضحاً كذلك أنه أراد أن يثير الضجة التي ثارت ، وأن يلفت إليه الانتباه بالحدة التي يجب أن يلتفت فيها إلى حدث عظيم . والقارئ يلمح منذ الكلمات الأولى شخصية " الزهرراوي " القوية الحازمة والحاسمة والمتحررة . وذلك حين قدم لكتابه بهذه الكلمات : " برح الخفاء ، وآن للحقائق أن ينبليج نورها ، فقد مزقت عزائم المصلحين حجب الأوهام ، وأزالت غشاوة الأبصار . وللأطوار أدوار وللأدوار أسرار فسبحان الظاهر الباطن . إن لم يكن في كلماتي هذه براعة استهلاك لمقصدي ، وفاتي منها النصيب الذي يحرص عليه كتابنا القدماء ومقلدوهم في محامد خطبهم ، فإن فيها من قوة العزم في المقصد الإجمالي . ما يعرب عنه بأجمع عبارة .^(١١) واضح أنه قد أرادها ثورة منذ الكلمات الأولى وخروجاً عن المؤلف حتى في شكل المقدمة فجاءت أشبه بمقدمة منشور ثوري . وإذا وضعنا في اعتبارنا أن هذا الكتاب قد نشر في

المنار في أواخر القرن الماضي ثم جمع في كتاب في مطلع القرن الحالي " ١٩٠١ " أدركنا خطورة هذا العمل ، وتبيننا الغاية منه . وإذا كنا نجد في أسلوب " الزهراوي " حدة وحسماً وحزماً ، فلأن الأفكار التي يدعو إليها تستدعي مثل هذا الأسلوب " الصدامي " - إن جاز التعبير - ويجب ألا تفوتنا الإشارة إلى الشجاعة التي تجلت بإقدامه على نشر هذا الكتاب في حندس الحكم الحميدي ، كما تجلت في تبنيه ومدافعته عن آراء تتعارض - على خط مستقيم - مع ماهو شائع ومستقر في الأذهان . مما وضعه في مجابهة حادة وصریجة مع أزلام السلطة وزبانيته والمستفيدين من الهيكل الفكري الذي تستند إليه . والذي جاء الزهراوي ليزعزع أركانه ، وليحرر العقول من الخضوع والاستسلام له ، لأنه أدرك تماماً أن الاستسلام للمعايير السائدة " معايير المجتمع " والاحترام الدقيق لها يعينان تكوين نفسية خاضعة ، تناسب الطبقات المتسلطة ، التي تريد استمرارية النظام القائم . كما إن هذا الخضوع يحجب مظاهر العسف والظلم أو اللامبالاة يحجاب النفاق .. ومرة أخرى وحتى لا يساء الظن " بالزهراوي " وحتى لا يعتقد أحد بأنه أراد " المروق " من الدين ، أو أراد النيل من العقائد بأسلوبه الصدامي الحاد . نقول : بأن الزهراوي " كان واعياً تماماً بما يفعل ويعرف كيف ومتى وأين يوجه ضرباته . لذلك نجد أنه يرد على صديقه الذي نصحه بأن يخفف الوطأة قائلاً : " أما أنت فتخشى أن يتعدى كلامي إلى غيره ، مما نعتبره جميعاً مباركاً . وهو الذي أشرت إليه بقولك " فنصبح بلا قيد " ولكن إذا تذكرت أن الذي تغار عليه قوي ، وأن القوي يبقى ولا يؤثر فيه شيء ، وأنه لاخير فيما تقوم عليه الحجة ، وترحزحه عن موضعه ، ولاأسف على مايطير بنفخة روح الحق ترى يومئذ أنه لا بأس عليه من كلامي هذا ، وكلامي كل المتكلمين . " (١٢)

" الزهراوي " فيما كتبه - في هذا الكتاب وسواه - ظل

متمسكا دائماً بفلسفة قوامها الإيمان العميق بالإنسان والعقل الإنساني ، والرفض المطلق لكل العوائق التي تحول دون ممارسة الإنسان لإنسانيته المتمثلة أساساً في العقل ..

ويمكننا أن نحدد ملامح الفكر التجديدي عنده على الشكل التالي:

- الإيمان العميق 'بالعقل' الإنساني وقدراته .
- الرفض المطلق لمقولة قداسة ما جاء عن السلف .
- رفض العادات الموروثة .
- رفض المذهبية
- فتح باب الاجتهاد والعمل على استيعاب المستجدات .
- الإيمان بأن الدين في الأصل واحد وإنما تختلف الصور والأشكال .
- دعوته للاستفادة من المجازات الأمم الأخرى وعرض آرائه في مشكلة " الأصالة والمعاصرة " .

- الإيمان العميق بالعقل الإنساني وقدراته :

العقل هو الميزة الأساسية التي تميز الإنسان والتي صار الإنسان من خلالها إنساناً " نحن نعلم أن الإنسان من حيث طبيعته في الوجود ليس إلا حيواناً يتغذى كما يتغذى ويتناسل كما يتناسل وإنما يمتاز الإنسان بزيادة الإدراك وميله للتكامل .. وللفرار من الخصال المتناقضة الموجودة في غرائز الحيوانات المتغيرة لزم للإنسان قانون الاعتدال وهذا يتيسر متى كان العقل هو الحاكم وهذا ما يسمى بالفضيلة " (١٣) وبعد ذلك يغادر ساحة الفكر " الارسطي " ليعلن أن وجود العقل لدى الإنسان هو أساس التكليف " تالله .. ما خلقنا سدى " . والله حين وهب العقل للإنسان فمن أجل أن

يستفيد منه ، وأن يستخدمه " الإنسانية تلك القوى التي أوتيها الإنسان وقيل له أن الشكر على هذه القوى أعمالها وكفرانها إهمالها " (١٤) وإعمال العقل يدل على فهم طبيعة الأشياء وسنة الوجود: " حاشا لأمري أوتي ذرة من فهم الحكم في الوجود ان يسمح باهمال استعداد " العقل " لم يمنحه الله للعباد سدى " (١٥) ومن مظاهر إهمال هذا الاستعداد الاستسلام لآراء السلف ، وأخذ أقوالهم " على العمياء " - على حد تعبيره - دون تمحيص أو تدقيق. مما أدى إلى العطالة الفكرية التي أنتجت بدورها عطالة في مختلف الميادين وأدت إلى تخلف الأمة وضعفها . لذلك فهو يتهم بسخرية لاذعة على أولئك الذين أهملوا عقولهم " استحسان كل المعقولات فمن أهل الفكر نتيجة نظر وتأمل ومن أهل التقليد نتيجة ثقة بالمقلدين والأولى أن لا يعد استحسان هؤلاء استحسانا لأننا إذا أدخلناهم في صف من لا فكر لهم من المخلوقات لم يكن عملنا غير الصواب لأنه هو المطابق لروح الواقع " (١٦) فالمقلدون أقرب للبيغوات وللعجماوات بتقييدهم وإسقامهم لعقولهم " أمّا وقد فعلوا بعقولهم ما فعلوا من تقييدها وإسقامها ، فقد أصبحوا لا يرضون عنا إلا أن نفعل بعقولنا كفعلهم أو أشد . وأصبحنا نحن بين ثلاث : أمّا شهادة أن لا عقول إلا عقول الأقدمين ، ولا فضل إلا فضلهم ، وإما السكوت أمام الذين يقولون ونحن صاغرون . وإما الجدل وقول الحق في مانعهم " (١٧) وقول الحق في الذي عمله هو أن الاستسلام لآراء السلف - أيا كانت - والتشبث بها - على علاقتها - إنما يؤدي إلى تدجين الناس ، وصيهم في قوالب جاهزة ، أعدت لتناسب المتسلطين : " ولأنظر ماذا يقول الذين غلوا في حسن الظن بعقول من تقدمهم ولو بنزر من السنين ذلك الظن هو الذي عظم شأن تلك السيطرة التي قيدت الأبواب وأغلقت الأبواب وقطعت الأسباب وقامت مقام سلطة الأرباب وفينا راء وسامع والكل خانع وخاشع . (١٨)

والعقل مصدر أساسي من مصادر التشريع ، « أمّا نحن فمجتهدون وما إمامنا إلا الكتاب المبين ، ثم سنة الرسول الأمين ، ثم العقل الذي هو منه رب العالمين الذي كنا به " العقل " مؤمنين ومن أجله مكلفين . »^(١٩).

— الرفض المطلق لمقولة قداسة ماورد عن السلف :

باستثناء القرآن الكريم ، وهو خارج عن دائرة المأثور من تراث الأسلاف لأنه ليس من صنعهم . وباستثناء ما صبح عن الرسول وضمن شروط مثقلة وشديدة جدا ، فإن " الزهراوي " يرفض أن يكون ماورد عن السلف مقدسا وغير خاضع للنقد ومن ثم القبول أو الرفض حسبما اقتضى الحال .

فبعد أن ينتقد مثلا ماورد في الفقه في باب العبادات ، ويبين كيف أن الفقهاء قد اختلفوا فيما لا مبرر للخلاف فيه ، لأن العبادات " أفعال خاصة أمرنا أن نفعلها كما كان يفعلها النبي وأصحابه الذين تعلموا منه فهل التعاليم مختلفة بقدر ما اختلف هؤلاء الفقهاء أم أراد هؤلاء أن يوهموها المأثور^(٢٠) .. ينتقل إلى باب المعاملات ويبيّن أنهم قد أجادوا في بعضه بما يتناسب مع زمانهم ، ولكنه ينكر ويرفض أن يكون ماكتبوه وتركوه لنا ، كافيا لزماننا ويغنيانا عن غيره ، كما ينكر أن يكون كل ماكتبوه مستفادا من الدين ، ولا تدخل لعقولهم فيه . وينكر أنه لا يغني عنه غيره ويبيّن كيف كان هذا الفقه آلة بيد القضاة والمفتين ، يعيشون فيه كما شاؤوا . ويعلن أن تقديسه مضر ، لأن هذا التقديس « جعلنا ينادى بعضنا بعضاً من أجله ، كما أنه قد ترتب على تقديس الفقه تقديس المحاكم المنسوبة إليه " والمحاكم الشرعية " التي كانت ولا تزال بقاياها ميدانا تتجلى فيه الذرائب . »^(٢١)

وبرأيه أن ماورد عن السلف من " فقه " لم يعد صالحا ،
لأسباب الآتية :

« ١ - إن أزمتههم غير زماننا الذي تغيرت فيه التجارة وأزايها وفروعها
تغيرامهما .

٢ - وإن الرسول صلى الله عليه وسلم بتصريحه " المعاذ بن جبل " و " علي بن أبي طالب " رضي الله عنهما بأن يعملأ برأيهما إذا لم
يجدا نصا كفانا مؤونة السلاسل التي ربط الناس بها أقوام كتبوا
الكتب بأيديهم ثم قالوا هذه من عند الله .

٣ - وإن هذه الأمم التي ليس عندها هذه الكتب قد أغناها الله بفضل
عقولها في تدبير التجارة و .. الخ .

٤ - وإن هذه الأقوال المتضاربة المتعارضة ليس لاكثرها من سبب الا
منافع القضاة ومن في حكمهم .

٥ - وإن اعتناء كل طائفة بذهب واحد على ما فيه من تعدد المرجحين قد
فرق كلمة المسلمين منذ زمن بعيد حتى أوصلهم إلى هذه الحالة .. » (٢٢)

وحين كان يواجه بنقاش مؤداه بأنه لابد للأمم من شرع ،
وقانون جامع للجزئيات الحوادث ، وأن الإسلام قد جاء بأسمى
ما تتطلبه الحاجة المدنية يرد : إن هذا من أجزاء معتقدنا ، و متممات
إيماننا ، لكن ما جاء به الإسلام قواعد كلية ، والإحاطة بالجزئيات
موكولة إلى أفهام رجال العلم والعقل ، مع إرجاعها إلى تلك
القواعد . والاختلافات إنما نشأت من الأفهام ، وهي اختلافات
عظيمة» (٢٣) فالتشريع ضروري للأمم « كل أمة قد خلت لها
حديث في الآخرين يتلونه مستبصرين ، وعلمائنا " الفقهاء " .. إنما
هم كالذين حلوا ، فلئن قلنا إنهم سدوا حاجة زمانهم ، فما نحن
بملمومين إذا قلنا إن ما نقدسه اليوم هي مجموعة كتاباتهم ، التي
اقتضتها عصورهم ، وطابقت عقول معاصريهم من الحكومات
والرعايا .. وأما كونهم قد برعوا بذكر الجزئيات ، فلانخاذ الكثيرين هذه
الصناعة ديدنا في كل عصر ومصر ، وقد وقع مثل هذا لكل أمة

متحضرة . وأن أدري هل أغنتهم براعتهم تلك عن ذلك الاختلاف المشوش ، أم كان نصيبهم منها نصيباً من كان قبلهم ، ممن أوتوا الجدل وحرموا العمل ، نصيب أولئك الذين كانوا يتجادلون في المذهب في القسطنطينية والفتح على أسوارها . ^(٢٤)

فتقديس أقوال السلف وما خلفوه لنا من كتب ، سبب من أسباب الفرقة ، وإضاعة للجهد وتبديد للطاقة بالاتجاه الخاطئ . وأشد ما ينكره ادعاء الفقهاء من السلف أن كل ما كتبه هو من عند الله ويجب التسليم به والاعتماد عليه وأن هؤلاء الكتاب والفقهاء لم يحدثوا شيئاً من عند أنفسهم . ويقسروا على زعمهم بأن ما كتبه كان نتيجة لإجماع المسلمين ، على اعتبار أن الإجماع أحد مصادر التشريع ، هذا المصدر الذي يرفضه " الزهراوي " رفضاً مطلقاً أولاً : لأن المسلمين ليسوا شعباً واحداً ، وليسوا على سنن واحد في النحلة والعادات : " فالمسلمون بما تحيزوا للدول صاروا شيعاً في الآراء السياسية ، ثم بما تحيزوا للرؤساء في الدين صاروا شيعاً في الآراء العلمية والمذاهب الدينية ، ثم بما تحيزوا للجنس (العرق) " صاروا شيعاً في المشارب والمعايش .. دع عنك زمن الخليفين وقل لي : متى كان الإجماع ؟ وكيف يجمع قوم حالهم على ما ذكرناه آنفاً ؟ وأي المسلمين مطالبون أن يفهموا معنى ذلك الإجماع ؟ أعرابهم الضاربون في بطون الأودية ؟ أم أمصارهم المولفة من أبناء الروم والفرس والقيط وقليل من أبناء الأجناد ؟ من المطالب منهم بالتشريع ؟ ولادة أمورهم ؟ وهم من علمت بين لاه فرح بالنعمة الجديدة التي ورثوها ، وبين حازم نشيط مشغول بتسكين الفتن .. أم الرواة الذين لم يكن أكثرهم يعلم أكثر من النقل والحكاية ؟ ^(٢٥) ويرفض القبول بالإجماع ثانياً " لأن الذين يعتد بإجماعهم كانوا بعيد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقين في البلاد . فمتى روي أنهم سئلوا عن المسائل التي زعم الناس فيها

الإجماع فاجابوا بما وافق كلام الجمهور . وأما إجماع التابعين فهيئات هيئات ، فذلك أبعد منالا من إجماع من قبلهم .. ولايجحد " كلامي " الا من أوقفهم التقليد في موقف واحد فهم لايرحون . " (٢٦)

" والزهراري " يدرك تماما أنه بكلامه هذا ينحاز إلى صف الفكر التقدمي ، ويرفض الفكر الرجعي المتمسك حرفيا بما ورد عن السلف المدافع عن أشياء " كثير منها مفترى إما لتقديس ألفاظها وإما للتمسك بمآلها غير حاسبين للنتيجة حسابا " (٢٧) ، وهو يبرر انحيازه إلى المفكرين التقدميين بأنصع عبارة : « ماذا من الرأي لامرئ ابتلي في مجتمع هذا حاله ؟ أينحاز إلى زاوية بيته وهي نخلة لايسبحها علم الاجتماع نخل عنك أنها لا تيسر ؟ . أم يتصامم عن دعاوي الفتنة " المصلحين والمقلدين " ؟ ويرمي بعقله بين أقدام الفريقيين وحاشا لامرئ أوتي ذرة من فهم الحكم في الوجود أن يسمح بإهمال استعداد لم يمنحه الله للعباد سدى ولم يكن الله ليرضى عن عبد يرى الحق ويستطيع أن ينصره فلا ينصره .. ويرى الكذب ويستطيع أن يخذله فلا يخذله » (٢٨) .. فهو يفرق بحزم بين الإسلام كعقيدة ودين ، « مصدره القرآن المجيد فهو الحجة العظمى والعروة الوثقى والنور المبين .. كتاب عربي من عرف أساليب العرب يفقهه ، ومن وقف على أقوال الرسول يتبحر فيه ، لا يختص بفهمه أهل عصر ولا أهل مصر » (٢٩) .. ومصدره كذلك ماثبت من أحاديث الرسول ، يفرق بين ذلك وبين ما تركه السلف من تراث عاجلوا فيه ماواجههم به زمانهم ومحيطهم من مشكلات . وهو لم يضع هذا التراث موضع العقيدة وحاول جاهدا أن ينزع هالة القداسة التي حاول البعض إحاطة التراث بها . فالتراث منجزات إنسانية " زمنية " أوجبها ظروف ومعطيات تاريخية محددة ، نطلع عليها ، دون أن نكون ملزمين باتباعها خاصة حين تتعارض مع

معطيات زماننا وما تفرزه بيئتنا من مستجدات فكنا استطاع السلف أن يوجدوا التشريعات التي واجهوا بها ظروفهم فمن حقنا نحن أيضاً بل من واجبنا أن ننجز من التشريعات ما يلائم واقعنا " فما بالهم (الفقهاء) يوجبون على الناس أن يضاهوهم وأن يقلدوهم ؟ وما بال فريق منهم جعلوا لكتبهم من الاعتبار أكثر مما له ؟ إذ قالوا إن مفاهيم الكتب حجة عندنا دون مفهوم القرآن فتأملوا وأبصروا.. » (٣٠)

- رفضه للعادات والتقاليد غير المنسجمة مع روح العصر :

من الطبيعي أن يترتب على رفض (الزهراوي) لتقديس الفقه، وتقديس كل ماورد عن السلف من آراء ، رفضه لما تولد عن ذلك من عادات وقيم ومفاهيم ، حين لا تستند إلى أساس راسخ من العقل والمنطق خاصة حين تتحول هذه العادات إلى أغلال وسلاسل تقيد النفوس والعقول . " أف للعادات ما أثقل أحكامها ، وما أظلم قضاءها ، وما أشد عتمة مسالكها ، وما أسوأ عواقب الجمود عليها ، وما أبغض صفقة الذين لا يتزحزون عنها ، نعم نعم أف للعادات فكهم أوقفت بعض الأجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكير ، فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس (٣١) " فالعادات نشأت في زمن ما ، ثم تأصلت وترسخت حتى تحولت إلى طقوس مقدسة ، لا تقوى العقول المستلبة على مواجهتها أو التخلص من إسارها : " فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول ، تزج بها في مهاوي العدم ، أو تذرهما في سجن أقفر ، ممنوعا عنها كل ما يريها . وياعجبا لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم ، والقضاء على عقولهم وقلوبهم ، أليس لهم ما يذكروهم بأن العادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم ؟ أليس لهم ما يبصرهم

بأن العادة يجب أن تكون تابعة لامتبوعة؟ ومنقادة لاقائدة؟^(٣٢) أما نشوء العادات ورسوخها فبسبب " وفرة فوائدها في أوقات سلفت، وأحوال مضت والناس يرثون من السالفين كل شيء ، ولا يميلون إلى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلا شديدة على يد عاصف من الحوادث ، أو هبة شديدة من إرادة بعض الأشخاص . وكنم دكنت الإرادات القوية أطوادا من العادات . "^(٣٣)

فتغيير العادات ، والإفلات من إسارها ، وتخطيم الفاسد منها، يحتاج إلى أصحاب الإرادات القوية من المصلحين والمستنيرين . وهؤلاء المصلحون والمستنكرون ما كانوا ليظهروا لولا أنهم قد تحرروا في البداية من أسر البيئة المحيطة بهم وتجاوزوها : « الذين خلصوا من هذا الأسر - " أسر الاهل تجاه الأبناء " قد بعدوا بأفكارهم عن أفكار والديهم بندا شاسعا ومن العجيب أن هؤلاء الخالصين من ذلك الأسر على قلتهم وانفرادهم في أمهم كانوا المغيرين لعادات البشر وأخلاقهم . »^(٣٤)

- رفض المذهبية :

« المذهب عالم مغلق ، لامداخل إليه ولامخارج منه ، دائرة مغلقة لافجوات، بها لذلك فانه لايقبل التطور أو التغير مهما تغيرت الظروف والأحوال . مذهب أبدي شامخ كالطود ، حقيقة مطلقة لاياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ..

لايقبل التمديل أو النقد من أنصاره وإلا كان ذلك نهاية له .. يؤخذ كله أو يرفض كله لايمكن الدخول في حوار معه فهو بناء متكامل لايقبل النخل أو المراجعة .. »^(٣٥) وقد فطن " الزهراوي " منذوقت مبكر إلى تلك الحقيقة فبين كيف أن كل مذهب قد تحول إلى نظام متكامل " يقبل كله أو يرفض كله " على الرغم من وجود

ثغرات كثيرة فيه وعلى الرغم من وجود آراء مرجوحة فيه. «فجاءت المذاهب على كثرتها وتعارضها مضاهية لأديان مختلفة .» (٣٦)

« وقد سبب اتباع كل طائفة لمذهب واحد على ما فيه من تعدد المرجحين تفريق كلمة المسلمين منذ زمن بعيد حتى أوصلهم إلى هذه الحال وهل منكر لها » (٣٧). والمذاهب - برأيه - في تصلبها وانغلاقها ومقارمتها ورفضها لكل أنواع التواصل مع بعضها إنما هي من صنع الحكام والمتسلطين والمستفيدين " لأن كل مطالع في تاريخ الإسلام يعلم أن كل طائفة من بلادهم شاع فيها المذهب الذي هويته نفوس حكامهم الأول " ولكن العامة في اتباعهم المذاهب عن طريق التقليد قد فاتهم ذلك مما أدى إلى تشبث كل فئة منهم بمذهب معين والتعصب لأئمتهم ، والظن بأن الدين الصحيح يكمن في اتباعه ، وأن المروق عن المذهب مروق عن الدين . وزاد من تمسكهم وتعصبهم وعدم السماح لأنفسهم بالتعامل مع سواه إلا من باب سوء الظن والشك والريبة ، تلك العبارات والاصطلاحات التي كان فقهاء المذهب يطلقونها ، كقولهم عن عمل من أراد أن يستفيد من آراء بعض المذاهب الأخرى لمواجهة مشكلة محددة بأنه " تلفيق " « فهل يرجى بعد تحكم تلك المذاهب في كل ناحية لفت الناس عنها؟ وإن كان لا يرجى فهل بقاء هذه الحال غير مغل بالفائدة (٣٨) ورفض " الزهراوي " التوقع ضمن جدران مذهب محدد ، لما في هذا التوقع من بحافة الروح العقل والمنطق والحياة المتجددة ، دفعه إلى موافقة صديقه الذي يحاوره في أمر الفقه حين يقول هذا الصديق " العلماء بين أمرين : إما أن يعتبروا أن كل ما حرره الأئمة وقرروه هو من الدين ، فليزعمهم في هذه الحال انتقاء الأحكام الموافقة لحالة العصر من كتب المذاهب ، وتدوينها في كتاب خاص .. يعمل به المسلمون على اختلاف مذاهبهم ، وإما ألا يعتبرون ما حرره الأئمة من الدين ، بل يعتبرونه رأياً أداهم إليه

الاجتهاد .. فيتفق جميعهم (العلماء) على جعل علم الفروع علماً نافعا في هذا العصر . مراعى فيه جانب الحاجة مضافاً إليه مافات المتقدمين من التوسع في مناحي أخرى أصبح التوسع فيها الآن من ضروريات الحياة الاجتماعية^(٣٤)، وإن كان " الزهراوي " يميل للرأي الثاني ويرجحه وقد دفعه هذا إلى الدعوة لفتح باب الاجتهاد.

— الاجتهاد والتجديد :

انطلاقاً من فهمه السليم لأسباب نشوء المذاهب ، وأسباب التشبث بها ، وإدراكاً منه لأهمية التجديد، وأهمية ضرورة فتح باب الاجتهاد الذي ما كان يجب أن يغلق أساساً ، أنكر على " علم الفقه " كما يصوره المقلدون من الفقهاء مايلي :

- « ١ - أنه يكفي لزماننا ويغنينا عن غيره
- ٢ - وأنهم " الفقهاء " استفادوا كل ما كتبه من الدين ولا دخل لعقولهم فيه .
- ٣ - وأنه لا يعني عنه غيره .
- ٤ - وأنه لم يكن آلة بيد القضاة والمفتين ومن في حكمهم يعثون فيه كما شاؤوا .
- ٥ - وأنه ليس من المضر تقديسه الذي جعلنا ينادى بعضنا بعضاً من أجله^(٣٥)»

فالاجتهاد واجب علينا وحق من حقوقنا لوضع التشريعات والقوانين لمواجهة العصر ومستجداته " وسيقول الذين يعرفون الحق بالرجال هؤلاء علماؤنا من قبل ، وإنا وجدنا آباءنا لهم متبعين ، فمن هذا الذي يزعم أنه عالم بالدين ؟ ويحترى على رد كلام المتقدمين ؟ فما نحن بتاركي علمائنا لعلمه بل نحن بعلمه جاحدون . قل هذا دين الله خاطب به المؤمنين وكلف به العاقلين فمن ذا الذي

يحصّر فهمه بالمتقدمين ؟ ثم يحصره بالأربعة المشهورين " أصحاب المذاهب " ؟ سيقولون هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا في الأولين وإنا لنحن المقلدون ، ومالنا من عقول كعقولهم ، بل هم الفائقون ونحن المحرومون. وإن قلدنا كنا من السالمين ، وإن لم نتبع كنا من المبتدعين الضالين . قل اصنعوا بأنفسكم ماتريدون أمّا نحن فمجتهدون ، وما إمامنا إلا الكتاب المبين ، ثم سنة الرسول الأمين ، ثم العقل الذي هو منه رب العالمين ، الذي كنا به مؤمنين ومن أجله مكلفين يأيها الناس إن الذي فرض القرآن قد يسره للذكر أفأنتم تصدون أن يتذكر به المتذكرون ها أنتم هؤلاء تقولون إن نتبع إلا المؤلفين وإن نحن بمستمعين إلا أهل مذهبنا الكاملين .. أتقولون لا يجتهد إلا الأولون هل عندكم من سلطان بهذا إن كنتم صادقين .. أم تقولون إن الاجتهاد قد انقطع منذ قرون فمن ذلكم الذي قطعه يأيها المصدقون ماقطعه إلا الحاكمون وما أضل الناس إلا المسيطرون ما ضاع الكتاب ولا ذهبت السنة ولا خلق من غير عقل المتأخرون . » (٤١)

وبعد هذا يمكننا أن نزعّم بأن كلام " محمد أركون " ينطبق تماما على " الزهراوي " حين يقول : « هل هناك في مجتمعاتنا المعاصرة، من يخاطب الجماهير الناشئة المتزايدة بهذا الخطاب العلمي، حتى تنضج النفوس ، وتقندر العقول على تفهم مايجري للإنسان أو عليه في المغامرات التاريخية ، من يلقن بعمله وقوله ، بسيرته وتعليمه ضرورة الاجتهاد في سبيل الاستقلال العقلي الذي لا يستحق الإنسان اسم الإنسان إلا به من يدافع عن الدين كمستوى للتنازه .. » (٤٢)

وحتى لا يبقى أمر التشريع والاجتهاد عملا فرديا - كما كان في الماضي - فيجوز الواحد ما يمنع الآخر دعا " الزهراوي " إلى تشكيل لجنة من ١٠-١١ مسلمين في كافة أقطارهم يكون مقرها

القاهرة " في رحاب الأزهر " ترفع إليها القضايا والمشكلات لتبحث فيها وتتخذ بشأنها الفتاوى المناسبة : «هأنحن أولاء بهذه المناسبة نقترح على المنار " الأنور " أن يفتح بابا بهذا الموضوع الجديد " الاجتهاد " يقبل فيه اللوائح التي ترد إليه في كل باب من أبواب الفروع بعد عرضها على جمعية علمية تنعقد في القاهرة لهذه الغاية»^(٣) ، وبذلك يكون " الزهراوي " قد سبق الكثير ممن دعوا إلى أن يوكل أمر التشريع إلى " سلطة تشريعية " يتولاها " جمع " يستنبطون الأحكام الدينية والدنيوية ويضعون القوانين الملائمة لحوادث الزمان والمكان .

ولم يكتف " الزهراوي " برفض المذهب المغلق والضيق ، بل سار في الشوط إلى مداه ، حين دعا إلى ما يشبه وحده الأديان ، وحين دعا صراحة إلى اعتبار أن الدين في الأصل واحد من حيث الغاية والجوهر ، إنما تختلف الصور والأشكال وطرائق العبادات وهو في هذه الدعوة لم يكن يهدف إلى هدم الفكر الديني بقدر ما كان يهدف إلى جعله مفتوحا ومرنا ومتجاوزا للطقوس والعادات والحركات التي قد لاتعني شيئا إذا ما انفصلت عن الغايات التي وضعت من أجلها .

المرأة في فكر الزهراوي :

المرأة أحد قطبي الحياة ، وسبب من أسباب ديمومتها . لذلك فقد أوجدت الفطرة في أعماق كل من الرجل والمرأة ميلا وانجذابا نحو الآخر ، يكاد أن يبلغ في بعض الحالات حد الانصهار : " بحيث لو ساعدت الخلقة بأكثر من هذا الوجه لتضامت ذرات أجزائهما . تمام التضام فصارا جسما واحداً " ^(٤) " ومن تهافت الرأي والفكر جعل المرأة في مكان أدنى ، وسلبها - ظلما وجهلا - الكثير من

المزايا والمكارم » لقد علمنا أن الفرق ليس بكبير في الفطرة بين الرجل والمرأة وليست المرأة بمحرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلي بمثلها من الرجال ذلك أننا نرى لمن عقولا سليمة ، وقلوبا كريمة ، وهمما عظيمة وهل للرجال ينابيع للمكارم غير هذه العقول والقلوب والهمم . «^(٤٥)

وبما أن الزهراوي يشارك بفاعلية في تأسيس نهضة شاملة ، كان لابد أن يعمل على انصاف المرأة ، حتى تتبوأ المكانة اللائقة بها في بنيان المجتمع حتى تكون قادرة على العطاء والمشاركة . ولم يكن عمله في هذا المجال هامشيا أو عرضيا ، بل كان عملا مقصودا ومنظما ، فيه من الرفاء بقدر مافيه من القيام بالواجب . وهو حين ألف كتابه الشهير " (خديجة أم المؤمنين) إنما أراد أن يقدم لنا صورة واضحة عن أثر التربية في تكوين المرأة ، وعن مدى ما يمكن أن تبلغ من النمو ، ويجري على يدها من النفع ، وذلك ليقتنع الناس برد حقوقها المشروعة ، والعناية بتعليمها وترقيتها . وقد كان هذا من أهم أهدافه . «^(٤٦)

وماقالته " الدكتورة نجاح العطار " كان " الزهراوي " على وعي تام به ، وكان يشكل أهم بواعثه ودوافعه ، « فمن راقه هذا المؤلف الصغير - خديجة - وحصلت له به لذة وفائدة ، فلي حق أن أرجوه شيئا ، ولا أرجوه إلا أن يكون مساعدا في إقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها »^(٤٧) ، هذه الحقوق التي تتمثل أكثر ماتتمثل في المساواة مع الرجال في الحقوق والواجبات ، لأن هذا من مقتضى الدين من جهة ، ومن مقتضى الحياة الاجتماعية من جهة ثانية : " نرى الأديان اعتبرت المرأة كالرجل التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب ، ونرى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل ، وإذا كان التاريخ لا يتحدثنا كثيراً عن هذه المساواة ، لاسيما حين يتعلق الأمر بالحقوق ، فلان المؤرخين قد توارثوا إهمال ذكر

المرأة في الوقت الذي أكثروا فيه من ذكر مآثر مشاهير الرجال وتعداد مزاياهم ومنابعهم . استغفرك اللهم عن زلة زلها أكثرهم من حيث لا يشعرون ، وهي إهمالهم كثيرا من سير الأقطاب من أمهاتنا ، ولو لا تلك الزلة التي ذكرناها للمؤرخين لكان اللائي نعلمهن أكثر وما اللائي نعلمهن الآن من الفاضلات بقلائل . «^(٤٩)» .

وسدا لهذه الثغرة ألف " الزهراوي " كتابه القيم هدية منه لوالدته ، ومن خلالها لبنات جنسها . « كنت تفكرت في أن أكافيء والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكير أن عظيم فضلها علي هو أبعد من أن يوفي شيء من حقه . ولكن تراءى لي أنه يسرها أن أعلي للملأ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس »^(٥٠) ومن أهم هذه الحقوق ، الحق في تلقي تربية مفيدة وسليمة ، لأن هذا سيؤثر إيجابا في واقع المجتمع ، ويساعد على التخلص من رواسب التخلف : إن النساء أمهاتنا معشر الرجال ، وعلى حسب تربيتهم نكون . فنطلب من محيطنا أن يهذب بالعلم الأمهات ، ويسعى لتزقية مداركهن وآدابهن »^(٥١) وقد حرص في كل مناسبة على الحث على تعليم البنات : « ويصح أن يهتم هذا القسم من موضوعنا بالحث على تعليم البنات فان الام هي المريية الأولى . »^(٥٢)

ولا يفوت " الزهراوي " أن يقترح المنهج المناسب لبناتنا ونسائنا كما لا يفوته أن يرفض المناهج المستوردة والتي يشر بها البعض : « فالبنات يجب أن يتعلمن تدبير المنزل وأمور بيتهن ولست أدري لماذا لا يعلمونهن قواعد اللغة العربية أيضا وتاريخنا المجيد والسيرة النبوية كما يجب وكما ينبغي أمّا تعليمهن لغة الأجانب فلا أجد له معنى وهذا الموضوع بحمد ذاته يستحق كلاما كثيرا . »^(٥٣)

ولعل هذا الكلام الكثير يدور حول خطر تسرب عادات الأجانب وأنماط سلوكهم وقيمهم عبر لغتهم إلى عقول ونفوس نسائنا ، على اعتبار أن اللغة حاملة الفكر والقيم ، فينخدعن بالقشور عن اللباب وبالتوافه عن الأمور الاخطر والأجدر .

أما بالنسبة للعلاقة التي تربط بين الرجل والمرأة من خلال الزواج فإن " الزهراوي " يعتبرها علاقة مقدسة لا يجوز أن تكون موضع اساءة أبدا ، فهو يهاجم بضراوة مايجري على ألسنة الناس من الأيمان الفاجرة، ويهاجم ماكان يجري في ساحات المحاكم المسماة بالشرعية " من أخطاء فاحشة نتيجة التفسير الآلي للنصوص والشرائع مما يؤدي إلى تقويض دعائم الكثير من البيوت السعيدة ويصف مايجري في هذه المحاكم حيث : « تطلق فيها أزواج مطهرة لاذنب لمن إلا أن بعولتهن أقسموا بفروجهن فيما لادخل لهن فيه .. وان كلمة توجب فراق حبيبة ، أم بنين وبنات لجديرة أن تعتبر أغلظ أيمانهم »^(٥٤). فالمرأة عنده قطب حياة وشريك فاعل في درب المدنية لمن المالرجال وعليهن ماعليهم .

وبعد :

فإن " الزهراوي " مفكر تقدمي بكل المقاييس ، وقد وجه عنايته إلى المستقبل ، ورفض أن يتم تقديس القدماء ، وماصدر عنهم من أقوال واجتهادات ، لالشيء إلا لأنهم سلف " ، وإلا لأنهم سبقوا إلى الوجود ، وهو في كتبه ، وفي مقالاته المبكرة ، حاول أن يحطم فكرة تقديس ماصدر عن السلف ، مساهمة منه في التحرر من كل أشكال القهر والتسلط وتهيشة الأذهان والنفوس لتقبل الأفكار والمبادئ المتحررة، وبذلك تزول العوائق التي تحول دون ممارسة الإنسان لإنسانيته، المتمثلة أساسا في العقل . وقد تجلت ملامح التجديد عنده بمائلي : الإيمان بالعقل الإنساني وقدراته / الرفض المطلق لمقولة قداسة ماجاء عن السلف / رفض العادات الموروثة حين تغدو غير مناسبة وتتحول إلى عيب / رفض المذهبية الدينية / فتح باب الاجتهاد وجعله بيد هيئة لايبدا أفراد / الإيمان بأن الدين في الأصل واحد وإنما تختلف الصور والأشكال / ضرورة الاستنادة من إنجازات الأمم الأخرى .

أما بالنسبة لإيقفه من المرأة فقد اعتبرها أحد قطبي الحياة :
وأنها ليست محرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلي بها والمرأة
عقل سليم وقاب كريمة وهمة عظيمة ، وهل للرجال ينابيع للمكارم
غير هذه العقول والقلوب والهمم " . إن النساء أمهاتنا معاشر
الرجال وعلى حسب تربيتهن تكون .. والأم هي المربية الأولى " .



هوامش الفصل الثامن :

- ١- عبد الحميد الزهراوي ، « نظام الحب والبغض » مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .
- ٢- عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، " القاهرة ، المطبعة العمومية ، " ١٩٠١ " ص ٢٣ .
- ٣- المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- ٤- المصدر السابق ، ص ١٣ - ١٤ .
- ٥- المصدر السابق ، ص ٢٦ .
- ٦- عبد الحميد الزهراوي ، « شعور الأمم بما ضيها وجمعية التتاري الآستانة » ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٥ ، ٢٧ نيسان ١٩١١ .
- ٧- انظر : عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الندراس ، جلد ١ ، ح ٨ ، تشرين ١٩٠٩ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٦ .
- ٨- عبد الحميد الزهراوي ، نظام الحب والبغض ، مصدر سبق ذكره .
- ٩ - عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤-١٥ .
- ١٠- المصدر السابق ص ٤٠ .
- ١١- المصدر السابق ص ٢ .
- ١٢ - المصدر السابق ، ص ٢٥ .
- ١٣ - المصدر السابق ص ٥٠ .
- ١٤- المصدر السابق ص ٥٢ .
- ١٥- المصدر السابق ص ١٤ .
- ١٦ - عبد الحميد الزهراوي ، نظام الحب والبغض " مصدر سبق ذكره .
- ١٧ - عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، مصدر سبق ذكره ص ٢٣
- ١٨ - المصدر السابق ٣٧
- ١٩- المصدر السابق ٤٠

- ٢٠ - المصدر السابق ، ٣ .
- ٢١ - المصدر السابق ، ص ٧
- ٢٢ - المصدر السابق ص ٧ - ٨
- ٢٣ - المصدر السابق ، ص ١٢
- ٢٤ - المصدر السابق ، ص ١٢ - ١٣
- ٢٥ - المصدر السابق ، ص ٣٠
- ٢٦ - المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٣١
- ٢٧ - المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- ٢٨ - المصدر السابق ص ٢٤ .
- ٢٩ - المصدر السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ .

- ٣٠ - المصدر السابق ص ٣٦ .
- ٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، تحديجة أم المؤمنين " مصدر سبق ذكره .
- ٣٢ - المصدر السابق ص ١٠٠
- ٣٣ - المصدر السابق ص ١٠٠
- ٣٤ - عبد الحميد الزهراوي ، « نظام الحب والبغض » ، مصدر سبق ذكره .
- ٣٥ - د . حسن حنفي ، متى تموت الفلسفة ومتى تحيا " مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس عشر العدد الثالث .
- ٣٦ - عبد الحميد الزهراوي الفقه والتصوف مصدر سبق ذكره ص ١٤
- ٣٧ - المصدر السابق ص ٧ - ٨
- ٣٨ - المصدر السابق ص ١٥
- ٣٩ - انظر : المصدر السابق
- ٤٠ - المصدر السابق ص ٦
- ٤١ - المصدر السابق ص ٤٠
- ٤٢ - محمد اركون الفكر العربي ، ترجمة د . عادل العوا ، مقدمة الطبعة العربية، الجزائر ديوان المطبوعات العربية ١٩٨٢ " ص ١٤

- ٤٣- عبد الحميد الزهراوي الفقه والتصوف ص ١٥ - ١٦
- ٤٤- عبد الحميد الزهراوي « نظام الحب والبغض » ، مصادر سبق ذكره .
- ٤٥ - عبد الحميد الزهراوي خديجة أم المؤمنين ص ٦
- ٤٦ - د . بنجاح العطار ، « الزهراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين » مصدر سبق ذكره .
- ٤٧ عبد الحميد الزهراوي خديجة أم المؤمنين ص ٨
- ٤٨- المصدر السابق ص ٧
- ٤٩ - المصدر السابق ص ٦
- ٥٠ - المصدر السابق المقدمة
- ٥١- المصدر السابق ص ٨
- ٥٢- عبد الحميد الزهراوي الافراد والجماعات بمجلة الانسانية مصدر سبق ذكره
- ٥٣- المصدر السابق
- ٥٤ - عبد الحميد الزهراوي الفقه التصوف ، ص ٢٥ .



الفصل التاسع

الإصالة والحداثة في فكره

شاهد " الزهراوي " تنافس المفكرين العرب وتشاحنهم ، بدل تعاونهم وتضافر جهودهم للخروج بالأمة من برائن التخلف والجهل . ووجد أن هؤلاء المفكرين قد تنوعت مشاربهم وتشتت غاياتهم ، وماذلك إلا بسبب اختلاف مصادر ثقافتهم وبسبب انقطاع الحوار وروح التفاعل فيما بينهم ، « فإن منا من أسألتهم الإنكليز ، ومنا من يأتون بالألمان ، ومنا من يستضيفون بنور الفرنسيين ، ومنا من يرون للأسلاف نظراً بعيداً فلا يهتمون كل ما أتى عنهم ، ومنا من يهتمون تراث الأسلاف كله ، ومنا من يلتمسون الحكمة أني وجدوها وطبيعي أني بين هذه المآخذ شيء من الثباين .

وبسبب ذلك أصبحنا نجد الذين يعدون في هذه الأمة مفكرين ، لا يرى بعضهم بعضاً شيئاً مذكوراً . »^(١)

ومن المعروف أن الغرب " الأوربي " يعتبر مشروعه الحضاري الأكمل والأرقى ، وينظر إلى حضارات الشعوب والأمم الأخرى على أنها حضارات بدائية لا يجوز أن تقارن بحضارته ، ولا أن

توضع على قدم المساواة معها ، وتقع على عاتق الأوربيين - على زعمهم - مهمة نشر رايات الحضارة - وفق النموذج الأوربي - في كل أنحاء الأرض . وباعتقادهم أن الشعوب والأمم الأخرى ستظل متخلفة بقدر ماتبقى بعيدة عن تبني مقولاتهم الفكرية ، وما يترتب عليها من قيم وأنماط سلوك وأساليب إنتاج واستهلاك .. والمفتونون بالغرب . من مفكري الأمة العربية كثيراً مادعوا - صراحة - إلى ضرورة تخلي العرب " الشرقيين " عن أفكارهم وعاداتهم وأساليب حياتهم والالتحاق - دون قيد أو شرط - بركات الفكر الغربي اذا ما ارادوا النهوض والتقدم .

وفي المقابل ، وربما بدافع من رد الفعل البعيد عن المنطق دعا فريق آخر من مفكري الأمة إلى رفض كل ما يصدر عن الغرب لأن الغرب عدو يتربص بنا الدوائر ، ولا يرضى إلا أن نكون بعض الدائرين بفلكه . أمّا " الزهراوي " فقد كان من أولئك الذين يلتمسون الحكمة أنى وجدوها ، وهو مع تفتنه إلى أن الغرب يسارع دائماً إلى وصم كل من يقاوم مخططاته ومشاريعه بأنه متخلف ، أو إرهابي ، أو متعصب ، خاصة حين رأى الاتهامات التي كان يوجهها كتاب الغرب إلى " السنوسيين " ، مع أنه لا ذنب لهم إلا محاولتهم الوقوف في وجه المشاريع الأوربية « كل من عرف السنوسية حق المعرفة " في عهده طبعاً " يمتدحهم على قيامهم في كبد الصحراء بما ينفع بني آدم من المؤاخاة وتقليل الشرور بين القبائل ، وإيواء ابن السبيل وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، فلماذا لا يترقب كتاب الاوربيين من هؤلاء إلا كل شر ؟ وهم قوم قد بعدوا جهد استطاعتهم عن هذه السياسات الميئة .. ولا ذنب لهم إلا شبه قوة على الدفاع»^(٢) مع تفتن " الزهراوي " لذلك فقد أبى أن يفهم العلاقة بين الشرق والغرب على أنها علاقة عدا ، وإنما هي - في رأيه - نوع من " تنازع البقاء " ومن الطبيعي أن يكون

البقاء للأقوى : «الحالة التي بيننا وبين الأجانب لا تسمى في الحقيقة عداء ولا يصح أن تسمى صداقة ، وإنما هي من نوع ما تسمى " تنازع البقاء " . ومانعني بالبقاء هنا وجود حكومة لنا ، وإنما نعي بقاء ما يميز الحكومة التي لنا ، من وجود اختيار وإرادة لنا أمامهم ، وهذا هو الذي ينازعوننا عليه»^(٣) فلا قيمة برأيه لدول ترفع الأعلام ، وتردد الأناشيد ، وتصرخ بالشعارات إذا كانت ملحقة بخاشية الدول الكبيرة ، وداخلة في مناطق نفوذها ، ولا تملك لنفسها إرادة أو اختياراً أو سيادة .

والزهراوي إذ يعترف بقوة الأوربيين ، ويتقدمهم العلمي ، وبإنجازاتهم المادية إلا أنه لم يفقد توازنه أمام كل ذلك ، ولم تأخذه الدهشة التي تجعله يتجاهل ، الأطماع والمشاريع الأوربية كما دأب " الدكتور وجيه كوثراني " على ذكر ذلك كلما جاء ذكر " الزهراوي " . بل نجد " الزهراوي " في كل مناسبة ومنذ وقت مبكر يحذر من مخططات الأوربيين وأطماعهم . وحين كان يبدي إعجابه بالتقدم العلمي الأوربي ويدعو إلى الاستفادة منه ؛ كان يرفض وبصراحة أن يكون ثمن ذلك الاستلاب : «نعم للأجانب فضل عظيم في حياتنا العلمية - وكل شيء فهو يتبع العلم - ولكن إذا كان ثمن التفضل التجريد من كل إرادة واختيار ، أفلا يكون الموت خيراً من الحياة معه»^(٤) فالمشكلة التي كان يواجهها مع رفاقه المصلحين هي : «السبب الذي فيه الأمة والجشع الذي فيه أوربا»^(٥) هذا الطمع " الأوربي " . الذي ليس له آخر مادام لنا وجود»^(٦) ويبدو أن الدكتور وجيه كوثراني " حين بنى آراءه حول تغافل الزهراوي عن المشاريع الأوربية لاسيما الفرنسية على خطاب الزهراوي في مؤتمر باريس ، وعلى تصريحاته التي أدلى بها للجرائد الفرنسية حينئذ قد تناسى المقام الذي قيلت فيه تلك التصريحات " والدبلوماسية " التي كان يجب أن يتحلى بها الزهراوي . وإن

كان لم يذهب في مراعاته لآداب المجاملة إلى حد التخلصي عن الأهداف والمبادئ نلمس ذلك مما دار في اللقاء الذي جرى مع وزير خارجية فرنسا ، الأمر الذي دفع وزارة الخارجية الفرنسية لأن تبرق إلى سفاراتها وقنصلياتها بأن " الحركة العربية قد انقلبت علينا " بل إن اكتشاف " الزهراوي " للغاية التي عقد من أجلها مؤتمر باريس ورأيه في مداولاته ، ورأيه في بعض المشاركين فيه وكما جاء ذلك في الرسالة السرية التي أرسلها لصديقه محمد رشيد رضا ، ومن قبله منصب الأعيان بعد ذلك دليل أكيد على أنه لم يكن متغافلا عن مشاريع فرنسا وسواها ، وكان الأجدر بالدكتور " كوثراني " أن يرجع إلى مجموع كتابات " الزهراوي " وليس إلى خطاب وأقوال أملتها ظروف معينة . فقد كان " الزهراوي " يدأب على التنبيه إلى الخطر القادم من أوروبا لاسيما من فرنسا . بل إن عداؤه للفرنسيين كان من أهم أسباب دعواته للتعاون مع " الإنكليز " المنافسين التقليديين للفرنسيين تماما كما فعل من قبل " مصطفى كامل " حين دعا للتعاون مع الفرنسيين بصفقتهم أعداء للإنكليز وكان دائما يصرح « أن أوروبا مهتمة اليوم كل الاهتمام لأحوالنا الحاضرة لأن لها علاقة عظيمة بشؤونها الاقتصادية ومسالكها السياسية »^(٧) وكان يقرع نواقيس الخطر المرة بعد المرة : « أن أوروبا تتفق وإن اتفاتها جدير أن يخيفنا .. ومن المظنون أن اتفاقها أصبح قريبا ، فماذا أعددنا من الحساب لذلك اليوم الذي تقضي فيه سياسة الاتفاق ماهي قاضية »^(٨) وفي رأيه أن الأوروبيين جميعا وبلا استثناء متألبون على الشرق ، وإن لبسوا في بعض الحالات لبوس الصداقة . وفي رأيه أن حلقات الخلاف مهما اشتدت بين الأوروبيين « يبقى من السهل أن يؤيدوا عرى الصلح على أكتاف الشرق الذي يتسع عرضها له كله »^(٩) .. « فمن قال ان هذه الأمم الأوروبية التي تجتمع بينها القربايات المتعددة إنما قصارى همها إخضاع الشرق والاستيلاء عليه فقله صحيح تؤيده المؤيدات الكثيرة من المعقولات والمحسوسات . »^(١٠)

وهجوم الغرب على الشرق " هجوم قوة على ضعف وعلم على جهل .. فللقوف في وجه الأطماع الأوربية لا بد من امتلاك القوة » لأن القوة إذا وجدت أمامها قوة اضطرت أن تقف وتؤدي الاحترام ، وأما إذا وجدت أمامها عدما فانها تدوس ، وحق لها ان تدوس ، لان من أسقط نفسه من حظ الوجود لا ينبغي أن يلوم غيره على المرور فوقه » فالتوازن مع الأعداء أساس من أساس امتلاك الإرادة » لأن حصول التوازن هو أعظم أساس لحصول التفاهم وبحصول التفاهم تندفع التطوحات ، ويغدر الوقوف عند الحدود أمراً مألوفاً »^(١٢) .. ولامتلاك هذه القوة التي تردع الأوربيين ، وتقف في وجه مشاريعهم ، لا بد من تجاوز كل مظاهر التخلف واجتثاث جذوره ولا بد من بناء الأسس العلمية والموضوعية للنهضة شاملة . أما المساعدات المالية ، والقروض التي كانت الدولة تسعى للحصول عليها ، فكلها ذات مفعول آني سرعان ما يتلاشى أو قد تتحول إلى أمراض جديدة تحتاج للعلاج » المليون أو المليونين أو العشرة . قد تجدي ... ولكن من لنا بمطاردة الجيوش المستحوزة في البلاد من الفقر والجهل وتفكك الروابط ؟ ومساعدات هذه الجيوش المعنوية مستحوزة فإن البلاد كلها مهددة . فمن كان محباً أن يعيننا فليكن معيناً بعقول نفقه بها كيف نسير بين الأمم فقد أصبحت حياتنا بينها عجيبة »^(١٣) . ومما يساعد على تحقيق النهضة الشاملة ، وعلى تجاوز التخلف بكل مظاهره ، الاستفادة من علوم الأوربيين ، ومن إنجازاتهم المادية والتنظيمية ، وتوظيف ذلك في خدمة أهدافنا ، دون أن تعزينا الدهشة ودون أن نستلب ، لأننا أمة عريقة بالحضارة ولها باع طويل في الإنجازات . وبالنسبة للأنظمة والترتيبات التي يجب أن نستفيد من خبرة الأوربيين فيها فيجب أن نعلم أن روح هذه التنظيمات وغاياتها موجودة عندنا منذ القدم .. فبالنسبة مثلاً للاستفادة من المؤسسات الديمقراطية " فنحن إنما

اقتبسنا من أوربا طريقة من طرق ترتيب الاستشارة (الشورى) ولم نقتبس أساس الاستشارة . على أننا لانعني أن الذي اقتبسناه من أوربا شيئ هين وإنما قصدنا منه إثبات عراقتنا بما هو روح القوانين الأساسية " فالأوروبيون حين قيدوا حكوماتهم بالقوانين والدساتير ، واعتبروا الأمة مصدر التشريع والسلطة فإن الأمر كان كذلك عند العرب ، حين كان الإمام (الخليفة) لا يصبح حاكماً شرعياً إلا بعد أن يحصل على مبايعة (أهل الحل والعقد) نيابة عن الأمة . ولكن (كان من أعظم ما أهملناه مسألة (نصب الحكومة) تلك المسألة التي اعتنى السلف بها كثيراً ووضعوا أصولها بالسيف والقلم أحسن وضع ...) فلا بأس إذا استعنا بخبرات الشعوب الأخرى لإعادة الأمر إلى الأمة وإلى الشعب الذي يجب أن يعرف كيف يحسن مسألة حكامه ... ويمكننا أن نوجز رأي (الزهراوي) فيما يتعلق بمسألة (التراث والمعاصرة) وبكيفية التعامل مع النموذج الأوربي للحضارة بما يلي : استند (الزهراوي) في طروحاته إلى الفكر العربي الإسلامي في ثوابته التي تحدد خصوصية الأمة ، ومن هذه الثوابت تقديم مصلحة الأمة على مصلحة الفرد " الفرد في هذه الحياة يخلق لأجل غيره ولأجل نفسه فينسى أنه مخلوق لأجل غيره ويحصر همه ويفرغ زمانه لأن يعمل لنفسه ويفتكر لنفسه ولو تذكر الأولى لأفلح" (١٤)

فالأفراد مهما طاللت حياتهم للموت منقلبون ، ولاخلود ولا بقاء للفرد . أمّا من رام الخلود فليطلب ذلك في غير شخصه وخارج دائرة نفسه وذاته " فمن أراد بقاءها (النفس) فليطلب بقاءها في أعمال يعملها وخدمة يقدمها لأمته فيبقى حينئذ بقاء أمته . " (١٥)

ومن تلك الثابت الدعوة إلى العلم باعتباره طريق الخلاص من رتابة الجهل " في يد العلم بعضاً يبعث كما أضل الجهل

بعضاً ببعض ، ولا يزال العلم يجاهد الجهل إلى أن ينصره الملك القدوس السلام ، على أيدي رجاله الأعلام (المصلحين) " (١٦) .

ومن الثابت عدم الخروج على الدين ، وعدم التكرار له ، وعدم اعتباره عائقاً يحول دون التقدم . وقد مر معنا من قبل كيف رد على من اعتبر أن تدين الدولة بالإسلام سبب تخلفها . ومن الثابت محاربتة للتواكل والبطالة والقعود عن السعي لذلك فهو يقسو في انتقاده للفكر الصوفي ويعتبره فكراً عاطلاً معطلاً : " أمّا أنا وأمثالي فيجدر بنا أن نجهر بالحقيقة التي لم تغن عنها المداراة وهي أن علم التصوف علم ملفق من كلام فلاسفة الملل الأولى ، وشيء مماثل له من متن الدين ، وأن المتصوفين - أكثرهم - إمّا من الذين استحبوا البطالة واخترعوا أساليب ليعيشوا بها بل ليفوزوا بأطيب المطاعم والمناكح . وإما من الذين فسد مزاجهم فغيروا نعمة الله التي آتاهم وعاكسوا سنن الوجود ... وإن الكمال الإنساني ليس بالتكشف والفرار من الخلق بل الوقوف عند الحدود ، والعدل في الحقوق ، والإحسان للمخلوق " (١٧) فالتصوف عنده - وكأنه يستهدي فكر المعتزلة - نوع من التدجيل على أصحاب العقول المحدودة عن طريق الادعاء والتظاهر " وكم استعبد هؤلاء الموهمون الناس بهذه القوة (القوى الرهمية المدعاة) حتى اتخذوا آلهة - بمعنى أنهم يفيضون ويصرفون الخير والشر لمن أرادوا يزعمهم ... " (١٨) لذلك فقد حذر الناس من أمثال هؤلاء : " لا تمل مع كل من هبت ريحه بدعوى التصوف والصلاح وما أشبههما من الأبواب الدينية التي يدخلون منها للمقاصد المعاشية فاسمع يارعاك الله معناً " (١٩) .

ومن ثوابت الفكر العربي التي تمسك بها وحرص على نشرها التحلي بمكارم الأخلاق ، وربط العلم بالعمل المبني على الأخلاق الفاضلة ، لأنه لا قيمة لعلم أو عمل ما لم يقترن بالخلق الطيب : " نجد في طبائع الجماهير الاستغناء عن الرجل العالم إذا لم يكن مع علمه

شيء يزينه من الأخلاق المرغوبة المطلوبة القريبة من المعروف عند الجمهور البعيدة عن المنكر عنده " (٢٠) . وعنده أن الأخلاق هي التي تحفظ الذكر وتخلد الأثر وعظماء التاريخ لم يخلد ذكرهم إلا " بفضل ما اتصفوا به من أخلاق ومن عرفوا في السيرة بطيب الأعراق ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيء عند التاريخ إذا لم تؤيد بمآثر ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشيء من أعمال أصحابها " (٢١)

ومن ثوابت الفكر العربي الإسلامي التي تمسك بها الدعوة إلى القوة ، والعمل على تحصيلها في كل المجالات ، لاسيما المجالات المادية مثل اختراع الآلات حيث أنه يعتبر الآلات (أدوات الإنتاج) أعضاء البنية الاجتماعية كما أن حب الزينة وحب التميز روح حركتها والدستور (القانوني الأساسي) والشرعية والمنهاج هو روح تنظيمها وتكملها وانبساطها .. (٢٢) وإذا كان للإنسان نوعان من القوة قوة طبيعية (وهي ما منحه الفاطر لشخصه من قوة جسد وعقل وقلب) وقوة صناعية وهي ثمرة التعاون الذي اهتدى البشر لفوائده) ، فإن (الزهراوي) يعتقد أن الأهمية للقوة الصناعية التي هي ثمرة التعاون والاجتماع والعلم والتربية . بل أنه يعتبر القوة الصناعية هي الأساس حتى في تنمية وتربية القوة الطبيعية ذاتها " أمّا تدرج الإنسان في القوة الطبيعية فتابع لارتقائه في القوة الصناعية حيث أن علمه الباهر يرجع إلى عدم العلم (خلق الإنسان جهولا) وقوته الرائعة ترجع إلى عدم القوة " وخلق الإنسان ضعيفا " (٢٣) .

ومن ثوابت الفكر العربي الإسلامي العدل لذلك فالفكر السياسي عنده يمتلك بعدا اجتماعيا " فالأمر تعاون وتكافل لا تفضل وتطاول " . ويرأيه أن عزة الإنسان وكرامته فوق كل شيء وهذه العزة والحرامة لا تتحقق إلا بتردد تحصيل الثروات والأموال لذلك فهو

دائم التذكير للأغنياء بما أضاعوه من الكرامة والعزة نتيجة تمسحهم بأعتاب الطغاة المسيطرين " هناك أمر أوجه إليه نظر الأغنياء فيكم وهو أن المرء يطلب في هذه الحياة مع المعيشة شيئاً من العزة والمجد فأني مجد وعزة لمن يبيع ضميره ويحنى رأسه ... فيما يخالف الحق والوجدان ورغائب الأمة " (٢٤). ومن ثوابت الفكر العربي الإسلامي البعد عن العنصرية ، ورفض كل ما يترتب على الفكر العنصري من مقولات ونتائج : " فالإنسان قريب الإنسان كيفما كان اللون واللسان وأنى كان المسعى والمكان " فالعنصرية العرقية والعنجهية العنصرية التي كثيراً ما نجد لها في ثنايا ما يكتبه أدعياء العلم من الأوربيين حين يهاجمون الأمم الأخرى ويزدرون منجزاتها أمر يرفضه (الزهراوي) ويتهم عليه ذلك لأنه " لاعمى عند أهل العلم (علم النفس وما يصلحها وعلم الأخلاق) لتعصب كل قوم على آخرين بغير الحق إلا الأثم والعدوان والبغي والطغيان " و(الزهراوي) بعد أن يؤكد على أهمية تلك الثوابت في الفكر العربي لا يتفوق ضمن مقولاتها متشبهاً بها تشبهاً أعمى معتبراً إياها - كما فعل غيره - القمة الشاخنة التي لا يطاولها ولا يمكن أن يطاولها الفكر - المجلوب - بل نراه يتجه شطر الحضارات الأخرى لاسيما الحضارة الأوربية المعاصرة ... ليستفيد من علومها ومنجزاتها - المادية خاصة - كما يحاول أن يستفيد من تنظيماتهم وترتيباتهم السياسية التي ابتكروها لتأكيد سلطة الأمة وللحد من طغيان الحكومات ولجعل الأمر بيد الأمة - من قبل ومن بعد - وهو مبدأ تؤيده المؤيدات المستمدة من متن الدين ومن مآثورات الأمة - . ومما ابتكره الأوربيون ووجد صدى عميقاً في نفس (الزهراوي) قيام الأحزاب وهو أمر كنا قد أفضنا فيه عند بحث الفكر السياسي عنده فهو يعتقد أن " التعاضد من غير نظام يبقى أبتر وأنه لابد لتكامل التعاضد من تأليف حزب نظامي " (٢٥).

ومما ابتكره الأوربيون في هذا المجال النظام النيابي الذي يعتبره الزهراوي ترتيباً ناجحاً لتحقيق مبدأ الشورى ... ومما لفت انتباه (الزهراوي) ومتنوري الأمة هذا التقدم الأوربي في المجالات الصناعية والإنجازات المادية لذلك فقد دعا إلى الأخذ بهذا الاتجاه مبيناً أن " القوى المعنوية - مع كثرة فوائدها - لاتغني وحدها عن القوى المادية وربما دفعنا هذا العلم اليقيني إلى ارتياد أسباب القوى المادية أشد مما كنا نرتاد " (٢٦)

ومما لفت انتباهه في الفكر الأوربي الاهتمام بتأثير البيئة والمحيط وهو أمر وأن أولاه المفكرون العرب القدماء جانباً من اهتمامهم ، إلا أن الأوربيين خاصة بعد عصر النهضة قد أعطوه الاهتمام الذي يستحقه لذلك نجد (الزهراوي) يشير إلى أهمية البيئة والمحيط في تكوين الآراء والأفكار وإنجاز المنجزات : لذلك فهو يدعو إلى تهيئة الظروف الملائمة وإبعاد الأطفال عن كل قسر أو قهر يمكن أن يمارسه (الوالدون) قصداً أو عرضاً ويؤكد أن الأولاد الذين أتيحت لهم فرصة الإفلات من قهر وتسلط الأباء هم الذين أتيحت لهم فرصة الوصول إلى الأفكار العظيمة التي حرروا بواسطتها الإنسان " ذلك أننا نجد أنحص قرابة وهي قرابة الأولاد من الوالدين لاتوجب قرابة الأفكار والقلوب إلا إذا كانت أفكار الأولاد مأسورة بيد الوالدين أو أحدهما وهو الأكثر ، والبداهة تشهد أن هذه القرابة الفكرية على هذا الوجه صناعية أيضاً ، ومن المشاهد أن الذين خلصوا من هذا الأسر قد بعدوا بأفكارهم عن أفكار والديهم بعد شاسعاً ... " (٢٧) . ومما استفاده من الأوربيين فكرة الاهتمام بإرادة الجماهير والأفراد فهو مع إيمانه بأن " الكثرة ليست من الأدلة في المنطق لإثبات رأي ولا هي من الأدلة في الديانات لإثبات عقيدة ... " إلا أنه يعتقد أن " الكثرة في السياسة والاجتماع قوة يلتفت إليها ويحسب حسابها " (٢٨) .

و(الزهرراوي) في تعامله مع الفكر الغربي وإبجازاته على مختلف الصعد - وكعاداته دائماً - يستند إلى العقل والمنطق ويتبعد عن الادعاءات والشعارات الطنانة ، ويدعوا المفكرين والمصلحين والزعماء لنقل ما تكون الأمة مستعدة لتقبله من الأفكار والآراء وأنماط السلوك ويدعوهم لتجنب إقحام الأفكار ، إقحاماً يؤدي إلى النفور منها .

و(الزهرراوي) يحذر من التشديق بالألفاظ والمصطلحات والمسميات لالشيء إلا للتمايز والادعاء " قل ماشئت أن تقول وسم ما أردت أن تسمي لا تناقش باحثاً في لفظ يؤدي إلى معنى يؤديه لفظك أو قريباً منه " (٢٩) وهو ينتقد الشككية (واللفظية) التي يقع فيها الكثير من المفكرين ، حين أغرقوا أنفسهم بالكلمات الغريبة ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في مدلولاتها - فجاء عملهم سوريا ، آليا ، عقيما : " إن العلماء - من حيث الجملة - يعرفون المعروفات ويوضحون الواضحات وكثيراً ما ينتج عن كثرة كلماتهم واصطلاحاتهم ... إيهامات يشغلون بها أذهان القارئ على غير جدوى ... لالشيء إلا حب توسيع مسافة الفرق بينهم وبين العامة .. (٣٠) فلا قيمة برأيه لعلم أو رأي يكون الدافع له المباهاة والمفاخرة والامتياز على العامة دون أن يعمل على البولج إلى الصميم ويكون أداة لسعادة الناس .

وقد سادت فكرة أن النموذج الغربي هو النموذج الوحيد للحضارة المعاصرة ، وأن الرجال الذين يحملون لواء هذه الحضارة لا يمكن أن يخرجوا إلا من بين جدران المدارس النظامية ، والمدارس التي تدرس المناهج الأوروبية أو المستقاة منها . ولكن (الزهرراوي) يعلن تهافت مثل هذا الرأي الصادر عن المأخوذون بمظاهر الحضارة الأوروبية : " أمّا مقلدو المدنية اليوم فكثير منهم يظنون أن لا مطلع لأمثال أولئك الرجال إلا من بين جدران المدارس الرسمية ، وهوظن

بعيد عن الصواب جدا ، يشهد بذلك الماثور من أخبار نوابغ أوربا وأمريكا ، فضلاً عن قدماء نوابغ الشرق ، الذين ما برحت المدنية الحاضرة تجعل نفرا منهم في مصاف المعبودات " (٣١) فالمصلحون وحملة رايات التقدم يمكن أن يخرجوا من صفوف الدارسين في المدارس النظامية ، كما يمكن أن يخرجوا من بين صفوف الفئات الأخرى .

وبالجملة نقول إن (الزهراوي) صاحب فكر تقدمي ومتفتح ، يرفض التوقع ضمن قوالب الفكر السلفي الجاهزة وإن كان لا يتنكر للثوابت التي تحدد ملامح وخصوصية الأمة . وهو في تمسكه بهذه الثوابت إنما يعبر عن أصالة فكرية فذة ، خاصة حين يعلن صراحة أن هذه الثوابت مبادئ كلية عامة ، استفاد منها الأسلاف في تقنين الشرائع التي ناسبت زمانهم ومكانهم وظروفهم ، وعلينا نحن أن نستفيد منها ومن سواها في وضع ما يناسب زماننا وبيئتنا من القوانين . ويحذر من دعوة (السلفيين) إلى التمسك الحرفي بكل ما ورد عن الأباء الأجداد ويدعو إلى الخروج من إهاب العلوم المكرورة وإلى الابتعاد عن اجترار مصطلحات وكلمات لم تعد ذات قيمة في كثير من الحالات . كما يدعو إلى الإنطلاق إلى حيث العلوم النافعة أيا كان مصدرها ، دون خشية حقا قد يروجه الحشوية والجامدون " كيف ونحن نرى بلادا ازدهرت فيها العلوم فأثمرت لأهلها انتشار العدل ، وشيوع الأمن ، وتيسير الأسباب وبلادا أقفرت من العلوم فكثرت فيها الظلم ، وشاع فيها الخوف ، وتقطعت فيها الأسباب فتتمنى - والإنسان بالطبع محب لنفسه وجنسه وبلاده - أن يكون لهذه البلاد نصيب مما لتلك . فنرى كلما رام أحد أن يأخذ عن أولئك (الأوربيين) شيئا من العلوم نافعا سخر المألأ من قورمنا بعقله وعلمه بل قالوا : كافر أو مفتون وإذا أردنا أن يعطوه شيئا من علومهم قالوا له : بادئ ذي بدء اعلم وتعلم أن الماء سبع وهو ماء واحد " (٣٢) .

فالعلم النافع برأيه ، والذي يجب اعتباره علماً حقاً ، والذي يجب أن نتعلمه وأن نأخذه عن أي مصدر كان ، هو العلم الذي يثمر للناس العدل والأمن وتيسر الأسباب ومما سبق نرى كيف أن (الزهراوي) قد حاكم التراث أحسن محاكمة ، وكيف ميّز بين ما يجب تقديسه من الدين والعقائد التي جاءت على شكل نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة ، وبين ما ابتكره الأسلاف من شرائع واجهوها بها ما أفرزته بيئتهم من معطيات وإشكالات . وبرأيه أن النص القرآني عبارة عن مبادئ عامة وكلية من حقنا أن نستفيد منها بما يتناسب مع روح ومعطيات عصرنا وأن نفهمها - ضمن شروط علمية وموضوعية - وأن نجتهد في اشتقاق أحكام وآراء نواجه بها معطيات وإشكالات ظروفنا المعاصرة وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية الصحيحة . أمّا مادونه مؤلفر الأسلاف فلا يحمل في طياته أية قداسة لأنه ليس من الدين ونحن أحرار نأخذ منه - بغير تحيز لفئة أو مذهب - مانراه مناسباً ونسترشد ببعضه الآخر ونرفض ونترك ما لم يعد فيه غناء أو منفعة . ومما لا ريب فيه أن أفكار (الزهراوي) هذه ، بما تحملها من نفس تقدمي واضح قد سبقت أفكار الكثيرين . بل إن عدم الإطلاع على آراء (الزهراوي) يجعل الكثيرين يظنون أن الدعوات والأفكار التي يطلع بها اليوم بعض المفكرين العرب هي دعوات جديدة ومبتكرة . وبعبارة أخرى نقول أن أفكار (الزهراوي) ما زالت تحتفظ بوهجها وتألقها وجدتها وما زالت تعتبر آراء تقديمية . (فالزهراوي) سبق عصره في هذا المجال وإنه لمن المدهش حقاً أن يكون هذا الشيخ المعمم ، والذي تلقى تعليماً أصولياً ، هو الحامل لهذه الأفكار التقدمية ، وهو الداعي - عن بصيرة - لوحدة الدين ولرفض المذاهب ، ولاعتبار الفقه نشاطاً إنسانياً لا يلزم أحداً تقديسه . كما أنه الداعي صراحة إلى الانفتاح على العلوم

والحضارات المغايرة ، للاستفادة من إنجازاتها لذلك فهو يرفض الإنغلاق على الذات باسم الوطنية ، أو بسبب أية دعوة أخرى .
وعلىنا برأيه أن نستفيد من كل المستجدات لأنه " لا ينفعنا الجمود ، ومعاداة كل أشياء الأجنبي باسم الوطن ، فإن الوطن للبشر واحد هو دار الأعمال والتكاليف التي تطلب من الكل ، ويتبادلها الكل وليس حب الوطن هو الكز على عادات الأسلاف ، أو الحرص على اللبث في مساقط الرؤوس ، كما يفسره جمهور العوام ، ولا الإقدام على مجاهدة الذين يريدون أن تكون سلطة فيه وإن كانت أنفع من السلطة الأولى كما يفسره جمهور السياسيين ومقلديهم... " (٣٣).

وهو وإن كان يرفض مقاطعة الحضارة الأوربية باسم الوطن أو الدين ، إلا أنه يحذر من تقليد الأوربيين في كل صغيرة وكبيرة " هذا ولا ينفعنا أيضاً تقليد كل أشياء الأجانب باسم التمدن ، فإنه لا عصمة لأمة من الخطأ ، ولا يستحق أحد أن يقلد تقليداً محضاً ، بل علينا أن نستعمل التفكير ، ونستهدي التجارب ، ونساعد في تأييد أنفع الروابط ، وإسقاط أضر الروابط للتكامل البشري . يومئذ تنقسم الأرض الطبيعية غير هذا الانقسام الصناعي ، ويصافح المشرقي المغربي ، والشمالى الجنوبي ، على أنهم أخوان متعاونون في العلوم ، متقاسمون للأعمال لا يحارب بعضهم بعضاً باسم القوميات ولا باسم الأديان ولا باسم الديار والأقاليم . وإنما تحارب قوتهم العامة من فسق منهم عن أمر العهد العام والنظام الشامل " (٣٤).

بهذا الفكر الشفاف يرى العلاقة بين أمم الأرض وشعوبها ، وكأننا به يبشر بالأحلام التي راودت مفكري العالم وساسته غداة الحرب الكونية العظمى ، حين دعوا إلى تأسيس العلاقات بين الدول على أسس من التعاون والعدل ، والوقوف عند الحدود ، وأسسوا لذلك الهيئات الدولية التي ترعى الأمن والسلام " ليكن

إنحاء عام ، وتعاون عام ، ونظام عام ، وسلم عام ، في ظل قوة
عامة . . . " (٣٥) . وحضارة إنسانية عامة تشارك كل الأمم في
بنائها . . .

إذا كان البعض قد فهم الحضارة والمدنية على أنها إنما تتمثل
في الكمال الروحي ، والجمال الأخلاقي والمعنوي ، وفهمها البعض
الآخر على أنها إنما تتمثل في الأبنية المشادة ، والآلات المبتكرة ،
فإن (الزهرراوي) فهمها على أنها شيء من هذا وشيء من هذا : "
المدنية جمال معقول (مبادئ وأفكار وقيم) مع جمال محسوس
(آلات وصنائع - تكنولوجيا) ، عدل وإحسان ، أدب وعرفان ،
صنائع وبدائع ، أموال وبضائع ، أفهام (علوم) وأوهام (فنون) ،
آمال وأعمال ، جمال وتحمل ، مجد وتمجد ، ميزة وتميز . . . المدنية
مواهب الإنسان تتجلى للعيان . . . " (٣٦) وإن كان (الزهرراوي)
يميل للثمرات المادية للحضارة (التي تتجلى للعيان) ولا يفوته أن
يعدد أهمها (الوابور والبالون والشمندفر والتلفون والتلغراف
والفوتوغراف والفوطوغراف والتلسكوب والمكرسكوب . . . "
هذه الإنجازات التي جعلت (العمي في عهدهم يقرؤون ، والصم
والبكم يكتبون . . . "

و (الزهرراوي) يجد أن هذه الإنجازات توجد في (أوربا) أما
بلاد العالم الأخرى فهي إما لم تعرف التمدن مطلقاً ، (مجاهل
أفريقيا . . . وفدافد أمريكا ومجاهل أستراليا . وفي جوار
القطبين . . . " (٣٧) وإما بلاد عرفت التمدن ثم لم يلبث هذا التمدن
أن إنهار وتراجع بسبب فساد وإفساد السياسيين ومن ذلك بلدان
العالم القديم : (البلدان الآسيوية ، وبلدان شمال أفريقيا . . . "
ولولا التمدن (المستعار من الأوربيين) لما بقي في البلدان الآسيوية
ما يفوق مالدى الأفريقيين إلا قليلاً . وهو يدرك أن كلامه لن
يعجب المتعنتين . . . فيقول : " إن يكن في آسيا تمدن غير

مستعار، فإنه ناقص جداً : الأديان من التمدن وقد ضعفنا بها علماً وعملاً . الحكومات من التمدن وقد خسرننا بها حساً ومعنى . الزراعات من التمدن ونحن لا نتقنها : والصناعات من التمدن ولاخيرة لنا بأنواعها الكثيرة : والتجارات من التمدن وإننا فيها متأخرون . الزينة من التمدن وإننا فيها مرضى الأذواق : العلوم من التمدن وهي عندنا كاسدة . الآداب من التمدن وهي لدينا فاسدة . القوانين من التمدن ونحن فيها جامدون . والأعمال العظيمة من التمدن ونحن فيها خامدون . الاختراعات من التمدن ولكننا فيها موتى . الاكتشافات من التمدن ولكن لا نسمعون لنا فيها صوتاً . فأعلموني يارفاقي الأسياويين ماهو تمدننا المحلي ؟ الذي نقصه ليس بفاحش ؟ وأنتم بعد ذلك غير محاسبين على النقص القليل .

ثم هلموا ننظر نظرة في مدينة أوربا ؟ وما أوربا ؟ أوربا الزاهرة ، ذات المدن الباهرة ، والصناع الفاخرة والماهرة ، ومقر العلوم العالية والأعمال الفائقة . . . هنا لكم الاختراعات النافعة والاكتشافات الهادية . . . منهم ظهرت الآلات المنبثة . . . أولئك السابقون في المدينة الرافعة " (٣٨) .

ورغم كل ذلك فإن (الزهراوي) لايفقد توازنه أمام شموخ الحضارة الغربية وإنجازاتها - المادية خاصة - ، ولايصاب بالانبهار الذي منعه من رؤية الصورة كاملة وغير منقوصة . لذلك يشير لنواقص الحضارة الغربية وسلبياتها ونقاط الضعف فيها ، تماماً كما أشار من قبل إلى نقاط القوة فيها : " هذه أوربا وهذا مجدها وأنا أريكموها من تلك الجهة الثانية جهة النواقص التي فيها : " الاستبداد الذي حاربوه ، وأهرقوا في سبيل محوه كثيراً من دمائهم ، لايزال له أثر كامن في صدور العلية منهم ومقلديهم من الدهماء ، ومن آثاره أنواع التعصبات الباقية . والجهل الذي حاربوه بأنفسهم

وأموالهم ، ولا يزال بين كثير من طبقاتهم ، ومن آثاره شيوع
الفحشاء والردائل المتنوعة : والفقر الذي يدأبون وراء إبعاده عن
ديارهم لا يزال آخذاً بتلابيب أكثر الأفراد ، وليس أولو الثروات
العظيمة الا نفراً قليلين في بعض المدن الكبيرة .

وإذا صرفنا نظراً عن الحياة النوعية (الإنجازات المادية) ، فبم
يمتاز الأوروبيون ؟ هل طالت أعمارهم ؟ هل صرفت عنهم الأسواء
من أسقام وآلام ؟ هل خفت عنهم أعباء الحياة التي تقتضي الكد
والكدح ؟ هل تقدسوا عن البغضاء فيما بينهم ؟ هل ترفعوا عن
سفاسف الأمور ؟ هل استغنوا عن الشرق البتة ؟ هل بلغوا بعلمهم
أن يمزقوا نواميس الوجود ؟ ٠٠٠٠ هل بلغوا بها أن يستغنوا عن
الحروب التي هي أليق بالعجماوات منها ببني الإنسان ؟ ٠٠٠٠ إذا
شئت أن أعد كل ماهر من النواقص يطول بي العد
والسرد ٠٠٠٠ (٣٩) .

هكذا تعامل (الزهراوي) مع ثوابت الفكر العربي ومنطلقاته
الأساسية ، وهكذا فهم العلاقة مع الأسلاف ومع المجاورين من
الأمم الأخرى ، ألا ما أحوجنا إلى مثل هذا الرجل الذي يساهم
جهد طاقته في تبديد حجب التخلف ، ويعمل ما يوسع لإخراج
الأمة من وهاد الواقع المرير وقد ربح قوم " كان للأفاضل منزلة
كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم إلا من استعان بجيش من
الحيل والخداع ، وحواش من النقائص المتغلبة على الطباع (٤٠)
والخلاصة أن (الزهراوي) فيما كتبه وعرضه وتبناه من أفكار
وآراء يمثل الفكر العربي والشرقي عموماً المتوازن ، والمتصالح مع
نفسه ومع تراث أمته ، والمنفتح على معطيات العصر ، ومنجزات
الشعوب والأمم الأخرى . فهو قد دخل القرن العشرين بفكر
منفتح على التجربة الأوربية ، ولكن دون أن يسمح لنفسه
بالاختلاع من جذور الفكر العربي الإسلامي ، أو الخروج على

ثوابته ومنطلقاته . لذلك فإننا نرى في أفكاره خصوصية ونكهة
الفكر العربي الإسلامي التقدمي ، الذي يأبى الانكماش والانغلاق
على الذات ويقوى على مقاومة إغراءات الخطاب الحضاري
المنافس ، ويكون مستعداً دائماً للدخول في حوار معه ، متخففاً أثناء
ذلك من العقد ومركبات النقص ، لأن عنده من الثقة ما يجعله
قادراً على التحرر من كل الضغوط . فهو لم يقف أمام الفكر
الأوربي والمنجزات الأوربية موقف المستلب الضعيف ، بل وقف
كما وقف من قبل رجال أمثال : ((الطهطاوي و الأفغاني و محمد
عبده)) و كما وقف معه رجال أمثال : ((الكواكبي و محمد رشيد
رضا و رفيع العظم)) و سواهم ، و ان كان ما يميزه عنهم جميعاً أنه
أعطى للمستقبل أكثر مما أعطى للماضي .



هوامش الفصل التاسع :

- ١ - عبد الحميد الزهراوي ، " المفكرون المتبعون " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٧٢ ، ٢٤ أغسطس ١٩١١ م .
- ٢ - عبد الحميد الزهراوي : " السنوسية والجامعة الإسلامية " ، مجلة المنار ، مجلد ١٠ ، ج ٨ ، ١٩٠٧ ، ص ٢٨٨ .
- ٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة - نحن والأجانب " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٧٤ ، ٧ أيلول ١٩١١ .
- ٤ - المصدر السابق .
- ٥ - عبد الحميد الزهراوي : الرسالة السرية ، مصدر سبق ذكره .
- ٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " رجال اليوم " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٤ ، ٢٩ حزيران ١٩١١ .
- ٧ - عبد الحميد الزهراوي ، " المؤتمر " جريدة الحضارة : السنة ٣ ، العدد ١١٦ ، ٣٠ مارس ١٩١٢ .
- ٨ - عبد الحميد الزهراوي ، " بعض أحوالنا الحاضرة - لا تيأس وإن كانت ذواعي اليأس كثيرة " جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٧ ، ٤ تموز ١٩١٢ .
- ٩ - عبد الحميد الزهراوي ، " أعباء العالم أو السياسة الحاضرة " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٩٣ ، ١٨ كانون الثاني ١٩١٢ .
- ١٠ - عبد الحميد الزهراوي ، " عهد جديد في الاتفاقات " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٩ ، ١٨ تموز ١٩١٢ .
- ١١ - عبد الحميد الزهراوي ، " تريتينا السياسية - ٦ - " جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٨ ، ١٨ مارس ١٩١١ .
- ١٢ - عبد الحميد الزهراوي ، " عهد جديد في الاتفاقات " جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٩ ، ١٨ تموز ١٩١٢ .

- ١٣ - عبد الحسيد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم - ٢ - " جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٨١ ، ٢٦ تشرين الأول ١٩١١ .
- ١٤ - عبد الحسيد الزهراوي ، " الأفراد واجتماعات " ، مجلة الانسانية ، مصدر
سبق ذكره .
- ١٥ - عبد الحسيد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة ١ ، العدد ١٤ ،
١٩١٠ .
- ١٦ - عبد الحسيد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، مصدر
سبق ذكره .
- ١٧ - عبد الحسيد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، (القاهرة ، المطبعة العمومية ،
١٩٠١ م) ، ص ٦١ .
- ١٨ - عبد الحسيد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره .
- ١٩ - عبد الحسيد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، ص ٥٥ .
- ٢٠ - عبد الحسيد الزهراوي ، " النظار - ٥ - " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ،
العدد ٧٠ ، ٨ أغسطس ١٩١١ م .
- ٢١ - عبد الحسيد الزهراوي ، " عديثية أم المؤمنين " ، (القاهرة ، مطبعة المنار ،
١٣٢٨ هـ) ، ص ٦ .
- ٢٢ - عبد الحسيد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره .
- ٢٣ - المصدر السابق .
- ٢٤ - عبد الحسيد الزهراوي ، " نصائح مهتمة " ، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ،
العدد ١٢٨ ، ١٩ أيلول ١٩١٢ .
- ٢٥ - عبد الحسيد الزهراوي ، " خواطر السياحة - ٥ - " ، جريدة الحضارة ،
السنة ٢ ، العدد ٧٩ ، تشرين أول ١٩١١ .
- ٢٦ - عبد الحسيد الزهراوي ، " حول الحرب أيضاً - فوائد هذه الحرب - " ،
جريدة الحضارة السنة ٣ ، العدد ١١٤ ، ١٣ حزيران ١٩١٢ م .
- ٢٧ - عبد الحسيد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره .
- ٢٨ - عبد الحسيد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية - ٦ - " ، مصدر سبق ذكره .

- ٢٩ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره .
- ٣٠ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره .
- ٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، " رجال اليوم " . جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٤ : ٢٩ حزيران ١٩١١ م .
- ٣٢ - عبد الحميد الزهراوي : " الفقه والتصوف : مصدر سبق ذكره ، ص ١٤ .
- ٣٣ - عبد الحميد الزهراوي : " نظام الحب والبغض " ، مصدر سابق ذكره .
- ٣٤ - عبد الحميد الزهراوي : " نظام الحب والبغض " ، مصدر سابق .
- ٣٥ - عبد الحميد الزهراوي : " نظام الحب والبغض " . مصدر سابق .
- ٣٦ - عبد الحميد الزهراوي : " نظام الحب والبغض " ، المصدر السابق .
- ٣٧ - عبد الحميد الزهراوي : " نظام الحب والبغض " ، المصدر السابق .
- ٣٨ - عبد الحميد الزهراوي : " نظام الحب والبغض " ، المصدر السابق .
- ٣٩ - عبد الحميد الزهراوي : " نظام الحب والبغض " ، المصدر السابق .
- ٤٠ - عبد الحميد الزهراوي : " خديجة أم المؤمنين ، ص ٥٩ .

الخاتمة :

لعلنا قد بينا فيما قدمناه ، كيف أن (الزهراوي) قد عاش أفكاره ، أو - بعبارة أخرى - قد فكر من خلال تجربته ومعاناته . وأيا كان الأمر ، فإن (الزهراوي) ، من أولئك الذين تلتصق أفكارهم بسلوكهم التصاقاً عضوياً ، وترتبط أفعالهم بأقوالهم إلى درجة التطابق .

ولعلنا قد وفقنا كذلك إلى تأكيد أن أفكار (الزهراوي) ، قد سارت بخط نمائي مطرد ، دون أن تعرف النكوص ، ودون أن تصاب بالتناقض أو التضارب . فهو لم يتراجع ، ولم يتلون ، وإن كان على استعداد أن يحاور ، ولأن يتلمس لخصمه الأعذار والمسوغات ، ولكن ليرد عليه بعد ذلك الرد الحاسم والجازم والمفحم ، بعد أن يكون جرده من كل حجة ويينة .

بعد الذي قدمناه من أفكار هذا الرجل ، وبعد الذي عرضنا من أقواله وأفعاله ، وبمقارنة ذلك بما صدر عن مفكري عصره ، نعتقد أنه - وبجدارة - واحد من أهم أساطين ماضى يعرف باسم (عصر النهضة) . وحين نرشحه لتبوؤ هذه المكانة - مع علمنا أن الكثير من دراسي هذه الحقبة سيتحفظون على ذلك . فلأنه قدم آراء وأفكاراً ومواقف تؤذيه لتلك المكانة .

بل إنه - وبغض النظر عن التصنيفات التي وضعها بعض الدارسين^(١) - يملك فكراً تقديمياً يعبر عن نفسه بقوة ، سواء من خلال رفضه المطلق لمقولات (السلفيين) حول إحياء الماضي المجيد ، وبعث العصر الذهبي للأمة . أو من خلال فهمه لما تركه الأجداد من تراث ، خاصة حين وضع هذا التراث في إطاره التاريخي . بمعنى أن ما أبدعه الأجداد من شرائع ومبادئ ومقرلات لا تلزمنا إلا بالقدر الذي نستطيع فيه أن تساعدنا على مواجهة معطيات زماننا وبيئتنا وفي رأيه أن للأسلاف ظروفهم وزمانهم ومشكلاتهم ، وقد أحسنوا في استنباط الأحكام والشرائع التي يواجهون بها ما عرضته عليهم يبيئتهم من مشكلات ، ولنا نحن ظروفنا وزماننا ومشكلاتنا ، ولنا بالتالي أن نستنبط من الأحكام والشرائع والقوانين مانواجه به المستجدات .

ف (الزهراوي) يرفض (الكثر على آثار الأسلاف) مهما كانت الذرائع التي يسارع البعض للترفع بها باسم الدين تارة ، وباسم الوطنية تارة أخرى ، وفي رأيه أيضاً أن التراث الذي ورثناه عن الأسلاف ليس مقدساً وليس مباركاً ، وأن صدوره عن الآباء والأجداد لا يمنحه مثل تلك البركة والقداسة ، لذلك فهو يضعه في السياق التاريخي ، بمعنى أنه قابل للتطور والنمو ، والقبول والرفض والمناقشة ، كل ذلك في إطار ما تفرزه الظروف المستجدة من معطيات .

وبالإضافة إلى تقديمية آرائه ، وقدرته المذهلة على الإفلات من قيود كبلت الكثير من معاصريه ، فإنه قد تفرّد عن أقرانه وسبقهم في كثير من المواقف ، فقد كان الوحيد في تلك المرحلة الذي قال بوحدة العرب في المشرق والمغرب ، وأنهم أمة واحدة . وكان الوحيد الذي استطاع أن يضع حدود الوطن العربي المتعارف عليها الآن ، كما كان السباق إلى إعطاء تعريف للإنسان العربي :

“ فالعرب اليوم هم أهل هذه الأوطان الجميلة المتوسطة في الأرض ، المتاخمة للأوقيانوس ، ولبحر الهند ، والبحر المتوسط ، وهم أهل هذه العقول الذكية ، التي توارثوها أكثر من سبعة آلاف سنة ، عن أسلاف عرفوا بإقامة الحضارات . . . ” (٢) .

ومن الواضح تماماً أن (الزهراوي) يحقق هنا أكثر من سبق وعلى أكثر من صعيد : فهو وكما سلف قد وضع حدود الوطن العربي بعد أن كان هذا المفهوم يضيق ويتسع عند هذا المفكر (أو الحزب) أو ذاك (*) وهو قد سبق إلى اعتبار أن كل من تكلم العربية عربي ، هذه المقولة التي ألح عليها بعد ذلك (ساطع الحصري) والتي تعتبر حجر الزاوية في البناء الفكري العربي عند (أبي خلدون) فيلسوف القومية العربية ومنظرها الأول ، كما أن (الزهراوي) كان من السابقين إلى القول (بأن الحضارات والدول التي قامت على امتداد رقعة الوطن العربي - التي حددها - هي حضارات عربية . أي أن العرب حضارة راسخة الجذور تمتد في أعماق التاريخ إلى أكثر من سبعة آلاف سنة .

وحتى لايسارع أحد إلى القول بأننا لايجوز أن نبني الكثير من الاستنتاجات على نص ، أو بالأحرى على فقرة قد تكون شاردة . ولايجوز أن نحملها بالتالي فوق مايمكن فإنا نود أن نوكد أن هذه الفقرة وما جاء فيها من آراء عن العرب ووطنهم ولغتهم . . . الخ

* كان مفهوم الوطن العربي يضيق عند البعض حتى لايكاد يتجاوز أجزاء من بلاد الشام ، في حين كان يشمل عند البعض بلاد الشام ، أو بلاد الشام والعراق ، أو بلاد الشام وأجزاء من شبه الجزيرة العربية وهي الحدود التي تصورهارجال الثورة العربية الكبرى ، أمّا مصر فلأن دخولها في نطاق الوطن العربي يين أحد ورد بناء على تطاحن المصالح الفرنسية والانكليزية ، أمّا أقطار العروبة في الشمال الإفريقي فلم يشر أحد باستثناء الزهراوي إلى رابطة العروبة التي يجمعها بأقطار المشرق ، وإن كان الجميع قد أشاروا إلى روابط أخرى خاصة (رابطة الدين) .

ليست شاردة وليست يتيمة إذ أن أفكار (الزهراوي)
العروية لا تخرج عن هذا الإطار . . .

ومما يميز (الزهراوي) من الكثير من معاصريه أنه استطاع أن
يجمع إلى الثقافة والعلوم العربية الإسلامية ، ثقافة عصرية متجددة ،
واطلاعاً على المنجزات الفكرية والتقنية (التكنولوجية) الجديدة ،
مضافاً إلى ذلك قراءاته لكتابات ومؤلفات (عصر الأنوار الأوربي)
لاسيما كتابات (مونتسكيو وجان جاك روسو) . والقارئ
لكتابات (الزهراوي) يلمح بسهولة بصمات قراءاته للفكر
الأوربي المعاصر وللمعطيات الفكرية لعصر الأنوار . نقول هذا وفي
ذهننا ما ذكره (د . منير موسى) حين قال " لم يكن (الزهراوي)
عميق التفكير كما أنه لم يملك ثقافة عصرية " (٣) . في رأينا أنه
بذلك قد ظلم (الزهراوي) مرتين كما ظلمه مرات كثيرة في
أماكن أخرى من كتابه .

فهو قد ظلمه حين اعتبر أفكاره سطحية ولعل السؤال الذي
يطرح نفسه هنا هو على الشكل التالي : فكر (الزهراوي)
سطحي وغير عميق بالنسبة إلى ماذا ؟ وإلى من ؟ ومن من معاصريه
كان يحمل أفكاراً أعمق ؟ وما الأفكار التي عرضها الزهراوي
(مسطحة) على حين عرضها سواه عميقة مكثفة ؟ كلها تساؤلات
كنا نود لو أن (د . منير موسى) كلف نفسه عناء الرد عليها قبل
أن يطلق أحكامه المعيارية هكذا . . أم إنه إطلاق القول على
عواهنه ؟ وفي رأينا أن ما أوقع (د . منير موسى) في هذه الورطة
أنه اعتمد في تقويمه لفكر (الزهراوي) على كتاب الإرث الفكري
والاجتماعي . . . " وهو عبارة عن مجموعة مقالات افتتاحية كتبها
(الزهراوي) لجريدته (الحضارة) وكان المفروض أن يتبسه السيد
الباحث إلى أن هذه المقالات موجهة للقارئ العام ، ومن الطبيعي
والحالة هذه أن يعرض (الزهراوي) آراءه بأسلوب واضح بسيط

لابس فيه ولاغموض ، والمتمكنون وحدهم هم الذين يستطيعون عرض أفكارهم بهذا الأسلوب السهل . أما حين كان (الزهرراوي) يكتب لقارئ مختلف فكانت كتاباته أكثر عمقا وغوصا مما دفع الكثير من المطلعين على ماكتبه لترشيحه للدخول في زمرة المفكرين الفلاسفة .

وظلمه (د . منير موسى) حين اتهمه بعدم الاطلاع على الثقافة العصرية ، مع أن بصمات الفكر المعاصر تظهر بقوة على أفكاره لاسيما آرائه السياسية والاجتماعية .

وظلمه أكثر حين زعم أن آراءه مبنية على أسس دينية إسلامية ، وأنه في دعوته (العثمانية) إنما انطلق من بواث دينية^(٤) وليس ما يدعي إلى العجب والدهشة أكثر من هذا الاتهام ، يوجه إلى إنسان رفض أن تكون رابطة الدين أساسا لقيام الدول ، وبين أن هذه الرابطة أضعف من أن تمنع قيام الخلافات والحروب بين شعوب تعتنق ديناً واحداً ، وأن هذه الرابطة وإن كانت أرقى من العصبية والعشائرية ، إلا أنها لا ترقى إلى درجة (رابطة المدنية) . ويزداد عجبنا ودهشتنا حين يتهم إنسان وقف من فكرة (الجامعة الإسلامية) التي دعا إليها كثير من المفكرين ذلك الموقف المعارض أشد المعارضة . ونعجب أكثر حين يكون الاتهام موجهاً إلى إنسان رفض أن يصنف الحروب التي تشنها أوروبا على الشرق في خانة الحروب الدينية ووضعتها في إطارها الصحيح ، وأرجعها إلى أسبابها الحقيقية ، واعتبرها حروباً اقتصادية استعمارية ناجمة عما ورثه الأوربيون عن الرومان من أطماع لاعما ورثوه من تعاليم الدين المسيحي .

لذلك فقد تهكم على أولئك الذين يسارعون إلى تحريك (سلاسل الدين) ليصادروا بها الآراء . ويكاد يغلب الظن على المرء بأن (د . منير موسى) قد قال مقالته حين رأى صورة

(الزهراوي) على غلاف كتاب (الإرث الفكري ١٠٠٠) فلم يقصر ذهنه على تصور خروج فكر تقدمي من تحت العمامة الكبيرة التي تغطي رأس (الزهراوي) ثم إن (د . منير موسى) قد ظلمه حين تحدث عن انخداعه بالانكليز وتغافله عن مخططاتهم . ومع اعتقادنا الراسخ بأن الإنكليز قد خدعوا رجالات العرب إلى هذه الدرجة أو تلك ، ولكن وكما سبق أن ذكرنا كيف أنهم - خاصة السوريين منهم - قد حاولوا الاعتماد على الإنكليز كسياسة (تكتيكية) بقصد الوقوف في وجه المخططات الفرنسية التي كانت تستهدف السيطرة الكاملة على سورية وهي سياسة لعبتها - وما تزال - الكثير من حركات التحرر الوطني - مع وعينا الكامل لمخاطر اتخاذ الضرغام بازا للصيد - . ولكن الذي دفعنا للقول بأن (د . منير موسى) قد ظلم (الزهراوي) فلأن الباحث لم يتورع عن استخدام معايير مختلفة لقياس الأمر الواحد - حسب المصلحة والهوى - ففي حين اتهم (الزهراوي) بالغفلة والسذاجة والانخداع بالمشاريع الإنكليزية ، فانه اعتبر دغوة (نجيب عازوري) للاعتماد على الفرنسيين أمراً طبيعياً ومبرراً ، لأنه لا بد للثورة من البحث عن قوة دولية خارجية تعتمد عليها وتدعمها^(٥) وهي عنده (فرنسا وبريطانيا) .

وإذا كنا في معرض الإشارة إلى الشبهات التي اثيرت حول (الزهراوي) فلا بد هنا أن نشير إلى ما كان (د . وجيه كوثراني) يحرص على تأكيده كلما تطرق إلى ذكر (الزهراوي) فهو لا ينفك يتهم (الزهراوي) بأنه وقف مستلباً أمام المظاهر البراقة للحضارة الأوروبية عامة والفرنسية خاصة ، مما جعله يغفل أو يتغافل عن المخططات الفرنسية تجاه الوطن العربي لاسيما سورية . و (د . وجيه كوثراني) حين افتقد الدليل على ارتباط (الزهراوي) مباشرة بالمشروع الاستعماري الفرنسي ، لجأ إلى فكرة تحمل في

طياتها اتهاماً وغمزاً ، وذلك حين قال بأن الدبلوماسية الفرنسية قد راهنت على (الزهراوي) ^(٦) وورطته كما ورطت (مسلمي بيروت) حين دفعتهم دفعا لمواجهة السلطة العثمانية وتخديدها بعرض مطالب لا يمكن أن توافق عليها . فيكون الطلاق التام بينهم وبين السلطنة العثمانية ، ولا يكون أمامهم بعد ذلك إلا الالتحاق بالمشروع الفرنسي ، نسجا على منوال من سبقهم وجيرانهم . وكنا نقبل مقولة (د . وجيه كوثراني) لولا أننا وجدنا (الزهراوي) واعيا تماماً بلعبة الدبلوماسية الفرنسية وعملائها ، عارفاً لرجال مخابراتها ، الذين استخدموا - كحصان طروادة - لاختراق صفوف الحركة العربية ، ولجرها لتصب في طاحونة المشروع الفرنسي . وقد سبق وأن ذكرنا فقرات مطولة من الرسالة السرية التي بعث بها (الزهراوي) إلى صديقه (محمد رشيد رضا) أحد أقطاب (حزب اللامركزية) مبيناً له فيها أن (مؤتمر باريس) كان ملفقاً وصورياً وكيف أن (الزهراوي) قد بذل الوسع في سبيل إخراجه (مرونقاً) - على حد تعبيره - حتى لا يصبح العرب أضحوكة أمام الأوربيين والاتحاديين على حد سواء . وقد بين في هذه الرسالة الهامة جداً ، كيف أن (خليل زينية) و (أيوب ثابت) لم يرشفا من الجامعة (الأمة) العربية ولا حتى الجامعة السورية ولاقطرة وأن همهما بيروت وحدهما لاشريك لها

أي أن (الزهراوي) كان عليماً بما يجري متيقظاً للمخططات الفرنسية من قبل أن ينشر (د . وجيه كوثراني) كتابه المتضمن وثائق الخارجية الفرنسية بما يزيد عن نصف قرن . بل إن اطلاع (الزهراوي) على النيات الفرنسية كان من جملة أسباب قبوله لمنصب (الأعيان) الذي سبب له بعد ذلك الكثير من العنت وسوء الفهم .

وبرأينا أنه كان الأجدار بالدكتور (وجيه كوثراني) أن

يعود إلى مجموع كتابات (الزهراوي) ، وليس إلى وثيقة وحيدة .
نعني بها خطاب (الزهراوي) في مؤتمر باريس وتصريحه للصحفيين
الفرنسيين ، مع تأكيدنا مرة أخرى أنها لا تحمل في طياتها أي
نكوص أو ارتداد .

وإذا كان (د . فهمي جدعان) قد رشح (الزهراوي)
ليكون بطل دور الحرية بلا منازع ، ويعني بدور الحرية الفترة التي
تلت الإنقلاب العثماني وإعلان الدستور وحتى إعدام الشهداء
العرب على يد العنصريين الأتراك . معللاً ترشيحه هذا
باستشهادات ومقارنات كثيرة ، فإننا نرى أن (الزهراوي) بعد
إعلان الدستور هو نفسه قبل إعلان الدستور ، لهجة صادقة حاسمة ،
وريحاً تجديزية عاصفة تحاول أن تكتسح كل القيود التي تكبل العقل
والفكر والإنسان والوطن . فمن ذا الذي يقرأ كتابه (رسائل في
الفقه والتصوف) ولا يلمح من خلاله شخصية مناضلة فذة ، جريئة
على قول الحق في وقت كان قول الحق يكلف المرء حياته ورأسه ،
وقادرة على المواجهة والمجاهدة ، في وقت صمت فيه الكثيرون خشية
ورهة . ثم من ذا الذي يقرأ كتابه الآخر (نظام الحب والبغض)
الذي نشره متفرقاً في المنار ولم تتح بعد فرصة نشره مستقلاً /
ولا يلمح فيه مفكراً مكتمل الأدوات ؟ متمكناً من الموضوع الذي
يتصدى للبحث فيه ؟ مع كونه موضوعاً مبتكراً إلى حد كبير في
لغتنا العربية آنذاك . ولعل ماجاء في هذا الكتاب بالذات قد دفع
الإمام (محمد رشيد رضا) إلى اعتبار (الزهراوي) من الحكماء
الربانيين والفلاسفة الاجتماعيين وإن قضت عليه الأيام بالانتظام في
سلك السياسيين " (٧) كما دفع بعد ذلك (د . فهمي جدعان)
إلى التصريح بأن (الزهراوي) لو فكر لحسابه الخاص لكان بما
امتلكه من استعدادات وقدرات وأدوات فيلسوفاً (٨) وفي قولهما
الكثير من الواقع . فلولا انغماس (الزهراوي) في لجة العمل

السياسي (حتى أذنيه) ، لو حدثت أفكاره تعبيراً عنها في المجال
الفلسفي والاجتماعي الذي كان يحبه ويؤثره ويعود إليه حتى في
كتابات الصحفية . فقد كان يحمل بين جنبيه نفساً شفافة وعقلاً
نيراً وفكراً طموحاً وبجده حتى في أشعاره - وهي محدودة -
يشرب إلى آفاق شائخة من التأمل الفلسفي العميق:

لا تكذبنا يا بصر لا تخدعينا يا فكر
إن الحقائق تحت طي النشر فوق المتظـ
لكن برؤيتها دعاوي الناس تعيي من حصـ
وسوى سراب لم يروا والآل كم غرّ النظر
أنى التصور يا حجي للسر في هذي الصور
الكون مبني على الحركات كل في قدر

وهي قصيدة رائعة ترقى إلى أن تكون واحدة من غرر قصائد
التأمل في الشعر العربي ، وهي طويلة اقتطفنا منها أبياتاً من أولها .
ولأن (الزهراوي) كما قال (د . فهمي جدعان) رفض أن
يفكر لحسابه الخاص من جهة ، ولأنه اغتيل قبل الأوان من جهة
ثانية ، لم يصل فكره الفلسفي إلى المدى المتوقع له مع أن ما أدركه
ليس باليسير .

وبعبارات أخرى إن (الزهراوي) إذ رفض أن يفكر لحسابه
الخاص ، فإنه قد اندفع في غمار العمل السياسي والوطني ، وعاش
هموم شعبه ، جاعلاً من نفسه الناطق باسمه ، المعبر عن طموحاته .

وإذا كنا نعتقد بأن (الزهراوي) واحد من أهم أساطين
النهضة - كما ذكرنا - فإننا نطمح إلى إعادته إلى المكانة التي
يستحقها ، بعد أن طال إقصاؤه - ظلماً - عنها . ونود أن تأخذ

أقواله وآراءه طريقها إلى دائرة الضوء بعد أن طال التعتيم عليها .
خاصة وأن من يعتد برأيهم من معاصريه قد عرفوا له هذه المكانة .
فهذا (محمد رشيد رضا) يقول عنه : " نايغة من نوابغ السوريين
لا يكاد يلز به في مجموعة مزايه قرين ما عرفت بلاده كنهه ولا قدرته
قدره على أنها لم تقصر في تعظيمه وتكريمه . . . أحد أشرف
النبل المنصرفين لخدمة الأمة بكفاءة واستعداد من معرفة المصلحة
وفصاحة اللسان وقوة الحجة وجرأة الجنان . . . تلك الفضائل التي
عرفها له كل من عرفه من العقلاء المنصفين وهي : استقلال الرأي ،
وصدق القول ، وقوة الإرادة ، والإخلاص في العمل ، وإيثار الحق
على الهوى ، وتوجيه الهم والهمة إلى المصالح العامة ، وترجيحها عند
التعارض على المنافع الخاصة " (٩) . وهذا الإمام (محمد عبده)
يتوسم فيه الخير ، ويطلب منه البقاء في سورية ليبشر بفكرة
الإصلاح وعندما حدثت الفتنة المشهورة بسبب صدور كتاب
(الزهراوي) عن (الفقه والتصوف) انتصر الإمام (محمد عبده)
له ، وأيد مذهب إليه ، وتهكم على الحشوية من سكنة الأثواب
العباب وبجملته العمائم مع أن مذكروه (الزهراوي) هو الحق المبين
الذي لا ينكره الأكل ولا الشارب .

ولولا المكانة العلمية والاجتماعية والسياسية التي كان يتبوؤها
(الزهراوي) ، لما رشحه (حزب اللامركزية) ليكون المتكلم
باسمه ، والمعبّر عن رأيه ، في مؤتمر باريس العربي ، الذي كان بمثابة
تجمع أو جبهة للأحزاب والجمعيات العربية في ذلك الوقت .
ولكن ومع هذا فإن المرء ليعجب كيف أن شخصية مرموقة ،
على هذه الدرجة من الفاعلية والكفاءة ، تبقى مبعدة عن دائرة
الضوء التي ربما اتسعت لتشمل شخصيات أقل فاعلية وكفاءة وحين
يحاول أن يبحث عن سبب مقنع لذلك يكاد لا يجد من سبب سوى
أن أفكار (الزهراوي) المعارضة دائماً - عن حجة وبينه -

لاتصلح لأصحاب السلطة أيا كانوا ، لأن فيها قبساً من جذوة المقاومة ، وإنهاضاً لقوى الرفض ، وتشجيعاً للمستضعفين ، وغرساً للأمل في نفوسهم حين يؤكد أن العقابة لهم ، وتحذيراً للظالمين من الطواغيت والمستبدين بأن الدائرة ستدور عليهم لاحالة ، مهما بلغ من جبروتهم ، طالما أنهم لا يقيمون ميزان العدل .

وإذا كان ماذكرناه إلى الآن يبرر سبب إقصائه عن دائرة الضوء الرسمية - إن صح التعبير - فثمة تساؤل شرعي يطرح نفسه هنا هو : ماسبب العنت الذي يعانيه (الزهراوي) من كثير من الباحثين ؟ وبرأينا أن أهم أسباب هذا العنت يعود إلى اعتماد هؤلاء الباحثين على آراء بعضهم ، مسترئجين من أعباء البحث والتمحيص . ولأنهم لم يعرفوا من آثار هذا الرجل الا المقالات التي نشرها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في كتاب (الإرث الفكري والاجتماعي) . . . " كما هي حالة (د . منير مشابك موسى) أو بالإضافة لهذا الكتاب " وثائق المؤتمر العربي في باريس) التي نشرها حزب اللامركزية كما هي حالة (د . وجيه كوثراني) .

ويمكننا بالاعتماد على ماذكرناه في ثنايا البحث أن نحدد ملامح فكر (الزهراوي) على الشكل التالي :

- إيمان عميق بالإنسان من حيث هو إنسان ، بغض النظر عن أية صفات أو نعوت أخرى (جنس - دين - حالة مادية . . .

- العمل على نقل الإنسان في وطنه من خانة الرعية إلى خانة المواطنة ، بكل ما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات ومسؤوليات .

- إيمان مطلق بالعدل ، وعلى كل الصعد : (العدل الطبيعي - العدل الاجتماعي - العدل السياسي " .

- إيمان مطلق بالحرية ، لاسيما حرية التفكير والاعتقاد ، والحرية عنده ذات أبعاد إنسانية ، بمعنى أنها من أهم مقومات الإنسان وسبب أساسي لكونه مسؤولاً - أي مكلفاً - .
- إيمان مطلق بقدرة العقل الإنساني ، وبضرورة فسح المجال له ليعمل ، وعدم وضع أية مناطق محرمة أمامه .
- دعوة وثيقة للاجتهاد ، ورفض مطلق للتقوقع ضمن قوالب القدماء ومذاهبهم واجتهاداتهم الجاهزة .
- رفض للتعصب ، ورفض للعنصرية ، واعتبار الإنسان أخاً للإنسان (كيفما كان اللون واللسان) .
- فهم علمي وعقلي للتراث ، والتعامل معه على أساس أنه بشري ، حدث في سياق تاريخي معين ، وكان استجابة لمعطيات محددة .
- انفتاح على الحضارات المغايرة والتعامل معها بعيداً عن الاستلاب ، وعن الرفض المطلق .
- فهم علمي وعقلي للتاريخ العربي ، كانت نتائجه تعريف بالعرب وحضاراتهم ومواطنهم
- موقف مستنير من المرأة وحقوقها ودورها
- التثبت بمكارم الأخلاق ، واعتبارها مقدمة على كل الصفات الأخرى فلا قيمة لعلم أو عمل مالم يكن منطلقاً من أسس أخلاقية متينة .
- تغليب مصلحة الأمة على مصلحة الفرد وتغليب المصالح العامة على المصالح الخاصة .
- التمتع بفكر منفتح شفاف ، متمكن من فهم الأحداث وقادر على التنبؤ بعجزياتها .
- كفاح مستمر لا يعرف التعب أو الخوف في سبيل إحقاق الحقوق العربية .

وقد أخذ هذا الكفاح شكل العمل السياسي النضالي ، حيث صار هذا العمل سمة عضوية لهذه الشخصية الفذة . فقد كان مسكوناً بالسياسة لدرجة استنفدت الكثير من طاقاته واستعداداته ، التي ربما كانت ستوهله لإنجازات فكرية كبيرة كما لاحظ ذلك (د . فهمي جدعان) . إلا إننا مع ذلك لانستطيع أن نلوم (الزهراوي) . إذ كيف يستطيع أن يتعد عن السياسة رجل يشعر في كل لحظة أن حبل المشنقة على بعد (سنتيمترات) قليلة من رقبتة ؟ وكيف يمكن أن ينأى عن العمل السياسي رجل يرى شعبه ووطنه ميداناً لممارسة كل أنواع القهر والتسلط والظلم ؟ .

ولكن لا بد من التذكير بأن (الزهراوي) سياسي عقائدي صاحب رسالة ، وينطلق في عمله من منطلقات ومبادئ ثابتة ومقدسة . فالسياسي عنده (بحث عن كل روابط الاجتماع) مقاوم ومناضل لا يستكثر منه أن يحمل روحه على كفه ويبدلها رخيصة في سبيل القضاء على القهر والاستعباد (عسانا نعيش لانظلم ولا نظلم) .

فالسياسة عنده التزام نضالي ، وليست خداعاً ومكرراً ، وتلاعباً بالألفاظ ، وركوباً للموجة وانتهازاً للفرص وللأحداث . لذلك لم يكن من أولئك الذين يبدلون أفكارهم وآرائهم حسب المواسم . فهو رغم انخراطه في العمل السياسي - حتى العظم كما يقولون - إلا أنه لم يكن سياسياً محترفاً وفق المفهوم السائد آنذاك للسياسي . بل كان مناضلاً سياسياً ، الأمر الذي قاده وكان لا بد من أن يقوده إلى حتفه .

وإذا كان من تعليق هنا على فاعلية (الزهراوي) السياسية ، فهو أن (الزهراوي) بمبدئيته والتزامه الصارم بأفكاره ، لم يكن يصلح للسلطة ، ولم تكن السلطة تصلح له ، إنما كان يصلح لأن

يكون ضمير الوطن ، وعين الأمة ، واللسان المعبر عن المصلحة العامة ، المدافع عن المبادئ . ومثل هذا الرجل لا يمكن إلا أن يكون في المعارضة دائماً وهذا ما حدث . فقد كان من أنصار جمعية (الاتحاد والترقي) عندما كانت في المعارضة ترفع شعارات الحرية والعدالة والمساواة ، وشاركها نضالها ضد طغيان السلطان (عبد الحميد) ، ولكن ما إن تسنمت السلطة ، وبدأت تتخلى عن المبادئ التي ناضلت في سبيلها ، تحت ضغط منطق السلطة من جهة ، وتنفيذاً للمآرب العنصرية التركية من جهة ثانية ، حتى ناصبها العداء بلهجة حاسمة عنيدة جريئة . ولولا المكانة العلمية والاجتماعية والأدبية (للزهراري) لكانت (الجمعية) بطشت به منذ وقت مبكر .

وبرأينا أن التزام (الزهراري) بالمبادئ وعدم استعداده للمتاجرة بها ، جعل سقفه السياسي غير قابل لتجاوز ما وصل إليه . فالسياسي الملتزم يجد نفسه حين تتاح له فرصة الانتقاد ، ووضع اليد على الأخطاء ، وتحليل الأحداث واستنهاض الهمم . لذلك فقد كان منصب (المبعوثان) ومنصب الأعيان بعد ذلك بالإضافة إلى المقالات الصحفية التي كان ينتظرها المؤيدون والمعارضون ، غاية الأفق السياسي الذي يصلح له ولا يعتقد أنه كان يصلح لمنصب سياسي تنفيذي ، يكون فيه صاحب قرار ، لأن العمل السياسي من موقع السلطة يدفع المرء للتخلي عن الكثير من القناعات والمبادئ في سبيل التكيف مع منطق الأحداث وفق حسابات مختلفة وما كان الزهراري - بقناعتنا - مستعداً لمثل هذا التخلي .

وإن كان من مأخذ يؤخذ على (الزهراري) في عمله السياسي ، فهو وثوقيته ، وسلامة طويته ، وهذا برأينا راجع إلى كونه صاحب رسالة ، وإلى كونه مؤمناً بأنه في النهاية لا يصح إلا

الصحيح . وإيمانه بأنه يسير على النهج السليم ، كان يعتبر أن مناورات الاتحاديين إنما هي رجوع إلى الحق ، ومن هنا كان تورطه في قبول منصب الأعيان . لأنه ظن أن الاتحاديين قد فطنوا إلى المخططات الأوربية عامة والفرنسية خاصة ، وإن الوقوف بوجهها لا يتم إلا عن طريق تقوية الروابط مع العرب ، والاستجابة لمطالبهم لأن فيها قوة للدولة . ولكن كان هو في واد والاتحاديون في واد آخر تماماً . لذلك اعتبر غدرهم بالأحرار خيانة للدولة ، وكانت آخر كلماته تحمل اللعنة لهم على خيانتهم

ومما يلفت الانتباه في آراء (الزهراوي) وكتاباتاته أنها تحمل دائماً لمحة ثورية حادة وصدامية ، (إلا أن هذه الحدة نفسها ، هي التي كان ينبغي أن يتسلح بها رجل بقوده مصيره نحو العمل والفعل "

وبعد

« فقد كان (الزهراوي) بطلاً من أبطال الأمة ، ومناضلاً ملتزماً من خيرة مناضليها . تجسدت في أقواله وأفعاله وحياته ، آمال الأمة وتطلعاتها فقد كان حياة متحفزة متوثبة وطاقة واعية متدفقة وطموحاً لا يعرف الحدود ولا الكلل وأملأ يداعب النفس والعقل ويتحرق لإدراك الطلبة الكبرى " (١٠) وما الطلبة الكبرى إلا بناء الوطن العزيز القادر والقوي والمتقدم ، وبناء المواطن الواعي المتسلح بالعلم والمعرفة والذي يبادر إلى تحمل مسؤولياته وينخرط في العمل الوطني وفي مقاومة الظلم والقهر . وإذا كان (الزهراوي) قد سقط شهيداً ، إلا أن استشهاده كان الخيار الوحيد الذي لا يملك سواه مناضل متشبث بأهداف أمته وبآمالها . وإذا كان لا بد من تقديم بعض الوفاء لهذا الرائد ولزملائه الذين قضوا معه على مذبح الكرامة فإننا نعتقد أن خير الوفاء هو في حمل الراية التي ضحوا في سبيلها . ومتابعة الرسالة التي قدموا أرواحهم قرايين لها .

و (الزهراوي) بتقديمه روحه على مذبح كرامة الوطن
والمواطن ، يكون قد مهر ماكان يطالب به ويدعوه له ويعمل من
أجله بخاتم صدق . ألا ما أخرجنا إلى الكتاب الأحرار ، المناضلين
الصادقين ، الذين يقدمون الرأي ويقدمون إلى جانبه الروح
والنفس .

وإذا كنا قد حاولنا أن نرد في هذا البحث بعض ماينبغي لهذا
الرائد الشهيد فأننا نعترف بأن في حياته المزيد من الكنوز ، أو لم نقل
من قبل أن (الزهراوي) قمة شائخة لم تستكشف بعد ٢٢٠

هوامش الخاتمة :

- ١ - انظر : د. منير موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث ، سوريا من القرن الثامن عشر حتى عام ١٩١٨ ، (بيروت ، دار الحقيقة ١٩٧٣ .
- ٢ - عبد الحسيد الزهراوي ، "من هم العرب - تاريخ آداب اللغة العربية " جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٠ ، ١ حزيران ١٩١١ .
- ٣ - د. منير موسى ، المصدر السابق ص ٢٣٠ .
- ٤ - انظر د. منير موسى ، المصدر السابق ، لاسيما الباب السادس -
- ٥ - انظر د. منير موسى ، المصدر السابق ، لاسيما ص ١٩٦ .
- ٦ - انظر : د. وجيه كرتواني ، بلاد الشام السياسة والاقتصاد .. وكذلك وثائق المؤتمر العربي الأول .
- ٧ - محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، ج ٣ ، م ١٩ ، ص ١٦٩ .
- ٨ - انظر د. فيسي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الاسلام .. مصدر سابق .
- ٩ - محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، ج ٣ ، م ١٩ ، ص ١٦٩ وما بعدها .
- ١٠ - د. فيسي جدعان ، مصدر سابق ..

المصادر والمراجع :

- أبورية ، محمود . جمال الدين الافغاني " ١٨٣١ - ١٨٩٨ .
القاهرة : ١٩٦١ .
- أحد الآباء اليسوعيين . معرض الخطوط العربية . بيروت : مطبعة
الآباء اليسوعيين ، ١٩١٢ م .
- اسحق ، أديب . الكتابات السياسية والاجتماعية .
جمعها وقدم لها ناجي علوش . بيروت : دار الطليعة ١٩٧٨ م
- أرسلان ، شكيب . لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم .
المنار ، ٣١ " ١٣٤٩ هـ " . ص ٣٥٥ - ٣٧٠ ، ٤٤٩ - ٤٦٤ ،
٥٢٩ - ٥٥٣
- أرسلان ، شكيب . النهضة العربية في العصر الحاضر .
القاهرة : مطبعة دار النشر ، دون تاريخ
- أرسلان ، شكيب ، سيرة ذاتية . بيروت : دار الطليعة، ١٩٦٩ م .
- آغا العبد ، حسن . تاريخ حسن آغا العبد قطعة منه " حوادث
١١٨٦ إلى سنة ١٢٤١ هـ .
- حققه يوسف جميل نعيسة . دمشق : وزارة الثقافة والإشارد القومي
١٩٧٩ .
- الأفغاني ، جمال الدين . وعبد ، محمد . العروة الوثقى .
بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٠ م .

- أمين، أحمد . زعماء الإصلاح في العصر الحديث . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

- أمين، جلال أحمد . المشرق العربي والغرب " بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الإقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربي " . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٠ م .

- أنيس ، محمد . الدولة العثمانية والشرق العربي " ١٥١٤ - ١٩١٤ " . القاهرة .

- بستاني ، أميل . زحف العروبة . ترجمة عبد اللطيف شرارة : بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٦١ .

- برج ، محمد عبد الرحمن . ساطع الحصري . القاهرة : الهيئة العامة للتأليف والنشر " دار الكاتب العربي " ١٩٦٣ .

- برو ، توفيق . العرب والتürk في العهد الدستوري العثماني " ١٩٠٨ - ١٩١٤ " . القاهرة :

جامعة الدول العربية " معهد الدراسات العربية العالية " ١٩٦٠ م .

- البديري الحلاق ، الشيخ أحمد . حوادث دمشق اليومية " ١١٥٤ -

١١٧٥ هـ " ١٧٤١ - ١٧٦٢ م " . نقحها الشيخ محمد

سعيد القاسمي . حققها ونشرها أحمد عزت عبد الكريم .

القاهرة : الناشر غير مذكور ، ١٩٦٩ م ،

- البراز ، عبد الرحمن . هذه قوميتنا . القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٤ م .

- البكري ، محمد توفيق : المستقبل للإسلام . القاهرة المطبعة

انعموية - سون تاريخ . - التونسي ، خير الدين .

- أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك . تونس : مطبعة الدولة ، ط ١ ، ١٢٨٤ هـ .
- جب ، هاملتون . وبروان ، هارولد . المجتمع الإسلامي والغرب . ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١ .
- جدعان ، فهمي . أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث . بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩ .
- جعيط ، هشام . أوروبا والإسلام . ترجمة طلال عزيصي . بيروت : دار الحقيقة ، ١٩٨٠ م .
- الجندي ، أنور . عبد العزيز جاويز من رواد التربية والصحافة والاجتماع . القاهرة : الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٥ .
- حاج بكري ، علي . وفارس ، نبيه أمين . العقلية العربية بين الحربين " ١٩١٨ - ١٩٣٩ " . دمشق : دار الرواد ، دون تاريخ .
- حاج محمود ، محمد أبو القاسم ، العالمية الإسلامية الثانية ، دار المسيرة ، دون تاريخ .
- حجار ، جوزف . أوروبا ومصير الشرق العربي " حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية " بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٦ .
- حسنين ، أحمد طاهر . دور الشاميين المهاجرين إلى مصر في النهضة الأدبية الحديثة . دمشق : دار الوثبة ، ١٩٨٣ .

- حوراني ، البرت . الفكر العربي في عصر النهضة " ١٧٩٨ - ١٩٣٩ " . ترجمة كريم عزقول . بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨ م .
- الحديدي ، علي . عبد الله النديم خطيب الوطنية . القاهرة : مكتبة مصر ، دون تاريخ .
- الحصري ، ساطع . آراء وأحاديث في القومية العربية . القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٥١ .
- الحصري ، ساطع وآخرون . آراء ودراسات في الفكر القومي . الكويت : كتاب العربي ١٩٨٥ م .
- الحمود ، نوفان رجا . العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨١ .
- الحكيم ، يوسف . المذكرات . بيروت ، دار النهار .
- الحكيم ، يوسف . بيروت ولبنان في عهد آل عثمان - بيروت : دار النهار ١٩٦٤ .
- خالدي ، مصطفى . وفروخ ، عمر . التبشير والاستعمار في البلاد العربية " عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي " . صيدا بيروت : المكتبة العصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٤ م .
- خاكي ، أحمد . فلسفة القومية . القاهرة : دار المعارف ، دون تاريخ .
- خوري ، رثيف . الفكر العربي الحديث "أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي" . بيروت : دار

المكشوف، ١٩٤٣.

- الخازن ، فريد وفليب . المحررات السياسية والمفاوضات الدولية
عن سوريا ولبنان " المجلد الأول " ، جونية ، ١٩١٠ م .

- دايه ، جان ، صحافة الكواكي . بيروت : مؤسسة فكر للأبحاث
والنشر ، ١٩٨٤ م .

- الدبس ، يوسف . مختصر تاريخ سورية . بيروت : الناشر غير
معروف ، ١٩٠٧ م .

- الدوري ، عبد العزيز . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي .
بيروت : دار الطليعة ١٩٦٩ م .

- رافق ، عبد الكريم . بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة
نابليون بونابرت " ١٥١٦ - ١٧٩٨ " . دمشق ١٩٦٧ م .

- رضا ، محمد رشيد . مختارات سياسية من مجلة المنار . جمعها
وقدم لها وجيه كوثراني . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٠ .

- رزق سلوم ، رفيق . حياة البلاد في علم الاقتصاد . حمص :
مطبعة قسطنطين يني ، ١٩١٢ م .

- زادة ، طاشكيري . الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية .
بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥ م .

- زريق ، فريدريك ، نهضة العرب " التحرر فالاستقلال فالدولة " .
دمشق : مطبعة ابن زيدون ، ١٩٤٩ م .

- زريق ، قسطنطين . نحن والمستقبل ، بيروت : دار العلم
للملايين ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م .

- زكار ، سهيل . بلاد الشام في القرن التاسع عشر " روايات

- تاريخية معاصرة لحوادث عام ١٨٦٠ م ومقدماتها في سوريا ولبنان " . دمشق : دار حسان ، ١٩٨٥ .
- زين ، زين نور الدين . نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية . بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨ م .
- الزركلي ، خير الدين ، الأعلام . دمشق : ١٩٥٩ م .
- الزهراوي ، عبد الحميد . الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي . جمعة وحققه وقدم له جوده الركابي وجميل سلطان . دمشق : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ .
- الزهراوي ، عبد الحميد . الفقه والتصوف . القاهرة : المطبعة العمومية ، ١٩٠١ م .
- الزهراوي ، عبد الحميد . خديجة أم المؤمنين . القاهرة : مطبعة المنار ، ١٣٢٨ هـ .
- الزهراوي ، عبد الحميد . " نظام الحب والبغض " رسالة في علم النفس وفلسفة الأخلاق . مجلة المنار : المجلد السادس ص ٢٧٠ - ٢٧٤ ، ٢٩٨ - ٣٠٢ ، ٣٣٥ - ٣٤١ ، ٥٥٢ - ٥٥٨ - ، ٧٧١ - ٧٧٥ ، ٧٤٥ - ٧٥٢ ، ٧٩٥ - ٧٩٩ - ٨٦٣ ، ٩١٠ - ٩١٦ . والمجلد السابع ص ٢٩ - ٣٣ ، ٦١ ، ١٨٧ ، ٦٦ - ١٩٣ .
- الزين ، علي . فصول من تاريخ الشيعة في لبنان . بيروت : دار الكلمة ، ١٩٧٩ م .
- سابيارد ، نازك . الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة . بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٧٩ م .

- سامي ، عبد الرحمن بك . القول الحق في بيروت ودمشق " رحلة قام بها إلى سورية ولبنان في أواخر القرن التاسع عشر " . بيروت دار الرائد العربي ، ١٩٨١ .

- ستودارد ، لوتروب . حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عجاج نويهض . علق عليه وأضاف له شكيب أرسلان . القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٥٢ هـ .

- السباعي ، بدر الدين . أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية " ١٨٥٠ - ١٩٥٨ " دمشق : دار الجماهير ، ١٩٦٧ م .

- شيفسكي ، ايفتو . السلسلة الذهبية في المسائل والأمثلة الحسابية للتعليم الاستعدادي والنظامي . عربته بتصرف الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية . بيروت : المطبعة الأدبية ، ١٩٠٣ .

- الشرباصي ، أحمد . شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام . القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٣ م .

- الشهابي ، حيدر . نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان . القاهرة : مطبعة السلام ، ١٩٠٠ م .

- الشهابي ، مصطفى . محاضرات عن القومية العربية " تاريخها وقوامها ومراميها " . القاهرة : جامعة الدول العربية " معهد الدراسات العربية العالية " ، ١٩٥٩ م ،

- الشهابي ، مصطفى . محاضرات في الاستعمار . القاهرة : جامعة الدول العربية " معهد الدراسات العربية العالية " ١٩٥٧ م .

- الشيال ، جمال الدين . رفاعة الطهطاوي . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٥ م .

- صايغ ، أنيس . تطور المفهوم القومي عند العرب ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦١م .
- صعب ، حسن . تحديث العقل العربي . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠م .
- الصباغ ، ليلي . المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني . دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٧٣ م .
- طرازي ، الفيكونت فيليب دي . تاريخ الصحافة العربية - بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٩١٣م .
- الطهطاوي ، رفاعه . مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية . القاهرة : شركة الرغائب ، ١٩١٢ .
- عبد اللطيف ، كمال . سلامة موسى وإشكالية النهضة . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ١٩٨٥ .
- عبده ، محمد . الإسلام بين العلم والمدنية . عرض وتحقيق وتقديم طاهر الطناحي . القاهرة : كتاب الهلال ، ١٩٦٠ م .
- عبده ، محمد . رسالة التوحيد . القاهرة : مكتبة الثقافة العربية ، تاريخ النشر مجهول .
- عبود ، مارون . رواد النهضة الحديثة . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٢ م .
- علوش ، ناجي . عودة إلى موضوعات الثورة العربية . دار الكاتب ، ١٩٧٨ م .
- علي ، محمد . الرحلة الشامية . بيروت : دار الرائد العربي ، ١٩٨١ م .

- عمارة ، محمد . العروبة في العصر الحديث . بيروت : دار الوحدة ، ط ٣ ، ١٩٨١ م .
- عمارة ، محمد . فجر اليقظة القومية . بيروت : دار الوحدة ، ط ٣ ، ١٩٨١ م .
- العدوي ، ابراهيم أحمد . رشيد رضا الإمام المجاهد . القاهرة : الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٤ م .
- العروبي ، عبد الله . الأيديولوجية العربية المعاصرة . ترجمة محمد عيتاني : بيروت : دار الحقيقة ، ط ٤ ، ١٩٨١ م .
- العقاد ، عباس محمود ، محمد عبده . القاهرة : مكتبة مصر ، دون تاريخ .
- العلاف ، أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٧٦ .
- غرايبة ، عبد الكريم . العرب والأترك " دراسة لتطور العلاقات بين الأمتين خلال ألف سنة " . دمشق : جامعة دمشق ، ١٩٦١ م .
- فارس ، نبيه أمين . وحسين ، محمد توفيق . هذا العالم العربي " دراسة في القومية العربية وفي عوامل التقدم والتأخر والوحدة والتفريق في العالم العربي " . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٣ م .
- فكري ، محمد أمين . إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا . القاهرة : مطبعة المقتطف ١٨٩٢ م .
- فهمي ، ماهر حسن ، قاسم أمين . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م .

- فهمي ، ماهر حسن . محمد توفيق البكري . القاهرة : دار
الكاتب العربي ، ١٩٦٧ م .
- فرقوط ، ذوقان : المشرق العربي في مواجهة الاستعمار " قراءة
في تاريخ سوريا المعاصر " . القاهرة . الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، ١٩٧٧ .
- قرني ، عزت . العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة .
الكويت : عالم المعرفة . ١٩٨٠ م .
- القاسم ، أنيس ، معنى الحرية في العالم العربي ، بيروت : دار
بيروت ، ١٩٥٥ م .
- القاسمي ، جمال الدين . الفتوى في الإسلام . دمشق : المجلد
السادس من مجلة المقتبس ، دون تاريخ .
- القش ، سهيل . في البدء كانت الممانعة " مقدمة في تاريخ الفكر
السياسي العربي " . بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٠ م .
- كرد علي ، محمد . خطط الشام . دمشق : مكتبة النوري ، ط ٣ ،
١٩٨٣ م .
- كرد علي ، محمد . المذكرات . دمشق : مطبعة الرّقي ،
١٩٤٩ م .
- كوثراني ، وجيه . بلاد الشام ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في
مطلع القرن العشرين " قراءة في الوثائق " . بيروت : معهد
الإغناء العربي ، ١٩٨٠ م .
- كوثراني ، وجيه . وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣ م " كتاب
المؤتمر والمراسلات الفرنسية المتعلقة به " . بيروت : دار الحداثة ،
١٩٨٠ م .

- كوثراني ، وجيه . الاتجاهات " الاجتماعية - السياسية " في جبل لبنان والمشرق العربي " ١٨٦٠ - ١٩٢٠ م . بيروت : معهد الإغناء العربي ، ط ٣ ، ١٩٨٢ م .
- كوتلوف ، ل . ن . تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي " منتصف القرن التاسع عشر - ١٩٠٨ " . ترجمة سعيد أحمد . دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي " ١٩٨١ م .
- الكواكبي ، عبد الرحمن . طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . بيروت : دار القرآن الكريم ، ط ٢ ، ١٩٧٣ م .
- لويس ، برنارد . الغرب والشرق الأوسط . تعريب نبيل صبحي . مكان النشر : مجهول ، الناشر مجهول ، تاريخ النشر مجهول ويرجح أنه في أوائل الستينات من هذا القرن .
- اللجنة العليا لحزب اللامر كزية . المؤتمر العربي الأول . القاهرة : اللجنة العليا لحزب اللامر كزية " ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م " .
- مجهول . مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سورية . تحقيق أحمد غسان سبانو . دمشق : دار قتيبة ، دون تاريخ .
- مجهول . تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي " ١١٩٥ - ١٢٥٧ هـ " " ١٧٨٢ م - ١٨٤٨ م " . تحقيق وتقديم أحمد غسان سبانو . دمشق : دار قتيبة ، ١٩٨١ م .
- محمد ، محمد عوض ، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية . دمشق : مديرية الكتب المدرسية ، ١٩٦٤ م .
- مشابك موسى ، منير . الفكر العربي في العصر الحديث " سوريا من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨ " . بيروت : دار الحقيقة ، ١٩٧٣ م .

- مراش ، فرنسيس فتح الله . دليل الحرية الإنسانية . حلب : ١٨٦١ م .

- مردم بك ، خليل . أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع ، قدم له وعلق حواشيه عدنان مردم بك . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٧٧ م .

- ياغي ، هاشم . ملامح المجتمع اللبناني الحديث . بيروت : دار بيروت ، ١٩٦٥ م .

- ياسين ، السيد . تحليل مضمون الفكر القومي العربي " دراسة استطلاعية " . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٠ م .

- مهرجان الفكر والعقيدة لتكريم ذكرى عبد الحميد الزهراوي ورفيق سلوم وعزة الجندي . دمشق : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ م .

- الطهارة والمحبة أو المدرسة الإنجيلية الوطنية بخص سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ م " السنة الخامسة " . بيروت : المطبعة الأدبية ، ١٩١٠ م .

- بشارة تقلا باشا " ١٨٧٣ - ١٩٠١ م " أقوال الجرائد ومراثي الشعراء ومختارات من أقوال الفقيه المنشورة في الأهرام " . القاهرة : دار الأهرام ، ١٩٠٢ م .

- المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام " ٩٢٢ - ١٣٥٨ هـ - ١٥١٦ - ١٩٣٩ م " المنعقد في دمشق من ٢٥ ذي الحجة ١٣٩٨ هـ إلى ٣ محرم ١٣٩٩ هـ ، الموافق ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٨ إلى ٢ كانون الأول ١٩٧٨ . وقد صدرت أبحاث المؤتمر

في كتاب مستقل أصدرته وزارة التعليم العالي السورية بتاريخ
كانون الأول ١٩٧٩ م.

والأبحاث والدراسات التي تم الرجوع إليها والمتعلقة مباشرة بموضوع
الرسالة هي

١ - دراسات الجزء الأول :

- خوري ، فيليب شكري ، " طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في
دمشق ١٨٦٠ - ١٩٠٨ . "

- سعيدوني ، ناصر الدين . " نظرة في أراضي الميري ببلاد الشام
أثناء العهد العثماني . "

- شليشر ، ليند . " بعض مظاهر أحوال الأعيان بدمشق في أواخر
القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . "

- عاشور ، عبد الفتاح . المجتمع الشامي في العصر العثماني بين
العصور الوسطى والحديثة

٢ - الدراسات المنشورة في الجزء الثاني :

- أحمد حران ، تاج السر . " دور السوريين في ظهور الحركة
القومية العربية وتطورها " ١٩٠٨ - ١٩١٤ . "

- حنا ، عبد الله . تحركات العامة في دمشق وحلب في القرنين
الثامن عشر والتاسع عشر . "

- شيتبان ، فريتز . " تغلغل المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في
القرن التاسع عشر " إسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد
الشام . "

- ضاهر ، مسعود . إشكالية نظرية لدراسة التطور التاريخي للمسألة
الطائفية في لبنان .

- كريم ، مصطفى . " المنافسة الإمبريالية الفرنسية الإنكليزية والاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان " مقتبس عن المصادر الفرنسية.

- كوثراني ، وجيه . " مشاريع السيطرة والتجزئة في بلاد الشام من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية " ١٩١٥ - ١٩٢٠ .

- محي الدين ، جهاد مجيد . " المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا " ١٩١٥ - ١٩١٦ .

- موسى ، منير . " محب الدين الخطيب " .

- المجلات والدوريات والصحف -

- الفكر العربي : العدد ١ ، السنة ١ ، ١٥ حزيران - ١٥ تموز ١٩٧٨ .

- الفكر العربي : العدد ٢ ، السنة ١ ، ١٥ آب - ١٥ ت ١٩٧٨ .

- الفكر العربي : العدد ١٩ ، السنة ٣ ، ك ٢ - شباط ١٩٨١ .

- الفكر العربي : العدد ٢٢ ، السنة ٣ ، أيلول ت ١٩٨١ .

- الفكر العربي : العدد ٢٣ ، السنة ٣ ، ت ١ - ت ٢ ١٩٨١ .

- الفكر العربي : العدد ٢٧ ، السنة ٤ ، أيار - حزيران ١٩٨٢ .

- الفكر العربي : العدد ٢٨ ، السنة ٤ ، تموز - أيلول ١٩٨٢ .

- الفكر العربي : العدد ٣١ ، السنة ٥ ، ك ٢ - آذار ١٩٨٣ .

- الفكر العربي : العدد ٣٢ ، السنة ٥ ، نيسان - حزيران ١٩٨٣ .

- الفكر العربي المعاصر : العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٣ .
- الفكر العربي المعاصر : العدد ٣٧ لسنة ١٩٨٦ .
- تاريخ العرب والعالم : العدد ٤٣ ، ايار ١٩٨٢ .
- تاريخ العرب والعالم : العدد ٦١ ، أيلول ١٩٨٣ .
- تاريخ العرب والعالم : العدد ٧٧ - ٧٨ ، آذار - نيسان ١٩٨٥ .
- الموقف : العدد ٤ ، أيلول ١٩٨٣ .
- الموقف : العدد ٢٢ ، آذار ١٩٨٥ .
- الموقف : العدد ٣٢ ، ك ٢ ١٩٨٦ .
- مواقف : العدد " ٤٧ - ٤٨ " ، صيف - خريف ١٩٨٣ .
- دراسات تاريخية : مجموعة الأعداد التي صدرت لغاية ١٩٨٥ .
- قضايا عربية : العدد ٣ السنة السابعة ، آذار ١٩٨٠ .
- الباحث : العدد ٢٢ ، السنة ٤ ، آذار - نيسان ١٩٨٢ .
- الباحث : العدد ٢٣ ، السنة ٤ ، أيار - حزيران ١٩٨٢ .
- الباحث : العدد ٢٦ ، السنة ٥ ، آذار - نيسان ١٩٨٣ .
- الباحث : العدد ٢٨ ، السنة ٥ ، تموز - آب ١٩٨٣ .
- الباحث : العدد ٣٧ ، السنة ٧ ، ك ٢ - آذار ١٩٨٥ .
- الباحث : العدد ٣٨ ، السنة ٧ ، نيسان - حزيران ١٩٨٥ .
- المستقبل العربي : العدد ٧٦ ، حزيران ١٩٨٥ .
- المستقبل العربي : العدد ٧٧ ، تموز ١٩٨٥ .

- المستقبل العربي : العدد ٨١ ، تشرين الثاني ١٩٨٥ .
- دراسات عربية : العدد ٨ ، السنة ١٩ ، حزيران ١٩٨٣ .
- دراسات عربية : العدد ٥ ، السنة ٢٢ ، آذار ١٩٨٦ .
- الواقع : العدد ٤ ، السنة ١ ، شباط ١٩٨٢ .
- الواقع : العدد ٥ - ٦ ، السنة ٢ ، ك ١٩٨٣ .
- المنار : المجلدات من ٤ - ٢٢ خاصة .
- الإنسانية " الحموية " : أعداد السنتين الأولى والثانية لاسيما :
الجزء الثامن للسنة الأولى الصادر في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٠ .
والجزء الثاني للسنة الثانية الصادر في ١٤ أيار ١٩١١ .
- مجلة اجمع العلمي العربي : م ١٥ ، ج ١١ - ١٢ . دمشق ١٩٣٧ .
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : م ٤٢ ، ج ٤ ، تشرين الأول ١٩٦٧ .
- جريدة النبراس .
- جريدة الجريدة " القاهرية " : لاسيما أعداد السنوات الأولى .
خاصة عدد ١٠ أيلول ١٩٠٧ .
- جريدة المؤيد : لاسيما أعداد السنوات ١٩٠٢ - ١٩٠٥ .
- المقطم : مجموعة أعداد .



المحتوى

٥	- الإهداء
٦	- مقدمة :
٩	- الفصل الأول : العصر وبنية المجتمع .
١٨	الحياة الاجتماعية والسياسية
٦٧	- الفصل الثاني : الرجل .
٩٠	- الفصل الثالث : الحرية
١١١	- الفصل الرابع : العدالة
١٢٣	- الفصل الخامس : التربية السياسية .
١٤٣	- الفصل السادس : مقاومة التعصب .
١٦٩	- الفصل السابع : العروبة .
١٩٩	- الفصل الثامن : التجديد .
٢٢٥	- الفصل التاسع : الاصاله والحدائث في فكر الزهراوي .
٢٤٦	- خاتمة .
٢٦٣	- المصادر والمراجع .
٢٧٩	- المحتوى .



الحلاق ، محمد راتب ، عبد الحميد الزهراوي ، دراسة في فكره السياسي والاجتماعي ،
الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،
٢٨٠ ص ، قياس ١٧ x ٢٥ سم

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥/٣/٢٠٠٠



الكتاب هو ملك للجميع
لا يجوز بيعه أو إيجاره أو كراءه أو نقله أو توزيعه أو أي شكل من أشكال استغلاله التجاري
مطبعة اتحاد الكتاب العرب - دمشق